مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية دورية محكمة تعنى بالقضايا التاريخية والاجتماعية يصدرها فريق بحث المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط – موريتانيا

الرئيس الشرفي: د. حمودي ولد حمادي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مدير المجلة: د. محمد الراضي ولد صدفن رئيس التحرير: د. محمد الأمين ولد أن

أعضاء هيئة التحرير:

د. الشيخ سعد بوه كمرا، موريتانيا

د. محمدن ولد التليميدي، موريتانيا

د. أحمد مولود ولد أيده، موريتانيا

د. أمهادي ولد جقدان، موريتانيا

أ. عبد الوهاب ولد محفوظ، موريتانيا

د. محمد الأمين ولد محمد موسى، موريتانيا

د. واغي عثمان، موريتانيا

د. الحسين ولد بديدي، موريتانيا

د. عبد الرحمن بعثمان، الجزائر

الهيئة الاستشارية:

أ.د إسماعيل نوري الربيعي، البحرين

أ.د عبد القادر بوباية، الجزائر

أ.د محمد بن معمر، سلطنة عمان

أ.د بلهواري فاطمة، الجزائر

د. محمد المختار ولد سيد محمد، موريتانيا

أ. د الحمدي أحمد، الجزائر

د. أحمد ولد حبيب الله، موريتانيا

د. عيسى محمود العزام، الأردن

د. عمر راجح شلبي، فلسطين

شروط النشر

1- يجب أن يكون المقال المقترح للنشر أصيلا لم يسبق تقديمه لمجلة أو أي جهة ناشرة أو أكاديمية، وأن لا يكون جزءا من رسالة عليمة.

2- لا يتجاوز المقال الواحد 15 صفحة حتى تتاح فرصة النشر لأكبر عدد من الباحثين.

3- ترسل المقالات إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب باستعمال Word باللغة العربية:

- **الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic الحجم 14 أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم 12**

4- بالنسبة للمقالات المحررة باللغة الفرنسية:

- **الخط المستخدم في المتن Timed New Roman الحجم 12، أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم 10**

5- أن يكون توثيق الكتب بذكر شهرة المؤلف متبوعا باسمه الأول والثاني واسم الكتاب، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة والناشر ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد.

6- أن يكون توثيق الدورية بذكر اسم كاتب المقال، عنوان المقال موضوعا بين علامتي تنصيص " " ، واسم الدورية، ورقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة.

7- يلتزم الباحث القيام بالتصويبات والتعديلات التي اقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلمها.

8- الأبحاث المنشورة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها

9- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية

10- يكتب الباحث في الصفحة الأولى من البحث إسمه وعنوانه الكامل بالهاتف والإيميل والمؤسسة التي ينتمي إليها، وكذلك الدولة.

11- يكتب ملخصا باللغة العربية وآخر باللغة الفرنسية بما لا يزيد عن 100 كلمة لكل منهما، على أن يكونا في ورقتين منفصلتين.

12- مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية محكمة، وهي ترحب بجميع المقالات المستوفية للشروط السالفة الذكر، ولا ترد المقالات لأصحابها في حال عدم نشرها.

وعليه نرجو من كل الراغبين في نشر أعمالهم بالمجلة أن يبعثوا بها على البريد الإلكتروني التالي: mohamed_lemin@yahoo.fr

كلمة العدد:

لقد صدر بعون من الله تبارك وتعالى العدد الأول من مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية في يونيو 2013، في جو من الحماس الشديد الممزوج بمزيج من التفاؤل بمواصلة المسيرة والخوف من ردود الفعل وتعثر المشروع، إذ أن الكثير من الدوريات التي تصدر ما تلبث أن تتوقف وتختفي لهذا السبب أو ذاك.

إن جهودا كثيرة تبذل لمواصلة صدور المجلة بانتظام ومن دون توقف على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي اعترضتها.

وهنا نؤكد على أننا تمكنا بفضل الله من التغلب على الكثير من المتاعب العديدة من حيث الطباعة والإخراج وسلكنا من ناحية أخرى أكثر من سبيل لحث الباحثين الوطنيين للمساهمة في إغناء المجلة ورفدها بعطاءاتهم من المادة العلمية الرصينة والمقبولة للنشر.

ومنذ صدور العدد الأول يسعى القائمون على المجلة إلى أن تؤتي جهودهم ثمارها وهو ما تأكد نسبيا باتساع دائرة الباحثين الذين كسبنا ثقتهم سواء في الداخل والخارج، وأصبح بنك المقالات الواردة إلى المجلة يساوي عشرات المقالات.

ولا يفوتنا في هذا المقام السعيد بمناسبة صدور العدد الثامن إلا أن ننوه بالتعاون المثمر مع الكثير من الباحثين الذين يتواصلون معنا يوميا من مختلف البلدان على سبيل المثال لا الحصر: من الجزائر والمغرب وتونس وليبيا والمملكة العربية السعودية والبحرين والأردن ومصر والسودان والعراق وتركيا وألمانيا وهولندا ...إلخ. ونعدهم بأن الأبواب أمام مساهماتهم مفتوحة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) صدق الله العظيم.

والله من وراء القصد.

رئيس التحرير

د. محمد الامين ولد أن

فهرس المحتويات:

– دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 18–19م، د. أج ولد محمد ولد أمينوه، ص5

– جوانب من الفكر والثقافة في الحضارة الإسلامية: منهج الدولة الحمادية في التسامح الديني 1007م–1152م، د.عبد الكامل جويبة، ص 30

– المشترك الثقافي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية: من الصراع إلى الحوار..من التباعد إلى التجاور ..من التنافر إلى التعاون، د. محمد بنتاجة، ص 40

– الثورة الجزائرية من خلال الصحافة التونسية (جريدة العمل أنموذجا)، د. رضوان شافو، ص 49

– مراحل الصراع الاسباني الجزائري 1500 –1571 معركة مزغران وانعكاساتها المحلية والدولة أنموذجا، د. محمد بليل، ص 69

– الأسس الحضارية للنيوليتي الصحراوي السوداني بالصحراء الكبرى، د .محمد رشدي جراية، ص90

– قراءة تاريخية لمكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947–1950م، أ. عبو نجاة، ص 110

– التعريف بمخطوط: "خبر قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خير الدين " لمؤلفه خير الدين بربروس د.لعباسي محمد، ص 122

– الحدائق والمنتزهات في مدينة حائل وأهميتها السياحية، د. ميمونة بنت الإمام، ص 137

– الموارد المعدنية لموريتانيا، (الواقع والآفاق)، لاله بنت سدي الأمين، ص 149

دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 18-19م

د. أج ولد محمد ولد أمينوه، الجامعة الإسلامية، العيون، موريتانيا

مقدمة:

ترى جل الدراسات أن الكنتيين هم أول من أدخل هذه الطريقة إلى أقاليم المغرب الصحراوية، وأجزاء كبيرة من شمال إفريقيا، وغربها على يد سيد أحمد البكاي[1]، وابنه سيد أعمر الشيخ[2] الذي سيصبح الرئيس الأعلى للطريقة القادرية[3] الكنتية، وإن ظل اسم (البكائية) لصيقا بها، أو بالأحرى علما عليها نسبة إلى البكاي الذي يقول عنه أحد الباحثين: " رغم كونه متصوفا كبيرا على الطريقة القادرية لم يفعل أي شيء من أجل انتشار هذه الطريقة[4].

وقد أخذ سيد أعمر الشيخ الطريقة القادرية على يد المغيلي[5] الذي لقيه إبان مقفله من سفرته إلى الديار المقدسة، يقول عن ذلك المختار الكنتي في الإرشاد: "{....} ثم حج، ورجع إلى المغرب، فجال في بلاد التكرور، فلقي بها الشيخ الجليل القطب الكامل سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، وقد أقبل من بلاد هوص يريد التكرور، والمغرب الأقصى برسم دعوى الناس إلى الإسلام، والهدى والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحمل الناس على السنة والحجاب..."[6]. ويواصل المختار الكنتي أيضا حديثه بأسلوب مناقبي مستفيض يحوم حول لقاء سيد أعمر الشيخ والمغيلي، وتبادلهما الأخبار والأفكار، وما يتخلل ذلك من قصص، وخوارق عجيبة. ويخلص إلى الحديث حول دخولهما على السيوطي في مسجده، ومناظرة المغيلي للسيوطي، وتفوقه عليه، واعتراف السيوطي بذلك[7]. وكان من نتائج هذا اللقاء العلمي أن الميغلي والسيوطي قد تبادلا الأوراد، لكن واقع الحال يظهر أن المغيلي أخذ عن السيوطي، وأعتمده ضمن سلسلته. وإن كان في أمر لقاء الرجلين ضباية كبيرة، سواء تعلق الأمر بنوع الأوراد التي تبادلاها؟ أو ما طرح من استفهام حول طريقة المغيلي نفسه، إذ يعتبره البعض شاذليا[8]. بصرف النظر عن هذا النقاش الطويل الذيل فإن سيد أعمر الشيخ لما توفي المغيلي توج أستاذا للطريقة، وعمل على نشرها[9]. وهكذا وجد أبناؤه من بعده أنفسهم في هم الأمانة الملقاة على عاتقهم من أجل نشر هذه الطريقة. ورغم أنهم تواصوا بنشرها إلا أنها عرفت فتورا بعد التأسيس؛ لتصل بعد ذلك إلى ذروة مجدها، وأوج عزها مع الشيخ سيدي المختار الكنتي، وابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، وحفيديه سيد المختار، وسيد أحمد البكاي[10].

1- أبرز رجالات القادرية المختارية

إذا كانت القادرية الكنتية قد عرفت بعد مؤسسيها الأول نوعا من الفتور – كما سبقت الإشارة إلى ذلك- فإنها قد برزت بثوب قشيب، وصوت رهيب مع الشيخ سيدي المختار الكنتي الذي تسمت الطريقة في هذه المرحلة بالذات باسمه، ثم حمل أبناؤه من بعده لواء الطريقة التي بلغت في القرنين 19/18 ميلاديين أقصى درجات الصيت وأوسع فضاءات الانتشار؛ لذلك لا بد من التعريف ولو يسيرا بالمختار الكنتي مجدد الطريقة[11]، وحفيديه سيد المختار الصغير وسيد أحمد البكاي؛ الذين قادا زمام الطريقة فيما

بعد، ونسجا خيوط الوصل الثقافي بين بلاد شنقيط وبلدان الأقطار الإسلامية خاصة في أجزاء واسعة من الغرب الإسلامي.

أولا: الشيخ سيدي المختار الكنتي:

إن التعريف بهذا العالم يقتضي منا إعداد مجلد ضخم نظرا إلى شهرة الرجل، وعلو قدره، وغزارة ما أعد حوله من دراسات لكن مقامنا لا يتسع لذلك فحسبنا أن نقدم ورقة تعريفية حول نسبه، وشذرات من حياته العلمية على وجه الخصوص.

أ.التعريف به:

هو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن حبيب الله بن الوافي بن سيدي أعمر الشيخ بن سيد أحمد البكاي بن محمد الكنتي المولود (1142هـ/1729م) في كثيب أوغال، وتوفي سنة: (1226هـ/1811م)[12] .

يعد المختار الكنتي أهم أعلام الطريقة الكنتية بل وأبرز رجالات التصوف في عموم منطقة غرب الصحراء والساحل السوداني. يقول عنه ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة: " هو الذي أحيى رسوم الطريقة بعد العفاء، وبعث رمم الحقائق بعد طول الإماتة والثواء، فأعلم المجاهل وخم، وعرق، ورسم، وبين وقسم، وأورد وأصدر ورقى وصدر، وألف، وصنف، ونوه، وشنف[13]" ويقول عنه البرتلي في فتحه: " الشيخ سيد المختار القطب الرباني، والغوث الصمداني الولي ذو البركات، وشيخ الأشياخ السادات،{...} ساقي المريد، وعمدة أهل التوحيد...[14]. وقال عنه الشيخ سيديا الابيري: " جئته وقد انتهيت من تحصيل العلم فردني مبتدئا"[15].

لقد بلغ الكنتي هذا المبلغ بعد رحلة صعبة وشاقة جاب خلالها ديار وخيام أهل الصحراء والسودان، ينتقل بين أحياء السوقيين من لبرابيش[16]، وغيرهم طالبا للعلم، وهو حدثا لما يبلغ الحلم بعد، فصادف عدة شيوخ أخذ عنهم رغم مضايقات بعض لداته له خشية الشفوف لما شاهدوه من نباهته، وشدة مثابرته. وكانوا ينقمون منه العناية الفائقة التي يوليها الشيخ له، لكن ذلك ما زاده إلا عزيمة. يقول هو بنفسه عن قوة حفظه: " وكنت مدة إقامتي عندهم (يقصد أحد أشياخه) أكتب سبعة ألواح كل لوح في فن، فأحفظ تلك الألواح كلها، وأفسر مع أهل كل فن الدرس الموافق لدرسي، ثم أسمع الدروس الخارجة عن درسي ، فإذا راجعت أرباب الدروس الموافقة لدرسي أمليت عليهم جميع ما أملى المقرئ في مجلس الدرس حتى يأخذ الجميع عني جميع ذلك"[17].

وقد ساق ابنه سيد محمد الخليفة في كتابه (الطرائف والتلائد)- الذي ألفه لأجله هو ووالدته- ساق فيه عن حياة هذا الشيخ العجب العجاب من النوادر، والطرائف المهمة بأسلوب مناقبي تخيم عليه ظلال الخوارق، والكرامات، ولكن لا نجد وجاهة في سلك ذلك الفج لنكتفي بالتعريج على ومضات من فكر الرجل ورؤاه[18].

ب. فكر المختار الكنتي:

تدين الطريقة القادرية في غرب إفريقيا والصحراء بشكل لا يقبل المكابرة للشيخ سيدي المختار الكنتي إثر ما بذله الرجل من جهد في الرفع من مكانة هذه الطريقة، وتقوية دعائمها؛ فقد ألف جميع الأوراد، والأذكار، والأدعية المتداولة اليوم بين المريدين، وكان شعره الصوفي لافتا للنظر.

فقد نظم كمّا لا يستهان به من القصائد في الأحوال والمقامات، ومجاهدات الصوفية، وأهتم في السنوات السبع والعشرين من عمره بتأليف الكتب حيث يذكر أنه ألف اثنين وتسعين كتابا منها ما يقع في مجلدات ضخمة؛ وهي في شتى فنون العلم والأدب (من تفسير وحديث، وأصول، وفقه، ونحو، وبلاغة، ومعاني، وتاريخ، فضلا عن التصوف)[19].

وقد بذل مجهودا عظيما في نشر هذه العلوم والمعارف، فأنشأ مدارس عديدة في منطقة منحنى نهر النيجر، وبلاد شنقيط والصحراء؛ لنشر تعاليم الإسلام والطريقة القادرية. وكان على الصعيد اللوجستي يقوم بالإنفاق على الطلاب، والمعلّمين، وتزويدهم بالغذاء، وما يحتاجونه من مؤن. ولم يقتصر نشاطه على ذلك بل كان يقوم بجولات يطوّف فيها بالبلاد الواقعة ما بين المحيط الأطلسي في الغرب، وبلاد النيجر في الشرق، وما بين وادي درعة، وتوات في الشمال، وما وراء نهري السنغال، والنيجر في الجنوب، كما كان يبعث أبناءه في سفارات للغرض ذاته[20].

وكان الشيخ يحمل في ذهنه مشروعا إصلاحيا، ودينيا مرده (فكرة التجديد) التي شغلت عهدئذ بال الكثير من العلماء في غرب إفريقيا، والصحراء خلال القرنين: 12-13هجريين/ 18-19 ميلاديين. وقد نبتت هذه الفكرة- كما يرى عزيزبطران- في وسط الشيعة في المشرق الإسلامي، ثم ما فتئت أن وصلت إلى بلاد السودان، والصحراء عن طريق مخطوطات جلال الدين السيوطي، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي[21]، وأفاض العلماء الحديث حولها[22]. لكن الشيخ المختار الكنتي كان يعي تماما ظروف الزمان والمكان، ويتطلع – بعد أن واتته الفرص- إلى تمرير فكرة مشروع التجديد إذ ناقشها في أكثر من موضع، واعتبر نفسه مجدد عصره مستدلا بالحديث الشريف: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها،" وأنشد في ذلك قصيدة جاء فيها:

رأيـــت المصـــطفى فـــي النـــوم حقـــا فبشـــــرني وأدنـــــاني إليـــــه

إلى أن قال:

إنـــــك المبعـــــوث صـــــدقا تجـــدد ســـنتي فاصـــبر عليـــه
وأقبـــل بالثنـــاء علـــى ضـــيوفي وأخبـــر أنهـــم مـــن صـــفتيه
ولـــوح نحـــوهم ببهـــاء نـــور وأتحفهـــم بنظـــرة لحظتيـــه[23]

ويخلص الكنتي في نقاشاته لفكرة التجديد أنها ضرورة شرعية يمليها بل ويحتمها سوء حال المسلمين في مختلف مناحي الحياة، وهو ما يعبر عنه الشيخ سيدي المختار الكنتي بقوله: " وقوع أمر

عظيم عند رأس كل مائة سنة"[24]، حيث علم من نفسه حيازة الشروط المطلوبة في حق المجدد، دون أن يكون أنانيا أو متقوقعا على ذاته، فقد اعتبر أن أمرا بهذا الثقل لا ينبغي أن يكون حكرا عليه وحده بل هو هم أمة، وعمل شاق يحتاج إلى تضافر جهود أهل العلم، والورع والرشاد. يقول الكنتي في ذلك:" لابد أن يكونوا من أولي الأمر، ومن العلماء، ومن القراء، ومن المحدثين، ومن أهل الزهد، والورع وغيرهم، فإن كل فريق من هؤلاء ينتفع به في غير ما ينتفع بالآخر"[25].

وقد عمل المختار الكنتي على تنفيذ مشروعه العلمي والديني هذا، فانتفع به خلق كثير. إذ ردم الكثير من الفجوات، وأطفأ نار العديد من الحروب، والنزاعات البينية، والقبلية بتدخلاته الوجيهة، وآراءه الصائبة، كما تخرج على يديه جيل كبير من العلماء وأرباب التصوف[26] الذين سيكون لهم فيما بعد الدور اللامع في نشر طريقته، وتمديد دائرة مشروعه الإصلاحي، والوصول به إلى مكانة مرموقة، لكنا سنقتصر فقط من بين هؤلاء التلاميذ والأتباع على حفيديه سيدي المختار الصغير، وأحمد البكاي.

ثانيا: سيدي المختار الشيخ بن الشيخ سيد محمد

أ. التعريف به:

هو الشيخ سيد المختار الصغير بن سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي (المتوفى: 1847م)، ثالث الشخصيات اللامعة في الطريقة المختارية الكنتية بعد أبيه وجده، ومجدد مسارها، وواصل حلقاتها إثر ما بذله من جهد ما كنا لنقف عليه لولا عثورنا على تراجم لشخصيات علمية، ودينية مرموقة تعود في سلسلتها إلى هذا الشيخ بالمباشرة أو بغيرها؛[27] لأن الوثائق لا تسعفنا بالشيء الكثير عن حياة هذا الرجل خاصة ما يتعلق منها بمسار حياته العلمي، ونشاطاته الثقافية، والدينية رغم المكانة السامقة التي تبوأها في هذا الخصوص[28].

يذكر أبول مارتي أنه تلقى تعليمه تحت إشراف جده المختار الكنتي، ثم أشرف عليه من بعده والده سيد محمد الخليفة، وهي دراسة يصفها أبول مارتي بقوله:"أ قول كانت هذه الدراسة لامعة جدا"[29]. فماذا عن نشاطاته الفكرية؟

ب. صلته بالمغرب:

بعد وفاة الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، تسلم سيدي المختار الصغير زمام قيادة القبيلة الكنتية سياسيا وروحيا، وتزعم بذلك مأمورية القادرية المختارية ليصبح شيخها بلا منازع، وذلك منذ عام 1826م[30] في جو بدأ يزداد قتامة على خلفية وفاة والده، وهو ما يصفه أبول مارتي: " بالوضع العسير" فكان لزاما عليه أن يتصدى لكل هذه الملمات[31]، وليس هذا مجال الخوض في تفاصيل تلك الأمور. كل ما يهمنا في هذا السياق هو أن سيد المختار الصغير بوصفه رجل دين كبير، وشيخ طريقة ذات أتباع منتشرين في بقاع واسعة، كان لا يتوقف عن مراسلة رجال السياسة، وأرباب العلم والدين ممن تربطه بهم صلة، أو توصل بسبيل ما إلى أخبارهم ليعزز بذلك مكانته، ويرفع برسمه اسمه إلى أمصار عديدة.

ومن أشهر هذه الرسائل الرسالة التي وجهها إلى سلطان المغرب المولى عبد الرحمن بن هشام، وقد تعرف على أخباره عن طريق تلامذة الزاوية الكنتية القادمين من أرض المغرب حيث وصفوا له شغف السلطان بالعلم، واعتنائه بالعلماء، وحسن سيرته في الحكم.

يقول في هذا الصدد:" وقد قدم إلينا من ناحيتكم الميمونة الفاضلان الأديبان: السالك الناسك الصادق الذائق سيدي باب أحمد بن عبد الرحمن[32]، والفقيه النبيه الأجل الأدل سيدي محمد بن العالم النحرير الحبر الشهير أحمد بن دح الزموريان[33] في وفدهما المبارك غير خزايا ولا ندامى، فأثنوا عليك بما أنت أهله، ونشروا من فضائلك ما طوى البين، وفصلوا وأذاعوا من تقريبك العلماء، واحتفائك بالعلم، وصرفك عنان الهمة إليه، وإحيائك السنة، وإماتتك البدعة{...}، فهيج ذلك من دواعي الود القديم، وحرك من هامد الطبع الرميم..."[34]. ويبدو أنه بلغ من نفسه مبلغا عظيما فوجه إليه هذا الخطاب.

وقد حملت الرسالة عنوانين لم يفلح المحقق في ضبط أحدهما، واعتماده فلجأ إلى إبقائهما، وهما: (الرسالة العلوية)، أو (الرسالة العجالة الرائقة في العمالة)، وليس العنوان بالنسبة لنا مهما بل غايتنا هي مضمون هذه الرسالة.

لقد تضمنت هذه الرسالة– بعد الثناء على صاحبها المرسلة إليه– مجموعة من الأفكار حول فن السياسة، وأدبيات الحكم؛ فهي بمثابة مؤلف في سياسة الحكم[35]. ومن أهم الأفكار التي تناولتها هذه الرسالة:

- طبيعة علاقة الحاكم بالمحكوم، وما يترتب عليها.
- نصيحة ولاة الأمرعامة: غايتها، وحدودها، ومن يقوم بها.
- العلم والعلماء ودورهم في السلطة.
- وظيفة الحجابة.
- الحلم، وضرورة تحلي الحاكم به.

وليس المقام متسعا للتفصيل في محاور هذه الرسالة، وقد فصل مؤلفها في كل محور على حدة، مستعرضا الأدلة والبراهين؛ من علوم الشرع، والأدب، والتاريخ... إلخ، وجاءت نهايتها تفسيرا للبعد العلمي، والثقافي في حياة المولى عبد الرحمن، وحرصه الفائق على اقتناء الكتب، ومؤلفات كل العلماء الذين يسمع عنهم، يقول المختار الصغير في خاتمة رسالته:"{...} ثم لتعلم أن هذا الوفد المبارك قد أبلغونا من جملة ما أبلغونا عنك من الفضائل، والمحامد شدة شوقك، وتعطشك إلى تآليف الشيخين الوالد والجد، وقد قدمت بين يدي نجوى كتابي إليك شرح الشيخ الوالد المدعو (بالروض الخصيب على نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب) للشيخ الجد الكبير[36].

وبهذا نختم حياة القطب الثالث من أقطاب القادرية المختارية لنقفي من بعده بالقطب الرابع أخو سابقه سيد أحمد البكاي الثالث في ترتيبنا لمشايخ القادرية المختارية.

ثالثا: سيد أحمد البكاي

أ. التعريف به:

اسمه سيد أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي أخو سابقه وخليفته، ولد حوالي سنة: 1803م في ضواحي المبروك الموقع القديم لزاوية كنتة الكائن شمال شرق تمبكتو، وتوفي رحمه الله سنة: 1865م، في ميدان معركة كان يقودها ببلدة سارا دبنا Sara dabna في إقليم ماسينا[37].

وقد سماه والده بهذا الاسم تخليدا لذكرى جدهم الأكبر الشيخ سيدي أحمد البكاي نزيل ولاته، ودفينها في القرن السادس عشر.

تلقى سيدي أحمد البكاي التعليم على أبيه، وجده جريا على سنن أخيه سيدي المختار الذي عاش فترة طويلة من حياته نائبا له، ليصبح ابتداء من سنة 1847م الخليفة الفعلي له. وقد جاب خلال هذه الفترة أماكن عديدة مثل: إقليم ماسينا، و إقليم سوكوتو، وهوقار، وتوات[38].

كان البكاي عالما جليلا، وأديبا كبيرا مثل أسلافه الذين تقدم ذكرهم، وقد ترك ثروة علمية كبيرة، ذكر أحد الباحثين أنها توجد منها فقط ستون مؤلفا محفوظة بمركز أحمد بابا التمبكتي، وتنقسم إلى ما يلي:

- ثلاثون قصيدة
- عشرون مراسلة
- ثلاثة أدعية
- ثلاثة فتاوى...إلخ[39].

وكان البكاي شاعرا مجيدا حيث تضاهي صولته في الشعر صولة الفرسان ووثبة الشجعان كما يصفه مترجموه؛ فهو يستخدم الشعر لإقناع الآخرين من جهة، ولأجل الدفاع عن مواقفه، وآرائه من جهة ثانية، فضلا عن موهبته الفائقة في فن الترسل[40].

وبعد وفاة سيدي المختار الصغير انتقلت إليه مباشرة القيادة السياسية، والدينية للقادرية المختارية، وأصبح المعلم الأكبر لمريدي هذه الطريقة في الصحراء، والسودان الغربي[41]، وصار بموجب ذلك رئيسا للزاوية المختارية، وزعيما للأخوية القادرية بهذه المنطقة. وكان يشارك شخصيا في تدريس العلوم الفقهية، وعلوم اللغة العربية لكل طلاب هذه الآفاق القاصدين ناحيته.

كان البكاي إلى جانب هذا كله رجل سياسة من الطراز الثقيل، وقائدا عسكريا فذا، ومحاربا شجاعا، دخل في كثير من مفاوضات الصلح، ووقع العديد من المعاهدات السياسية، والاقتصادية مع مجموعات: ال بول، والطوارق، والفلان، دون أن ننسى الفرنسيين. وتبادل البكاي المراسلات مع عديد من الشخصيات المشهورة في عصره، فعلى الصعيد الإفريقي كانت له مراسلات مع سوكتو، وحمد الله، وسيغو، وطرابلس، ومراكش. أما خارج إفريقيا فكانت له مراسلات مع مملكة بريطانيا، وحكومتها بواسطة المستكشف بارث[42]، غير أن الذي يهمنا من حياة البكاي هو نشاطه الفكري الذي مثل جانبا مهما من حياته خاصة في ميدان المراسلات.

وممن أستهدفهم أساسا في هذا الجانب خصمه اللدود الحاج عمر تال[43]، والفقيه محمد أكنسوس المغربي الذي لم يألوا جهدا في الرد عليه، وكانت مراسلته مع هذا الأخير نوعا مميزا من أنواع التواصل بينه وبين المغرب؟

ب. صلته بالمغرب

تزامن ظهور البكاي في النصف الأول من القرن التاسع عشر مع بروز يقظة دينية، وإسلامية عرفتها إفريقيا الغربية خلال هذه الفترة، ومن بين ما تمخض عنه ذلك الحمل الفكري عسير الولادة ظهور الحركة التجانية وانتشارها، ومحاولة أتباعها اكتساح القادرية، واستئصال شأفتها بوصفها الطريقة الأبرز آنذاك، والسابقة في الميدان، الأمر الذي فرض على سيد أحمد البكاي – وهو شيخ القادرية المختارية عهدئذ– أن يتصدى لخصومه بسيفه وقلمه. فدخل في صراع مرير مع التجانيين العمريين، والتجانيين المراكشيين يساعده في ذلك أتباعه القادريون من العرب والطوراق، والفولبى. ودارت بينه وبين أتباع الطريقة التجانية مسجالات فكرية غاية في الروعة لما لها من أثر في تنشيط الساحة الثقافية، إذ غدا كل فريق يطبل، ويزمر لطريقته، ويروج لمثاليتها، ويطعن بالمقابل في شرعية الطريقة الأخرى، وربما يتهمها بالسقوط في أوهاد الفسق والانحراف، وكمثال على هذا السجال الفكري سنأخذ رسالتين أرسلهما سيد أحمد البكاي إلى المغرب تندرجان في السياق ذاته.

أولا هما أرسلها إلى أهل مراكش، والثانية وجهها بشكل خاص إلى الفقيه الجليل محمد أكنسوس، وبالفعل وجد البكاي الرد الشافي على رسالتيه[44]، فماذا عن الرسالتين؟

–الرسالة الموجهة إلى مراكش:

يستهل سيد أحمد البكاي في رسالته هذه مخاطبة جماعة من أتباع طريقته (القادرية المختارية) من أهل مراكش وذلك بقوله: " إلى إخواننا وأحبائنا، وتلامذتنا المراكشيين عموما، وخصوصا..."[45]. ومن ضمن هؤلاء التلاميذ خص البكاي جماعة بالذكر وهم:

- الفقيه الصوفي الحاج محمد بن أحمد الصحراوي
- مقدم الزاوية المختارية الحاج محمد عمور
- إمام الزاوية مولاي المدني العلوي الشريف
- الفقيه السيد عبد الخالق الدباغ
- الفقيه السيد عبد السلام بن طاهر
- الفقيه سيدي عبد الله الديماني
- نقيب الشرفاء مولاي عبد الكبير بن مولاي الطايع

وبعد أن ألمع البكاي بذكر هؤلاء القادريين أراد من خلال رسالته أن يحض كافة المنتسبين لطريقته على التآخي، والتعاضد، ونبذ الشقاق، والفرقة مخبرا لهم بأنهم قدوة يقتدى بهم الفقهاء، ويهتدى

بهديهم الأصاغر الضعفاء، وأن شيخهم لا مثيل له في الأشياخ لذا فالتزام طريقته، والتعلق بسنده أمر ضروري، وغاية مثلى.

ثم لفت انتباههم إلى جانب مهم ربما فيه زبدة الرسالة، وهو أنه قرأ كتاب التجانية (ربما يقصد جواهر المعاني المؤلف في الشيخ التجاني) " فوجدت فيه –والكلام له– ذكرا لشيخنا سيدي عبد القادر الجيلي، وسموه بسلطان الأولياء{...} ، فتعجبت، وقلت سبحان الله كيف كتبوا بلا إرادة منهم، فإنهم يدعون أن لا مثل للتجاني في الأشياخ، ولا لأصحابه في الأصحاب..."[46]، ويبدو من كلامه الإشارة إلى تناقض التجانيين بحيث صنفوا عبد القادر الجيلاني سلطانا للأولياء، ومع ذلك اتبعوا من دونه مرتبة، وبالغوا في الثناء عليه.

ثم يواصل البكاي في ثنايا رسالته مشعرا تلامذته، وربما كل من سيقف على مكتوبه بأنه لم يبق من الطرق الصوفية طريق موصل بغير انقطاع إلا طريقة شيخه عبد القادر الجيلاني، خلافا لما حدث لبعض الطرق الأخرى التي انفرط عقدها وانقطعت أيما انقطاع. ولعل ذلك مصداق كلام شيخ الجيلاني عند ما قال له: " يا عبد القادر كل ديك يصرخ ثم يسكت إلا ديكك فإنه يصرخ إلى يوم القيامة"[47]، وأنه لا يوجد رجل واحد واصل مرب على وجه الأرض إلا وكان من تلاميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني، وعلى طريقته، كما أن أباه وجده هما خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني في حاله، ومقامه[48].

في سياق آخر يحاول البكاي أن يفت في عضد التجانيين، ويوهن حجتهم القائمة على الشائعات المغرضة التي يروجون لها، وهي فتح أبواب الرزق، والبركات على كل من انتسب للطريقة التجانية، فيعتبر البكاي الداخل في طريقة بلا شيخ، ولا سند لغرض الحصول على الرزق أنه مصاب بخبال[49].

ولئلا نطيل كثيرا في تتبع أفكار هذه الرسالة نقول إجمالا إنها تصب في مدح القادرية، والثناء على شيخها، وتلاميذته سبيلا لحشد المزيد من المريدين، والأتباع لعل وعسى أن يستهويهم هذا الخطاب، وينفذ في مقاتلهم، أو على الأقل يبقي على المنتسبين لها أصلا في مواطنهم، ويزيدهم تشبثا، وتعلقا بطريقتهم وشيخها، أمام عواصف الطرق الأخرى المناوئة لها هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن رسالة البكاي تهدف إلى طعن التجانيين في الصميم من خلال الكشف عن كل عيوبهم، وهناتهم، وتمريرها على قاعدة الدين، وعرف التصوف سبيلا إلى إحداث تبرمات، وانقسامات داخل الكيان التجاني، أو تبدي لناس آخرين غير أتباعها الوجه السيئ فتنفرهم منها، وهو ما من شأنه أن يقزم من قدرتها في منافسة الطريقة القادرية.

غير أن البكاي لم يغب عن ذهنه ضرورة احترام العلماء وأهل الفضل، وهي شنشنة متأصلة في هذه الأسرة، فقد خاطب في الورقات الأخيرة من رسالته الأسرة العلوية الحاكمة باحترام فائق، وحث مريديه على طاعتهم، والانصياع لأمرهم، كما خاطب الفقيه أكنسوس باحترام، ومودة، وطلب من تلاميذته إبلاغهم سلامه يقول: "...وسلموا مني على أخينا في الغيب المبرإ من العيب، الفقيه النبيه الصالح الراجح

سيدي محمد أكنسوس، وأخبروه عني أني أحبه في الله وأحبوه أنتم، ولا يزدهكم فيه أنه على طريق التجاني، فإن أخوة الإسلام تجمعنا{...} إني أندبه إلى طريق الشيخ عبد القادر، وأخذ ورده..."[50].

وكان البكاي في هذه الرسالة يلمح ويورّي مرجئا الغوص في أعماق الموضوع والإبانة عن مقصده إلى رسالته الأخرى، فماذا عنها؟

- الرسالة الموجهة إلى محمد أكنسوس

لقد تعهد البكاي في خاتمة رسالته الآنفة الذكر أنه سيرسل خصيصا إلى محمد أكنسوس، وها هو فعل حيث أرسل إلى أكنسوس رسالة أقل حجما من الأولى، ولكنها تتنزل معظم فقراتها في السياق ذاته. يستهل البكاي رسالة أكنسوس هذه باستحضار كل معاني التقدير، والاحترام المنبعثين من المحبة، والإخاء مؤكدا على أن الخطاب الذي سيوجهه إلى أكنسوس إنما هو من باب التنبيه، يقول: "{...} والعالم ربما كان واهما في علمه حتى إذا وجد منبها تنبه لحينه، وتفطن ليقينه..."[51]. ثم أخذ البكاي في عرض أفكار رسالته على غرار الرسالة السالفة، وهو ما يمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

- أراد البكاي أن يذكر أكنسوس –لأنه يعلم– بأن أمور الدين والعلم لا ينبغي أخذها إلا من مصدرها الموثوق يقول: "{...} لا يؤخذ شيء من ديننا هذا، ولا من علمه إلا ثقة في العقل والدين، والعلم والصلاح، ولاسيما طريق الصوفية..."[52]. ويريد البكاي بذلك التمهيد لما يرمي إليه من أنه بلغه عن أكنسوس اتّباعه للطريقة التجانية، وهي طريقة لا شيخ لها يوصل بإمامها؛ لذلك فإن أكنسوس بهذا التوجه مخاطر بنفسه ومخاطر بغيره ممن سيأخذ عنه[53].
- ينفي البكاي وجود أية طريقة للشيخ التجاني معتبرا أن ما عنده يسمى وردا لا طريقا وإن زعم التجانيون ذلك.

يقول: " وأما الطريق التي يذكر التجانيون عن التجاني فليست بطريق، وإنما ذكروا مواجدا، ورقصا، وهجرانا لأولياء الله تعالى هذا ما بلغني من طريقهم..."[54] وإن كان الأمر كذلك فهو يربأ، ويضن بمحمد أكنسوس عن اتّباع مثل هذه الطريق إلا إذا أراد أن يتمسك فقط بوردها شريطة أن يعرضه على شيخ ماهر ليرخص له في أخذه، ومن لم يعتمد على شيخ في أخذ الأوراد ظهر عليه إنتقاص[55].

- يضيف البكاي كذلك أن أكنسوس لم يلق التيجاني ولم يلق عنه ذا علم يثق به "{...} ولا شيخ في طريقه، فإن لكل صاحب ورد طريقا تشاكل ورده، وتناسبه..."[56] لتتحدد الأدوار، وتتوزع المهام وفق ذلك. نافيا كون التجاني من أهل التربية "{...} وإن كان من أهل الصلاح، فانتساب من ينتسب إليه إما جهل في نفس المنتسب، وإما خديعة لغيره..."[57].

ويتدارك كلامه حول التجاني، فيذكر أنه كغيره من المشايخ يحبه لوجه الله، وحسب ما بلغه من أخباره أنه ولي، فهو يحبه لذلك، ويعظمه، ويجله لما ذكر عنه أنه شريف، وليس منطلق خطابه نابع من عصبية، ولا حسد للتجانيين أو شيخهم، وإنما مرده حب النصيحة، وإسداء المعروف، وإلا فالطرق وافرة، وليست التجانية وحدها هي الموجودة[58].

وإن كان البكاي يشير إلى وجود طرق أخرى لم يطالها نقاشه فإنه– وكما هو معلوم– فإن القادرية لاتحس بخطر المنافسة إلا من قبل الطريقة التجانية لا غير؛ لذلك انصب اهتمام القادريين على مهاجمة رموز الطريقة التجانية، ولم يبخل التجانيون بدورهم في رص صفوفهم للتصدي لهذا الهجوم[59]. ولنصرف البال نحو بقية مضامين الرسالة.

- يعيد البكاي أيضا الإشادة، والتنويه بفضل شيخه، وكماله على سائر الأشياخ، وأن من وجده يحسن به أن يقول لنفسه أو يشعره غيره بضرورة التعلق بهذا الشيخ الواصل الكاملح لأجل العدول عن فاضل إلى أفضل منه. ويعمم في خطابه ويخصص حتى يصل إلى أكنسوس ذاته ملمحا بقوله: " {...} وعسى أن ينتفع به منتفع، ويفهمه فقيه مستمع.."[60].
- ويختم البكاي رسالته بشرح معنى الانقطاع الذي ألمعنا به في الرسالة الآنفة الذكر، ليصل به المطاف إلى التأكيد على " {...} أن التجانية مجتمع ورقص{...} لا علم ولا عمل.."[61]، ومدعاة إلى السفه والضلال، ملتمسا العذر من إكراه المقام له على ضرورة الاقتصار، ليخلص في خاتمة رسالته مخاطبا أكنسوس قائلا: "{...} ولعلك تلقى أخينا ومريدنا الفقيه عبد الله بن الفاعم ممن له علم فقه، فتكلم معه، واصحبه بخير، فإن دينكما واحد، وربكما واحد..."[62].

وكأن البكاي تحسس من أن الفقيه أكنسوس ذا القدم الراسخة في العلم ربما يقدح في شكل الرسالة، ومضمونها، فأراد أن يعتذر له عن كتابة المزيد، وسوق الكثير من الحجج، والبراهين التي ينبغي أن يخاطب بها فقيه من طراز أكنسوس، لكنه يعود على إكمال مقصده، والتعبير عما يرنو إليه من خلال موفوده إلى المغرب، تلميذه عبد الله المذكور.

تلك كانت هي أبرز الأفكار الواردة في رسالة البكاي وقد اجملناها ركونا منا إلى الاختصار؛ لأن التعليق عليها يحتاج إلى مجال أرحب، ومقام أنسب. وبه نختم هذه الجولة التي تحدثنا فيها عن أبرز رجالات القاردية المختارية الذين نقلوها إلى بلاد قاصية، فتشكل منها في المغرب، والسودان الغربي أتباع كثر غير أن ما يهمنا هو تأثيرها في المغرب؛ ذلك ما سنعرض لأصناف منه في الصفحات القابلة، وقبل ذاك سنقدم شكلا عن السند المختاري من خلال بعض تفرعاته عن طريق تلاميذته الذين ألمعنا بذكر بعضهم، والذين عبرهم انتشر هذا السند في مدن الساحلين السوداني والصحراوي.

(شجرة القادرية المختارية رقم: 1)[63]

(تفرعات تلاميذة الشيخ سيدي المختار):

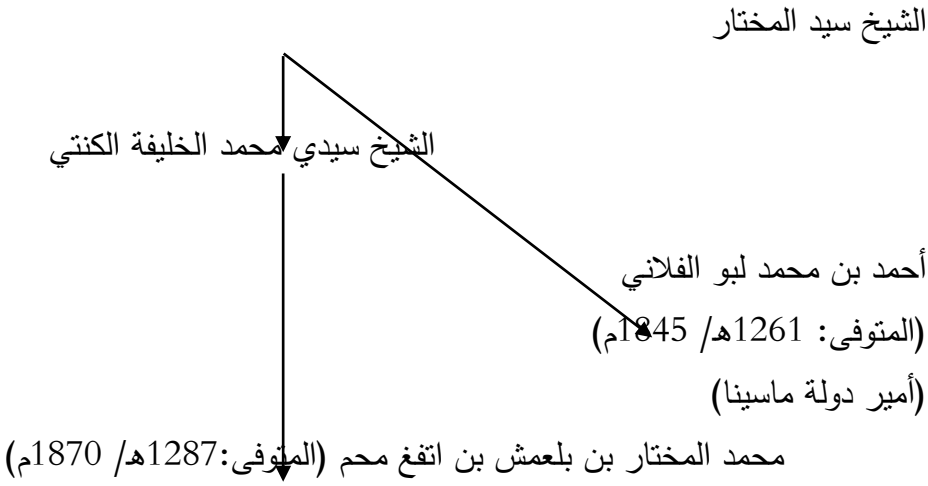

شجرة القادرة المختارية رقم2 [64]

(تفرعات تلاميذ الشيخ سيدي المختار)

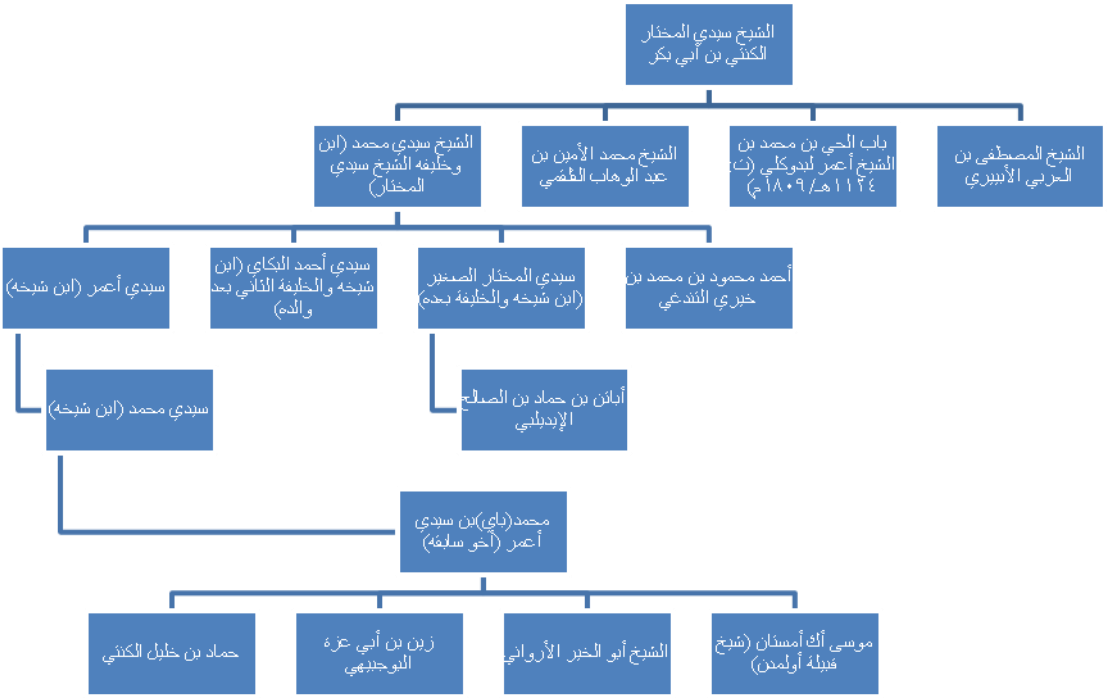

2. القادرية في المغرب

رغم الغموض الكبير الذي يكتنف الصلة العلمية بين سيد أحمد البكاي الكنتي، وأشياخه في الشمال المغربي {طنجة وما والاها} فإنه يمكن اعتبار هذه الصلة بداية لتعاطي الورد القادري بين المغرب، وبلاد شنقيط لكن عدم عثورنا على نشر لهذا السند من قبل الشيخ سيد أحمد البكاي، وتعلق أولاده بسلسلة السيوطي المصري مرورا بالمغيلي التلمساني الجزائري تجعلنا نؤكد على أن الشيخ أحمد البكاي هو أول من أخذ السند القادري من بلاد المغرب سواء نشره أو لم ينشره! وهو ما يمكن اعتباره تأسيسا لهذا التبادل الثقافي الذي سيشهد تطورا كبيرا إبان العصر الذهبي للقادرية المختارية.

فخلال فترة الشيخ سيدي المختار الكنتي، وأبنائه من بعده دوى ذكر هذه الطريقة، وانثال صيتها إلى آفاق بعيدة، ويبدو أن هذا الصيت نقلته رياح الصبا إلى كبريات المدن المغربية خاصة فاس، ومراكش، فشدت مجموعة من هؤلاء العلماء وطلبة العلم الرحال ءامين الزاوية المختارية، فمنهم من عمل الرحلة في زمن الشيخ المختار، ومنهم من تزامن مقدمه مع تولي أحد أبنائه أو أحفاده قيادة الطريقة. وقد ظلت هذه الصلة دائمة حتى عهد سيد أحمد البكاي الصغير، وحتى بعد هذه الفترة لا يمكن أن نجزم بتوقفها، وإن كان حدث هنالك انشقاق، وضعف داخل الطريقة المختارية نفسها.

ولم يقتصر المغاربة على أخذ السند المختاري مباشرة بل إن بعضهم أخذه بواسطة أحيانا، وأحيانا أخرى بوسائط متعددة، وذلك من خلال اتصالهم بشيوخ مغاربة أخذوا إجازة السند المختاري في فترات سابقة، فراحوا ينشرونه بين مريديهم وأتباعهم.

وقد لعبت المراسلات خلال هذه الفترة دورا مهما في تنشيط عمل الطريقة، وتعرف أهلها ببعضهم، فضلا عن تبادل المعلومات، والوصايا والنصائح الإرشاد، وإحلالها محل الزيارة لمن عز عليه زيارة شيخه أو أحد إخوته في الطريقة.

وقد ذكرت المصادر شخصيات بارزة لها وزنها العلمي والاجتماعي، وكان هؤلاء من أتباع القادرية المختارية.

فمن هم هؤلاء؟ ذلك ما سنعرض له في ما يلي حسب سبق هؤلاء الزمني. وقد صنفتهم تجوزا حسب فترات شيوخ القادرية المختارية.

- الرعيل الأول:

وقد مثله شخصيتان بارزتان اتصلا بسند الشيخ سيدي المختار الكنتي مباشرة بلا واسطة لكنهما لم يشتهرا في تلامذة الشيخ، ولا مقدميه، وهما:

أ. السيد بن أبي بكر الكنوني

ويعتبر هذا الرجل- في تقديري- أول من تقدم من المغاربة طالبا الإجازة المختارية، ولم أجد له ذكرا في المصادر لا الشنقيطية ولا المغربية، رغم شهرة عائلته في المغرب، وكثرة العلماء بها.

ويبدو أن ابن أبي بكر الكنوني هذا وصل إلى بلاد شنقيط في فترة متقدمة، وربما استوطن أهله هذه البلاد في عهد بعيد أيام كان يطلق عليها بلاد التكرور، وهو ما نجده في تعريف شيخه له قائلا:"{...} ولما أتاني السيد ابن أبي بكر الكنوني نسبا التكرروي وطنا[65]. ويتضح من هذا الكلام أنه مغربي الأصل شنقيطي الدار، ولا يهمنا أي صقع من بلاد شنقيط كان يسكنه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المجال الواسع الذي كانت تطاله تسمية (إقليم التكرور)[66].

ويبدو أن ابن أبي بكر الكنوني هذا كان على مستوى كبير من المعرفة، والاستعداد الذهني، والنفسي الأمر الذي جعل الشيخ يشيد بكفاءته في هذا الجانب، وتجاوزه للامتحان الصوفي بتميز. يقول المختار الكنتي في ذلك: " توسمته فإذا هو حسن النية طاهر الطوية متمسك بالسنة المحمدية{...}، فأذنت له أن يعطى أوراد هذه السلسلة المباركة القادرية إجازة مني له، وعلى أن يعطي ما شاء من لأحزاب والدعوات، والتوجيهات القدسية؛ لأنه قد تروى من نفحات الأسرار بالخلوات، ولقد امتحنته، واختبرته فإذا الامتحان، والابتلاء لا يزيده إلا نصاعة{...}، فأجزته إجازة مطلقة..."[67].

ورغم أن ابن أبي بكر الكنوني قد أخذ الإجازة المطلقة عن الشيخ الكنتي مؤسس القادرية المختارية، فإنه لم ينشر هذا السند لو كان ذلك لوجدناه ضمن مشاييخ القادرية المختارية سواء في المغرب أو في بلاد شنقيط، ولكان اسمه مندرجا في تفرعات شجرة السند، ولعل عمل هذا الرجل، ونشاطه في نشر القادرية المختارية ضاع فيما ضاع من أخباره، وربما تكشف الوثائق عن هذه الأخبار وغيرها. وعليه فإن السند المختاري انتقل فعلا إلى المغرب، ولو لم يكن بواسطة ابن أبي بكر الكنوني.

ب. أبو محمد يحي بن عبد الله بن مسعود

أحد العلماء الأجلاء، والمتصوفة الأفاضل، صاحب فهرسة (ضوء المصباح في الأسانيد الصحاح)[68] ذكر الكتاني في فهرس الفهارس، عن فهرسة ابن مسعود ما نصه: "{...} وقد صدرها بذكر شيوخه الخمسة عشر الذين أجازوه إجازة عامة..."[69] ويأتي الشيخ سيدي المختار الكنتي في المرتبة الرابعة عشر من هذه القائمة.

ويبدو أن ابن مسعود تلقى عن المختار الكنتي السند القادري حسب ما أورده الكتاني، وذلك بقوله: "{...} والطريقة القادرية عن الشيخ سيدي المختار عن سيد أحمد بونعامة الغلاوي عن سيدي عبد المجيد الكنتي عن المعمر عبد الشكور عن المعمر روح الله عن عبد الإله أبادي عن الشيخ عبد القادر..."[70]. ومن خلال بحثنا لم نجد تصويبا لهذه الترجمة التي يظهر في سلسلتها نوع من الخلط سواء تعلق الأمر بطريق السند أو بأسماء المسندين في السلسلة، فهذه الطريقة لم نجدها في جميع مسلسلات وأسانيد الشيخ سيدي المختار الكنتي المتصلة بعبد القادر الجيلاني، أو على التقريب لم نجدها فيما هو متداول لدى الناس، كما أن أبا نعامة الغلاوي ليس معروفا بل هناك أبو نعامة الكنتي، وهو سابق على فترة الشيخ المجيز لأنه من أهل القرن 11هـ/17م.

. الرعيل الثاني:

ويمثل هذه الطبقة أولئك الشيوخ القادريون الذين أخذوا القادرية المختارية من لدن الشناقطة إما عن طريق سيد محمد الخليفة وابنيه، وإما عن طريق بعض مقدمي الطريقة من الشناقطة ثم أخذ هؤلاء بدورهم ينشرون سندها في صفوف المغاربة، ومن هؤلاء نذكر:

أ. العربي بن الهاشمي العزوزي (المتوفى:1260هـ/ 1844م):

العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني الفاسي، قاض فاس ومفتيها، أخذ عن شيوخ أجلاء منهم محمد العربي، وابن عبد السلام الناصري، وغيرهما.

من آثاره شرح (المرشد)، وغيره.

وكان الزرهوني من أتباع الطريقة المختارية وصلت إليه من طريق محمد بن حبيب الله الصغير الشنكيطي عن سيد محمد الخليفة الكنتي عن أبيه الشيخ سيد المختار الكنتي الكبير[71].

ب. محمد بن أحمد بن دحّ الأزموري (المتوفى: 1284هـ/ 1867م):

نزيل مراكش، وشيخ الطريقة بها كان رحمه الله جامعا بين الشريعة، والحقيقة قال عنه السملالي المراكشي: " آية في الحديث، والفقه، وطريق القوم، أديبا شاعرا أريبا ماهرا جوادا سمحا جزيل المعروف {...} كانت تأتيه الهدايا، والصلات فلا يقوم من مجلسه حتى لا يبقي لها بين يديه ثبات..."[72]. قرأ المترجم بفاس ثم بدكالة على سيد أحمد بن ميمون السباعي، ولقي الشيخ عمر المكي الشرقي، وأخذ عنه الأحاديث عن طريق الجن؟!، وأجازه بالموطأ[73]. ذاع صيته في بلاد المغرب عامة، وكان يلقن الناس الأوراد المختارية التي أخذها عن سيد المختار الشيخ الحفيد بن الشيخ سيد محمد، كما كان له الإذن في إعطاء ورد الوزانية، والناصرية. وبخصوص المختارية التي هي ربع عزة فإن الأزموري توجه تلقاء بلاد الصحراء من موطنه أزمور برسم أخذ الطريقة المختارية من قطبها المباشر آنذاك الشيخ سيدي محمد لكنه وجده توفي، فأخذها عن الشيخ سيدي المختار الحفيد[74]، وأصبح بموجب ذلك من كبار مقدميها في بلاده كما سنلاحظ من خلال كثرة من أخذ عنه[75].

ولقي الأزموري كذلك سيد أحمد البكاي الكنتي أخا شيخه، وخليفته فيما بعد. يقول الأزموري في تعزية شيخه سيدي المختار الحفيد بن الشيخ سيد محمد:

بعد لما سمع الأذنان وفاة شيخنا عظيم الشان
قطب الوجود نخبة الأخيار غوث العوالم أبي الأنوار
أستاذنا إما منا النظار سيدنا عمدتنا المختار

إلى أن قال:

ونحن بالحمد له جل علا والشكر قد أعقبنا بما تلا
من الخليفة أبي العلاء سيدنا أحمد البكاء
بحبوحة العلم ودوحة الشرف ياقوتة العرفان جوهر الصدف

كهـــف الأنـــام عصـــمة الأرامـــل قطـــب الأنـــام عمـــدة الأفاضـــل[76]

ج. أبو شعيب الدغوغي كان حيا سنة:(1329هـ/1911م):

أبو شعيب بن الجلالي الدغوغي البيضاوي قال عنه عبد الحفيظ الفاسي: "كان من أهل الفضل، والصلاح{...} خاملا منزويا في بيته لا يعرفه إلا الخواص، خدم الطريقة القادرية الكنتية، وطاف البلاد في بدايته، ودخل الصحراء، وبلاد شنجيط للقاء الجلة من أصحابها"[77].

لقي أبو شعيب جلة من كبار العلماء في بلاد شنقيط، وأخذ عنهم أمثال: المربي الكبير الشيخ سيديا بن الهيبة الإبيري الشنجيطي، والشيخ ابن الاعمش، والشيخ محمد بن المختار الجكني، وأبي العباس أحمد المعروف بسيدي وهؤلاء الأربعة من تلامذة الشيخ المختار الكبير حسب ما أورده الفاسي[78].

ولقي أبو شعيب كذلك الشيخ محمد بن المختار الترزي[79]، والطالب ولد امّني، وهما من تلامذة الشيخ سيدي محمد الخليفه. تلقى عن هذه الجماعة الورد القادري المختاري، وروى عن ابن الهيبة الأبييري، وابن الأعمش الجكني كتاب الشيخ سيدي المختار الكنتي المسمى (نفخ الطيب في الصلاة على الحبيب)، وهو على نسق دلائل الخيرات، كما روى عن الطالب ولد امّني صحيح البخاري[80].

د) إبراهيم الدباغ (المتوفى: 1329هـ/ 1911م):

برهان الدين بن محمد المدعو: بوطربوش بن عبد الحفيظ الشريف الحسني الإدريسي العالم العلامة المحدث، والصوفي الكبير. أخذ العلم من مشيخة فاس، أمثال: أبي العباس الورياغلي المحقق البارز، ووالده عبد الله محمد بن عبد الحفيظ، فضلا عن علماء آخرون في طرابلس، وفي المشرق[81].

أخذ التصوف عن الولي الكبير أبي عبد الله محمد السوراني الذي تلقى منه الطريقة المختارية، وهو أخذها عن الشيخ المختار الكنتي[82].

الرعيل الثالث:

ونعني به أتباع، ومريدي الطريقة القادرية الذين أخذوها من لدن المغاربة أنفسهم خاصة عن طريق بعض الأسر الذين اشتهر رجالاتها بإعطاء الورد القادري المختاري مثل أسرة آل الدباغ، وغيرها. وإلى جانب آل الدباغ يسطع اسم ابن دح الأزموري الذي صدّر هو الآخر الكثير من المريدين، والأتباع. ومن هؤلاء نذكر:

أ. محمد الغياثي (المتوفى: 1318هـ /1900م):

أبو عبد الله محمد بن أحمد المخلوفي الودغيري الإدريسي، المدعو الغياثي، الكنتي طريقة، قال عنه عبد الحفيظ الفاسي:" كان شيخا صالحا جليلا فاضلا كثير الذكر، والعبادة، عارفا بعلم الأسماء..."[83].

أخذ الطريقة المختارية عن العارف بالله أبي عبد الله محمد بن عبد الحفيظ الدباغ الذي لازمه، وانتفع به كثيرا في علم الأسماء، والطريقة الكنتية، كما أخذها أيضا عن أبي عبد الله محمد بن الهادي الدباغ[84].

ب. محمد الطاهر الفاسي (المتوفى: 1319هـ/ 1901م):

أبو الجمال محمد الطاهر بن أبي المعالي عبد الكبير ينتهي نسبه إلى يوسف بن الجد الفهري الفاسي دارا ولقبا، من العلماء الأجلاء، والحفاظ المشاركين في ميادين معرفية متنوعة. " {...} موفور الحظ في الحديث، والسير، والتوحيد، والفقه، والعلوم العربية متقدما في التاريخ، والوفيات، والحوادث..."[85].

وقد أخذ العلم على شيوخ كبار بالمغرب ومصر، والحجاز، والذي يهمنا نحن من أخباره هو اتصاله بالسند المختاري، فقد أخذه عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن دح الأزموري[86].

ج. الفضيل العلوي (المتوفى: 1325هـ/ 1907م):

الفضيل بن الأمين بن محمد بن عبد الله العلوي الزرهوني جاء في ترجمته أحد الصالحين النسك، والعباد المداومين على الطاعة، أخذ الطريقة القادرية المختارية عن شيخها بفاس أبي عبد الله محمد بن الهادي الدباغ الحسني عن أبي عبد الله الصحراوي عن أبي عبد الله محمد بن العجوز الريفي عن الشيخ المختار الكنتي الحفيد عن والده الشيخ سيدي محمد الخليفة عن والده الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير بسنده[87].

وأخذها الدباغ المذكور أيضا عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن دح الأزموري عن الشيخ المختار الصغير[88].

د. المختار بن عبد الله (المتوفى: 1325هـ/ 1907م):

محمد المختار بن عبد الله بن أحمد بن أحمد السوسي الفاسي المكناسي العلامة الفقيه، والكاتب الوزير. أخذ العلم على فطاحلة العلم في عصره مثل: محمد بن المدني كنون، والعلامة المحدث أبي محمد عبد القادر بن أبي القاسم إبراهيم التادلي الرباطي وغيرهم. أما التصوف– وهو ما نتغياه– فقد أخذ الطريقة المختارية عن الشيخ أبي عبد الله بن دح الأزموري[89].

هـ. محمد القادري (المتوفى: 1331هـ/1913م):

أبو عبد الله محمد فتحا بن أبي القاسم بن محمد بن الحفيد بن هاشم بن محمد المرابط بن محمد الحسني القادم من غرناطة إلى فاس. قال عنه الكتاني:" {...} شيخنا الدراكة المشارك الفهامة البركة الماجد ابن الأماجد..."[90].

أخذ عن أعلام منهم: والده، ومحمد بن سودة، وأخوه المهدي، والشيخ التازي وغيرهم. من تآليفه:(حاشية على شرح الطيب بن كيران) على توحيد المرشد المعين، و(حاشية على شرح الأزهري على البردة)، وأخرى على(شرح الأربعين النووية)[91]... إلخ.

أخذ الطريقة القادرية عن ابن عمه أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بن أبي عبد الله محمد بن عمرو عن أبي عبد الله محمد بن الهادي الدباغ عن أبي عبد الله الصحراوي عن سميه ابن العجوز الريفي عن الشيخ المختار الكنتي.

كما أخذها أيضا: عن أبي عبد الله محمد بن الحاج الدكالي عن الشيخ بن دح الأزموري الشهير، عن الشيخ أحمد البكاي الكنتي عن أخيه الشيخ المختار الحفيد[92].

هذه مجرد نماذج من أبرز تلاميذ القادرية المختارية في المغرب و غني عن القول إن هناك الكثير من أتباع القادرية المختارية منتشرين في مختلف أنحاء المغرب وخاصة في الوسط والجنوب.

الخاتمة:

هكذا إذا كانت الطريقة القادرية سباقة إلى مد حبال الوصل بين بلاد شنقيط والمغرب على الصعيدين الروحي والفكري، وإن كانت القادرية ظهرت في المغرب بشكل مستقل إلا أن القادرية الكنتية استطاعت بفعل جهود شيوخها أن تتخذ لنفسها أتباعا كثرا في بلاد المغرب فما ذكرنا منهم إلا النزر القليل بفعل ضياع خبر أغلبهم أو أخذ بعضهم بورد طريقة أخرى مثل الورد الشاذلي فيذكرهم مترجموهم على أنهم شاذليون لا قادريون وعلى أية حال فإن الصلة ظلت قائمة بين قادريي بلاد شنقيط وإخوانهم المغاربة وعملت المراسلات والزيارات دورا كبيرا في تنشيطها وتوثيق عراها رغم وفاة الشيوخ المؤسسين ونشوب الكثير من الصراعات ليس أقله الصراع مع أتباع الطريقة التجانية.

الهوامش:

[1]– هو الشيخ سيد أحمد البكاي بن الشيخ سيد محمد الكنتي بن سيد علي، يرجع نسبه إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقية وباني القيروان. قال عنه البرتلي: " كان من عباد الله الصالحين، والأولياء المشهورين يزوره الناس من كل فج في كل ساعة. ..". وقد لقب بالبكاي لكثرة بكائه من فوات صلاة فاتته في الجماعة، وصل إلى ولاته =في القرن 10 هـ، ويبدو أنه أسس فيها حركة علمية ودينية كبيرة. ترجم له البرتلي؛ فتح الشكور، ص 30–31، والشيخ سيد محمد؛ الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق باب أحمد ولد عابدين ولد حم الأمين، ط1، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، انواكشوط:2004، ص 69 وما بعدها. وأبول مارتي، كنتة الشرقيون، ترجمة محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق: د ت، ص 28–32.

[2]– سيد أعمر الشيخ بن الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي (المتوفى 958 أو 960هـ/1553/1552م) ترجم له الشيخ سيد المختار الكنتي في كتاب الإرشاد قائلا:"{...} من أولياء الله تعالى المشهورين بالعلم والولاية{...} سيد أعمر الملقب الشيخ تواتر عنه أنه حفظ قبل الكهولة ألف مجلد في جميع فنون العلم ؟!، وأنه رحل إلى المغرب الجواني برسم الاستفادة{...} ، فطاف جميع بلاد الغرب، فلم يجد ما يفيده بمسألة من جميع فنون العلم، فعمل الرحلة إلى إقليم الشام، فلم يظفر فيه بمن يفيده كذلك{...} بل كانوا يأخذون العلوم عنه...". الإرشاد أو كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، مخطوط بزاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بنواكشوط، ج2، ص 170. الحسن الوزان وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد وقيدي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت1983، ج1/ ص 165.

[3]– أبول مارتي، كنتته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، د– ت، ص 29.

[4]– سيدي عمار ولد علي <<المراكز>> مقال ضمن دراسة لمجموعة من الباحثين بعنوان: الحضارة الإسلامية في مالي، ترجمه إلى العربية محمد وقيدي، منشورات إيسيسكو، تونس:1417–1996، ص 145.

[5]– سيد محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (المتوفى: حوالي 940هـ /1533م) قال عنه الشيخ سيدي محمد في الطرائف " العالم العلامة النحرير الفهامة، ذي الخوارق المتواترة، والحقائق المتوافرة {...}، وله التآليف المفيدة، والتصانيف العديدة، وهو الذي أذل اليهود، وكسر سورتهم من أتوات بعد ما تولوا أحكام جل قراها...". الكنتي، الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، م. س ، ص 81–82، وقد ذكر في ترجمته نبذا من أخباره مع اليهود وغيرهم.

[6]– الشيخ سيد المختار الكنتي، كتاب المنة، ج2، ص 170.

[7]– نفسه، نفس الصفحة وما بعدها.

[8]– أكد ذلك حماه الله ولد السالم في كتابه موريتانيا في الذاكرة العربية، ط1، مركز دراسات العربية، بيروت 2005، ص 170، بناء على ما أفاده به الباحث القدير محمد مولود ولد داده الشنافي بعد إطلاعه على (مجموعة أوراق شخصية) ضمن كناش يتحدث عن أوراد المغيلي وأحزابه.

[9]– سيد عمار ولد علي، <<المراكز>>، ص145. ويقول أبول مارتي:" وعند وفاة المغيلي حوالي 1532م تخلص تمليذه من سلطة حلفائه في اتوات وأصبح بذاته هو الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في بلاد التكرور والصحراء الكبرى". ابول مارتي، كنتة الشرقيون، ص 33.

[10]– سنتحدث فقط عن الجد والحفيدين لما لهما من دور في نشر هذه الطريقة ورفع صرح هذه الصلات الثقافية إلى أعلى مستوى لها، وخاصة فيما يتعلق ببعض مناطق المجال المدروس.

[11]– لقد خلف المختار الكنتي ابنه الشيخ سيدي محمد الخليفة (المتوفى: 1241هـ/1826م)، وقد تركنا بسط الحديث عنه نظرا إلى عدم وجودنا لصلات بينه وبين الجهة المدروسة .

[12]– سيدي محمد الكنتي،الطرائف والتلائد، ص5. أبول مارتي، كنتة الشرقيون، ص 39–40. محمود عبده زبير <<الشخصيات الشهيرة>> مقال ضمن دراسة أعدها باحثون بعنوان الحضارة الإسلامية في مالي، ص 233.

[13]–سيد محمد الخليفة، الطرائف، ص 55.

[14]– البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكور، تحقيق: محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط2، دار العرب الإسلامي، بيروت2007، ص 152.

[15]– أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، طبع بعناية فؤاد سيد، ط6، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2008، ص 361.

[16]– من أحيائهم الذين طاف بهم الشيخ: حي ابنلبوش، و حي أحّ الكلحرمي، وهما من قبيلة كل السوق الطارقية.

[17]– سيدي محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، ص 18–19. وحول دراسته راجع أيضا:
Aziz.Batran: the Qadiraia Brotherhood in West Africa and the Western Sahara, the liff and times of shaykhal mukhatar al al kunti (1729-1811). P58, et 63-65.
وأبول مارتي، كنتة الشرقيون، ص 43–50.

[18]– لا يمكن أن نختزل دور المختار الكنتي في الإطار العلمي والديني فحسب بل كان رجل سياسة عملاقا، ومصلحا اجتماعيا ثاقب البصيرة ، فهو إجمالا قائد نهضة علمية واقتصادية، وسياسة، ودينية، وفكرية لكن الذي يهمنا في هذه الدراسة هو القضايا الفكرية والثقافية.

[19]– د. عزيز بطران <<الشيخ المختار الكنتي وآثره في نشر الإسلام>>، ص 318 ومن هذه الكتب نذكر مثلا: (هداية الطلاب في مجلد، وشرحه المسمى:(فتح الوهاب) في أربع مجلدات ضخام في الفقه المالكي، (فقه الأعيان)، (الإرشاد، أو

كتاب المنه في اعتقاد أهل السنة)، (الأجوبة المهمة لمن له بأمر الله مهمة)، كشف النقاب على فاتحة الكتاب)، (الشموس الأحمدية في العقائد الأحدية)، (البرد الموشى في قطع المطامع والرشى)، (الجرعة الصافية والنصيحة الكافية)...إلخ، من هذه الكتب ما هو جزءين، ومنها ما هو أكثر. وقد أعد لها معرب كتاب (كنتة الشرقيون) ملحقا خاصا بها بناء على ما هو موجود بأيدي الناس، وبلغت إحصاءاته 42 مؤلفا دون الفتاوي، والقصائد الكثيرة. راجع أبول مارتي، كنتة الشرقيون، ص 210–212.

[20]– نفس المرجع، ص 319.

[21]– نفس المرجع، الصفحة ذاتها.

[22]– من هؤلاء من استغل فكرة التجديد في الخطاب السياسي مثل: الشيخ عثمان بن فودي الفلاني، والحاج عمر تال. بطران، م. س، ص 319.

[23]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[24]– المختار الكنتي، البرد الموشي في قطع المطامع والرشي، مخطوط بزاوية الشيخ سيد المختار الكنتي، المجلد الأول، ص 38.

[25]– المختار الكنتي، فقه الأعيان، مخطوط بزاوية الشيخ سيد المختار الكنتي ، المجلد: 2، ص 564. وقد ناقش في هذا الكتاب شروط المجدد يقول فيه:" أن يكون الشخص معروفا مشارا إليه، وأن تنقضي المائة، وهو مشهور حي مشار إليه، و لا يكون المجدد إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرا للسنة قامعا للبدعة، لا تأخذه في الله لومة لائم، غير مداهن، يعلن بقول الحق، غير مبال بمن قبله أوردّه..." نفس المصدر، الصفحة ذاتها.

[26]– انظر أبول مارتي، كنته الشرقيون، ملحق يحمل قائمة بأبرز الشخصيات الذين صدرهم المختار الكنتي، وسطعت أنجمهم في سماء طريقته، ص 212.

[27]– سنكشف الستار عن تلك التراجم عندما نصل إليها في الصفحات المقبلة وأصحابها مغاربة، ووردت كذلك في مؤلفات مغربية لكن العجيب في الأمر أن هؤلاء لم يترجموا للرجل.

[28]– من بين من ترجم له: سيد أحمد ولد أحمد سالم في تحقيقه لرسالته التي سنتحدث عنها، إذلا يزيد في ترجمته له عن ذكر آبائه فقط حتى أنه لا يذكر تاريخ وفاته. أما أبول مارتي وقد ترجم له كذلك، فإنه يركز على نشاطاته السياسية والعسكرية.

[29]– أبول مارتي، كنته الشرقيون، ص 89.

[30]– نفسه، الصفحة نفسها.

[31]– بدأ بنصرة أهل تمبكتو فأنقذهم من خراب جيش ماسينا الذي خرب سورها، وكان ينوي البطشة الكبرى بساكنتها، كما تدخل حاملا السلاح في حروب عديدة ليس أسهلها ما قام به بناء على طلب من التجار المغاربة، والتواتيين، والغدامسيين، فضلا عن استخدام مكانته، ووزنه الكبير في فض النزاعات الطائفية جريا على سنة أبيه، وجده. لمعرفة نشاطاته العسكرية والسياسية ينظر ابول مارتي، كنته الشرقيون، ص 89–91.

[32]– لم أجد له ترجمة. لكن محقق الرسالة يذكر مخمنا بأنه أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى: 1317هـ /1909م) تلميذ ابن دح الأزموري، ولكن تقديم الشيخ له في الرسالة عن ابن دح لا تفيد أنه تلميذه، لو كان الأمر كذلك لقدم الشيخ ابن دح، وضاف له تمليذه لأن المراتب محترمة عند الصوفية، ومعمول بمقتضاها في الممارسة الدينية، وفي الخطاب كذلك.

[33]– سنتحدث عنه في قابل هذا العمل إن شاء الله.

[34]– سيدي المختار الصغير، رسالة إلى المولى عبد الرحمن بن هشام، ص 19.

[35]– وقد ألف في هذا الموضوع علماء أجلاء نذكر منهم مثلا: (كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة) لمؤلفه أبي بكر بن محمد بن الحسن الحضرمي المرادي (المتوفى: 489هـ/1096م) الذي ألفه فيما يبدو للأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني (المتوفى: 470هـ/1077م)، وكذلك كتاب أبي القاسم بن رضوان المسمى:(الشهب اللامعة في السياسة النافعة)، و(نصيحة المغيلي للأسكيا الحاج محمد) أحد ملوك إمبراطورية مالي، ورسائل ابن المقفع في السياسة، وما كتبه ابن خلدون في المقدمة حول نفس الموضوع. ونجد في الحديث عن أخلاق الملوك وأحكام السلط كتبا عديدة مثل:(سراج الملوك) لمؤلفه أبي بكر الطرطوشي، و(أخلاق الملوك) المنسوب إلى الجاحظ، و(الأحكام السلطانية) للماوردي، وغيرهم كثير.

[36]– سيدي المختار الصغير، رسالة سيدي المختار الصغير إلى المولى عبد الرحمن، ص 30.

[37]– سيدي عمار ولد علي <<الشخصيات الشهيرة>> مقال ضمن كتاب الحضارة الإسلامية في مالي، ص 263.

[38]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[39]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[40]– نفسه، ص 264. وتشهد على ذلك رسائله العديدة التي كانت أشد فتكا، وأعتى وقعا على النفوس من السيف، وسنعرض بعضها في الصفحات القابلة إن شاء الله

[41]– يذكر أبول مارتي، كنتة الشرقيون، ص 99. أنه بدأ في المفاوضات، والتدخلات السياسة منذ 1846م عند ما مرض سيدي المختار، وقبل ذاك كان يستخدمه كزعيم ديني مساعد، ومفاوض سياسي بارع.

[42]– سيد عمار ولد علي << الشخصيات الشهيرة>>، م س، ص266، وبخصوص ما ذكره هذا الباحث من صلة سيد أحمد البكاي بطرابلس فإننا لم نجد بعد شيئا عن هذا الجانب لعلمنا أن طرابلس داخلة ضمن مجال الدراسة، ولعله يقصد العلاقات السياسية التي كانت قائمة بين البكاي، وتلك النواحي بحكم قرب طرابلس من إقليم توات لكن موضوع السياسة ليس بغيتنا في هذا الموضوع.

[43]– الحاج عمر تال بن سعيد الفوتي أحد الشخصيات الدينية، والسياسية اللامعة في منطقة فوتا تورو، والقائد المؤسس للحركة التجانية في السودان الغربي، وشيخ زاويتها المؤسس. كان عالما جليلا وشيخا مربيا، وزعيما سياسيا توفي سنة: 1865م، قبيل وفاة سيد أحمد البكاي بظرف وجيز. أنظر الترجمة الوافية التي عقد له محمد الآزمي في كتابه: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19 ميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط:2000، ج2، ص 352–424.

44– للإطلاع على رد التجانيين على البكاي يرجع إلى؛ أجه ولد محمد، العلاقات الثقافية فين بلاد شنقيط والمجال المتوسطي خلال القرنين18–19م، أطروحة دكتوراه مرقونة، جامعة الحسن الثاني، المحمدية:2014، ص 264–273.

[45]– أحمد البكاي، رسالة لمحمد أكنسوس في الطريقة التجانية، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، محفوظ تحت رقم: 1658، ورقة 2.

[46]– نفسه، الورقة ذاتها.

[47]– نفسه، الورقة 3.

[48]– نفسه، الورقة ذاتها.

[49]– نفسه، الورقة ذاتها.

[50] - نفسه، ص 5.

[51] - رسالة البكاي إلى محمد أكنسوس، ص 1.

[52] – نفسه، ص 2.

[53] – نفسه، االصفحة: ذاتها.

[54] – نفسه، ص 3.

[55]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[56]– نفسه، ص 4.

[57] –نفسه ص 5.

[58]– نفسه ص 6.

[59]– للإطلاع على رد التجانية ينظر؛ أجه ولد محمد، العلاقات الثقافية، م. س، ص267–273.

[60]– رسالة البكاي إلى أكنسوس، م. س، ص7.

[61]– نفسه، ص 8.

[62]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[63]– نقلته عن يحي بن البراء: المجموعة الكبرى، ط1، نشر مولاي الحسن ولد المختار ولد الحسن، المطبعة الوطنية، نواطشوط2009 مج1، ص 260.

[64]– نفسه، ص 261، وقد انتشرت عدة فروع أخرى من هذه الشجرة ومن طرق أخرى غيرها، وبرزت عدة حضرات صوفية يعود سندها إلى المختارية الكنتية، لكنا تركناها تفاديا للحشو، والخروج عن الموضوع.

[65]– "إجازة الشيخ سيدي المختار الكنتي للسيد بن أبي بكر الكنوني، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، محفوظ تحت رقم: 2744، ورقة. 2:

[66]– "التكرور إقليم واسع يمتد شرقا إلى ادغاغ، ومغربا إلى بحر بني الزناقية، وجنوبا إلى بيط، وشمالا إلى آدرار" . البرتلي، فتح الشكور، ص26.

[67]–إجازة الشيخ سيد المختار الكنتي للسيد بن أبي بكر الكنوني. ورقة: 3

[68]– لم نتمكن من الوقوف على هذه الفهرسة.

[69]– الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم و المشيخات والمسلسلات، طبع بعناية إحسان عباس، د2، دار الغرب الإسلامي، بيروت:1982، ج2، ص 718.

[70]– نفسه، ص 719

[71]– الكتاني نفسه، ص 781.

[72]– العباس بن إبراهيم السمالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المكتبة الوطنية، الرباط1974، ج6 . ص 317.

[73]– نفسه، ص نفسها.

[74]– نفسه، ص 318–319.

[75]– ذكر السملالي المراكشي في معرض حديثه عن ابن دح بخصوص الإجازة في الورد المختاري أسماء بعض من تلقى عنهم الإجازة، كانوا واسطة بينه هو وابن دحّ " {...} ومنهم شيخنا الفقيه السباعي أجازه بالورد المختاري بأزمور ومراكش، وأجازنا به عنه خصوصا زيادة على الإجازة العامة التي أجازنا بها، وسيدي محمد بن الهادي الدباغ المترجم في السلوة، وهو باني الزاوية المختارية بالعيون من فاس، ومنهم مؤقت الجامع الكبير بمكناسة الزيتون{...} البركة سيدي الجيلاني بن عزوز االرحالي{....} المتوفي بمكناس عام 1309هـ دفين الزاوية المختارية ثم تلميذها بركة مكناسة{...} سيدي السعيدي المنوني{...}، وبركة زرهون سيدي عبد بن أحمد المعروف بعسيلة المترجم في (الأنجم السوابق الآهلة)، وسيدي محمد بن المدني الشرقي البيضاوي المترجم فيها أيضا{...}، والحاج العربي العبدوني أخذ عنه الطريقة المختارية، وأخذها عنه الشيخ خليل بن خالد...". السملالي المراكش، الإعلام، ج6، ص 319.

[76]– نفسه، ص 317.

[77]– عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، صححه وخرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ط1، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت2003، ج2، ص239–240.

[78]– نفسه، الصفحة ذاتها.

[79]– لعل الفاسي يقصد التروزي، نسبة إلى أحد أبناء حسان، وهو تروز بن هداج الذي انتشر من صلبه خلق كثير، تعمر حاليا مجموعات منه الجنوب الغربي الموريتاني وتعرف ناحيته بولاية {اترارزة}. أو التركزي، نسبة إلى القبيلة القرشية المشهورة، ومنها العالم، والأديب محمد محمود بن اتلاميذ التركزي. أما التزري بهذا الشكل فليست معروفة، كما أن هذا الاسم لم نجده ضمن قائمة أسماء تلامذة الشيخ سيد محمد الخليفه.

[80]– عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج 2، ص 240.

[81]– نفسه، ج1، ص 113.

[82]– نفسه، ص 115.

[83]– نفسه، ص 32.

[84]– نفسه، ص 33.

[85]– وهو والد عبد الحفيظ الفاسي، وقد عقد له ترجمة وافية صدرها كتابه(معجم الشيوخ)، ج1، ص 20–32.

[86]– نفسه، ص 25.

[87]– نفسه، ج 2، ص 235.

[88]– نفسه، الصفحة ذاتها

[89]– نفسه، ص 175.

[90]– الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص 935.

[91]– محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت د– ت، ص 435، كما ترجم له عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري في مؤلفه، دليل المغرب الأقصى، ط2، طبع ونشر وتوزيع، دار الكتاب، الدار البيضاء:1960، ج1 ، ص 77.

[92]– عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج1، ص 47.

قائمة المصادر والمراجع

المخطـوطـات:

- الشيخ سيدي المختار الكنتي، الإرشاد أو كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة، مخطوط بزاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي بنواكشوط، ج2
- كشف اللبس فيما بين الروح والنفس، مخطوط لدى زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بنواكشوط،
- البرد الموشي في قطع المطامع و الرشي مخطوط بزاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي، المجلد الأول.
- فقه الأعيان، مخطوط بزاوية الشيخ سيد المختار الكنتي ، المجلد: 2.

- إجازة الشيخ سيدي المختار الكنتي للسيد بن أبي بكر الكنوني، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، محفوظ تحت رقم: 2744.
- الكنتي أحمد البكاي، رسالة إلى أكنسوس، ورسالة أخرى إلى أهل مراكش نسخة مصورة من زاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي.

الكتب المطبوعة والمقالات:

- ابن الأمين الشنقيطي أحمد، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، طبع بعناية فؤاد سيد ط6، مكتبة الخانجي القاهرة 2008.
- ابن البراء يحيى، المجموعة الكبرى، ط1، نشر مولاي الحسن ولد المختار ولد الحسن، المكتبة الوطنية، نواكشوط 2009.
- ابن السالم حماه الله موريتانيا في الذاكرة العربية، ط 1 مركز دراسات العربية، بيروت 2005م.
- ابن عبد القادر عبد السلام بن سودة المري ، دليل المغرب الأقصى، ط2، طبع ونشر وتوزيع، دار الكتاب، الدار البيضاء:1960.
- ابن علي سيدي عمار وآخرون، الحضارة الإسلامية في مالي، ترجمه إلى العربية محمد وقيدي، منشورات إيسيسكو، تونس:1417-1996.
- الآزمي محمد، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19 ميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط:2000.
- البرتلي الطالب أحمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط2 دار الغرب الإسلامي بيروت 2007م.
- بطران عزيز ، << الشيخ المختار الكنتي الكبير ودوره في نشر الإسلام والطريقة القادرية في الصحراء وغرب إفريقيا">>، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي العدد:2، السنة:1981.
- السملالي العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المكتبة الملكية، الرباط 1974.
- سيدي المختار الصغير، رسالة إلى المولى عبد الرحمن بن هشام، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم نواكشوط 2003.
- الشمس أحمد ، النفحة الأحمدية، طبع بمصر، الجمالية1930.
- الفاسي عبد الحفيظ ، معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب، صححه وخرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ط1، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت2003.
- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، طبع بعناية إحسان عباس ط2 دار الغرب الإسلامي بيروت 1982.
- الكنتي الشيخ سيد محمد ا الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق باب أحمد ولد عابدين ولد حم الأمين، ط1 المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط 2004.
- مارتي أبول ، كنتته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت (دمشق د – ت)
- مفتاح محمد. الخطاب الصوفي- مقاربة وظيفية، توزيع مكتبة الرشاد، د د:1997.

- مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر بيروت (د–ت)
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط:2، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983م.
- **المصادر الأجنبية**
- Aziz.Batran: the Qadiraia Brotherhood in West Africa and the Western Sahara, the liff and times of shaykhal mukhatar al al kunti (1729–1811).

جوانب من الفكر والثقافة في الحضارة الإسلامية: منهج الدولة الحمادية في التسامح الديني 1007م-1152م.

د.عبد الكامل جويبة، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر

تطالعنا وسائل الإعلام اليوم دوريا بمصطلحات جديدة في قاموس الحضارات الإنسانية، ومن هذه المصطلحات الرنانة نجد التسامح الديني، وهو في حقيقة الأمر ليس بالجديد عن الحضارة والأمة الإسلامية لأنه في أصل الدين الإسلامي، وقد أوصى به القرآن الكريم وأكده الرسول صلى الله عليه وسلم، بل تم تطبيقه على أرض الواقع في معظم حقبات التاريخ التي كان فيها للدولة الإسلامية من النفوذ والقوة ما يؤهلها لفرض سلطانها على باقي الشعوب والملل والنحل.

وكنموذج حي عن الحضارة الإسلامية نستعرض في هذه المحطة، منهج الدولة الحمادية في العصر الوسيط بالمغرب الأوسط(الجزائر حاليا) في تجسيد فلسفة التسامح الديني.

فالتسامح الديني حين يجيء من مركز قوة فانه يكون أكثر فاعلية، وذلك لأنه يأتي والمتسامح قوي قادر على عدم التسامح، ولا شك أن الدولة الحمادية في العصر الوسيط كانت قوية ليس عسكريا فقط وإنما كانت قوية بعلمائها ومثقفيها وأهل الرأي فيها ومن هنا فان تسامحها لم يكن عن ضعف وعجز وإنما كان عن قدرة واقتدار.

واتخذ التسامح مع غير المسلمين اتجاهين عريضين قام أولهما على حسن التعامل والتجاور والمعايشة الاجتماعية مع كل من اليهود والنصارى معا، ونهض الثاني على الاتخاذ من النصارى واليهود موظفين رسميين في الدولة شانهم إن لم يفق إخوانهم المسلمين في بعض الأحيان فانه لم يقل عنهم في معظم الأحيان إلى حد انه لم يكن هناك أي فرق بين المسلم وغيره من أصحاب الديانات الأخرى.

فإذا كان من الصعب بمكان الخوض في مثل هذا العنوان في تلك الحقبة التاريخية، فان من المتفق عليه أكاديميا أنه لا بد أن يقدم الباحث على مثل هذه الموضوعات ذات المادة الشحيحة ، وهذا يحتاج طبعا إلى شجاعة للوصول إلى نتائج علمية تبتعد عن الذاتية والزيف.

ومن البديهي أن الدولة الحمادية قد أمسكت بزمام الأمور في المغرب الأوسط طيلة القرن الحادي عشر مما يدل على أنها كانت دولة عفية قادرة ولكن قدرتها لم تمنعها من أن تفتح ذراعيها للتسامح وذلك بفضل علمائها الكثيرين والذين مكنتهم علومهم من التأهيل إلى احتضان الثقافات الأخرى في رحابة صدر واتساع أفق.

إن الرحال كانت تشد إليها من الأصقاع البعيدة طلبا للعلم، والطلبة لا يرتحلون في تقديرنا إلى بلد إلا إذا كان فيه من العلم والمعرفة والعلماء ما يروي عطشهم مما لم يتمكنوا من الحصول عليه في بلدانهم، سواء لركود الحركة الثقافية لديهم أو لقلة علمائهم والمرافق العلمية.

وجدير بالذكر هنا أن الوضع الثقافي المرموق الذي وصلت إليه الدولة الحمادية لم يكن بفعل الصدفة، بل وفق ظروف وعوامل نختصرها في:

1/ احتكاك الجزائر بالأندلس وافريقية وهجرة أبنائها إليها وإلى المشرق ثم عودتهم إلى وطنهم، وذلك يدل على تفتح الجزائر على العالم الخارجي في العهد الحمادي.

2/هجرة بعض علماء الأندلس وافريقية إليها ، وإعانتهم للحركة الثقافية فيها بما حملوه معهم من علوم وآداب، كابن حمديس الصقلي شاعر الطبيعة، وابن الكفاه القيرواني، وعز الدولة بن صمادح و كثيرون غيرهم.

3/ ظهور مدينة المسيلة في 315هـ، والتي كان نشاطها الثقافي أعظم، وإقبال الأدباء عليها أكثر، لاهتمام أميرها جعفر بن علي المعروف بابن الأندلسية، باستقدام العلماء إلى بلاطه ، ولاتخاذها عاصمة للجهة الشرقية من القطر الجزائري، وقد كان وفود ابن هانئ الأندلسي إليها مبعثا لحركة أدبية نشيطة لم تعتم، إذ أنجبت طائفة من الأدباء كعبد الكريم النهشلي وابن رشيق وغيرهما.

4/ زحف بني هلال على افريقية في 442هـ ، وعلى الجزائر في 460هـ، كان له بالغ الأثر في الحياة الاجتماعية والثقافية للمنطقة، حيث تداخلت ثقافة البربر المحلية بالثقافة العربية الوافدة مع الهلاليين[1].

ويؤكد هذا الوضع ، بدون شك ، كثرة عدد علماء الدولة الحمادية ، ولعل في استعراض بعضهم يجسد هذا الجانب الثقافي، بإنتاجهم الفكري. مع العلم بان الأثر الثقافي والاجتماعي لدولة ما– دون أدنى شك – له مقدمات ومؤخرات يبدأ أثره من قبلها ويبقى مستمرا بعدها لفترة لا يستهان بها.

والحقيقة أن أعلام الفكر والثقافة بالرقعة الحمادية كثيرون، أدوا دورا لا يستهان به في الحضارة العربية الإسلامية بمفهومها الواسع، وقدموا مجهودات متنوعة في الأدب واللغة والدين والتشريع، والأصول وغيرها، استيعابا وتدريسا وتأليفا، بل أن اثر بعضهم قد تجاوز الدولة الحمادية إلى خارج الجزائر، في الأندلس والمشرق حتى إلى نيسابور، في بلاد فارس[2].

ومن هؤلاء الأعلام، العلامة أبو عبد الله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة[3]، وأبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي[4] و العلامة محمد بن حماد الصنهاجي القلعي[5].

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري القلعي[6]، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر القلعي[7] وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي[8]، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن علي بن ميمون القلعي التميمي[9] وابن الخراط أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافري القلعي[10] وابن يبكي أبي محمد عبد الكريم بن عبد المالك بن عبد الله بن الطيب الأزدي القلعي[11] وابن صمغان أبو عبد الله محمد القلعي[12] وابن منصور أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القلعي[13].

لقد تميز عصر الحماديين برقي مظاهر الحضارة، إذ كانت فترتهم مرحلة نمو الفكر العربي الإسلامي الثقافي والسياسي والاجتماعي وإشعاعه وإخصابه، حيث استطاعت الدولة الحمادية أن تنهض بالعلوم، وتتيح للشعراء والأدباء المناسبات التي تمكنهم من إثراء إنتاجهم، فاعتنى الملوك أمثال حماد والناصر والمنصور بالعلم وبأهله، فنهضت الثقافة والفنون على أيديهم نهضة كبيرة، انطلقت منها حركات فكرية ودينية وسياسية امتد تأثيرها إلى جهات مختلفة من بلدان المشرق والمغرب.

ومن هذه المظاهر المتصلة بالرقي والثقافة والتي لا يمكن تجاهلها، ذلك التسامح الديني للدولة الحمادية الذي تميزت به عن غيرها من الدول في تلك العصور، وهو ما يعرف بحرية الاعتقاد، فقد ضمنت الدولة الحمادية لجميع الطوائف والملل والمذاهب حرية التعبد على أراضيها، والتعايش دون اضطهاد أو إكراه على دين أو مذهب معين، بالرغم من أن مذهب الدولة كان مالكيا سنيا.

فقد كان عصر الحماديين أظهر العصور الإسلامية في تاريخ حرية الأديان واحترام العقائد بالجزائر منذ الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري، إذ تأسست في عهدهم سنة 400هـ(1009م) أول كنيسة بالقلعة يديرها قسيس برتبة أسقف، وأنشئت بها سنة 508هـ (1114م) أيضا كنيسة مريم العذراء برئاسة القسيس عزون المعروف عند العامة باسم الخليفة، وقد ابتنى دار سكناه بجانب الكنيسة[14] ، فقد تعايشت في كنفها طوائف شتى اختلفت مللهم وأجناسهم من شيعة وسنة وإباضية ونصارى ويهود.

وقد تمركز الشيعة في كتامة على اعتبار أنهم كانوا أول من ناصر المذهب الشيعي الفاطمي، ولكنه لم يبق منهم بعد رحيل الدولة الفاطمية إلى مصر إلا عدد قليل يصل إلى نحو أربعة ألاف.

وكان أغلب أهل السنة والجماعة في زناته، وعلى ذكر البكري فإن وجود أهل السنة كان في بنطيوس وطولقة، وكان سكان بسكرة على مذهب أهل المدينة.

أما الاباضية فكانوا في بغاية وتهوذة إحدى مدن بنطيوس ، وكانوا أيضا في سدراتة قرب ورقلة، حيث لجأ بنو رستم إليها بعد غزو الفاطميين لتاهرت.

وقد تمركز النصارى بقلعة بني حماد و بجاية، و كانت لهم كنائس تحت إشراف رسمي للقساوسة، علما أن العلاقات كانت طيبة بين الناصر والبابا غريغوار السابع. فلما اختط الناصر بن علناس مدينة بجاية الناصرية سنة 460هـ 1067م لأسباب أمنية سياسية واقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بتلك التحولات التي وقعت في المنطقة وعلى رأسها الهجرة الهلالية. انتقل إليها فيما بعد لتصبح عاصمة الحماديين، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم ير مثله لا شرقا ولا غربا. فأسس المدارس والمعاهد ، وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبرزين في كل فن. فازدحم في تلك المعاهد العلماء والحكماء والأطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية. وأمَّ بجاية والعواصم الأخرى الكثيرون من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم. فاستفادت الجزائر من علومهم وثقافتهم. ولقد بلغ إقبال الناس على العلم يومئذ أنه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف على مائة طالب لا فرق فيهم بين المسلم وغيره. فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لأمانة العلم[15].

قال شارل سينيوبوس في كتابه تاريخ الحضارة: << كان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر. فتعلموا منها صنع الشمع ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا. وببجاية تعلم الرياضي المهندس ليونار فيونتشي العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة، وأدخلها إلى أوروبا التي كانت خالية وقتئذ من العلم والعلماء.>>

ويمتاز ذلك العصر بحرية الأديان واحترام العقائد بالجزائر أكثر من أي وقت مضى. فكانت بالمدن الحمادية طوائف مسيحية، إما من بقايا الروم والرومان وإما من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا أصلهم، أو من أوروبيين نزحوا إلى الجزائر، أو من سبي أوروبا. فكان الحماديون يحسنون معاملتهم ، ويحفظون حقوقهم. وكان لبابوات روما علاقات مع الحماديين ولا سيما مع الناصر بن علناس. ولما انتقل الملك الناصر إلى عاصمته الجديدة انتقل إليها الكثير من السكان ومن بينهم النصارى، فاهتم بأمر هؤلاء ، وأبى إلا أن يكون لهم قسيسهم. فاقترح عليه أرشفاك قرطاجة القسيس سيرفاند servand فصادق عليه الناصر. ولما سافر سارفاند إلى روما أعطاه رسالة شخصية ودية مصحوبة بهدايا إلى البابا غريغوار السابع grégoire07 ، واشترى جميع الأسرى الذين عثر عليهم بمملكته ، وأرسلهم إلى البابا واعدا إياه بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فلما عاد سيرفاند إلى الجزائر أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء للناصر. وبعث له سنة 469هـ 1076م رئيس الكنيسة أيضا رسالة خاصة [16].

ويؤكد اكتشاف قبرية القارئ " فيرموس" المتوفى سنة 439-440هـ/ 1048م ، وقبرية "السنيور بطرس" المتوفى سنة 437-438هأو 442-443هـ / 1046م أو 1051م، استمرار الديانة المسيحية بالمنطقة في عهد الدولة الحمادية إلى ما قبيل قدوم الهلاليين. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الجاليات المسيحية المتبقية إلى ذلك العهد في المنطقة كانت تضم على الأرجح بعض الموظفين المدنيين المعترف بهم من قبل الأمير والمسؤولين لديه، لأن رجال الكنيسة لا يهتمون إلا بالشعائر الدينية[17].

ومن الإشارات التي تؤكد تسامح الحماديين مع النصارى ما ذكره أحد المؤرخين في هذا المقطع: < وقد استدعى الصنهاجيون الذين كانوا متسامحين إزاء النصارى الأهليين، بعض الحرفيين المسيحيين القادمين من الخارج، أما النصراني المتضلع في مذهبه والذي ناظر ابن التبان بواسطة مترجم وبمحضر نائب الأمير وعامل القيروان عبد الله بن محمد الكاتب، فإننا لا نستطيع أن نؤكد أنه كان إفريقيا>[18].

فمن المقطع السابق يمكن الوقوف على مدى التسامح الديني الذي وصلت إليه الدولة الحمادية، وهذا ما خول للمسيحيين شغل مناصب في الدولة، كالمستشارية والوزارة، وأكثر من ذلك إقامة المناظرات بينهم وبين علماء المسلمين. كما كان الجيش يضم مجندين من المسيحيين. ربما من الأسرى في حروب الفترات السابقة ، والذين طاب المقام لهم بالدولة الحمادية.

وفيما يخص اليهود فقد تمركزوا بقلعة بني حماد، خاصة بعد غزو الهلاليين للقيروان، وكانوا يمتهنون التجارة والطب والصياغة، وعملوا في أحيان أخرى مستشارين أو خبراء في الشؤون المالية[19].

ومما لا شك فيه، فإن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للطائفة اليهودية بالقيروان كانت مواكبة لتألق مدرستها التلمودية، فقد كان لها مجمع يرأسه " روس كلا" ، ومقبرة ،وصندوق خيري ،وعدة مؤسسات أخرى. و كان اليهود يسكنون بجوار المسلمين ويعيشون معهم متكافلين. ويبدو أن حالة ذلك اليهودي الذي صلى ابن تومرت على جثمانه صلاة الجنازة، عند مروره من تونس، لأنه كان في حياته يصلي مثل المسلمين، لم تكن من الحالات النادرة[20].

ومن المظاهر التي تؤكد انتهاج سياسة التسامح الديني مع هذه الطائفة، أن أهل الكتاب كانوا يكلفون المسلمين بتحرير شهاداتهم وعقود بيوعاتهم وبالخصوص عقود أنكحتهم. ولاشك أن صلاحيات محاكم الأحبار–الموجودة في ذلك الوقت– كانت محدودة للغاية، إلا أن المصادر تشير إلى وجود قاض من الأحبار(الديان) في المهدية حوالي سنة 490–491هـ/1097–1098م، وحتى نضع أيدينا على ما يثبت ظاهرة التسامح الديني وحوار الحضارات، ارتأينا استحضار نموذج للطائفة اليهودية المثقفة بالعبرية، والتي ساهمت ولا شك في إذكاء هذه الثقافة في تلك الفترة، داخل المغرب الإسلامي وخارجه مستعينة بالمناخ السياسي والفكري الثقافي، الذي لم يمنعها من التفكير والإبداع، ولم يقيدها بشروط الدين والعقيدة. حيث نجد شخصية إسحاق بن يعقوب الفاسي الذي يرتبط اسمه بقلعة بني حماد.

فحسب شهادة أبراهام بن داود فإن الدراسات التلمودية تراجعت كثيرا عقب رحيل كل من يعقوب بن نسيم بن شاهين وحننعيل.ولم تنتعش مجددا في المهدية إلا بفضل عائلة سنغمار Sagmar الذائعة الصيت. أما في القلعة ، فإن ازدهار هذا النوع من الدراسات يرجع الفضل فيه إلى سليمان بن فرماش Shlomo ben Formash و أبراهام هيافر القلعي Abraham He–haver Ha–kalai . غير أن شهرة قلعة بني حماد، على الأقل في المصادر العبرية واليهودية، تُستمد من انتساب إسحاق الفاسي إليها ، والذي كان يُعرف باسم إسحاق القلعي نسبة إلى القلعة.

وُلد الربي إسحاق بن يعقوب الكوهين الفاسي سنة 1013م بقلعة بني حماد. ويُعرف اختصارا بـ"ريف" (acronyme de Rav Itshak AlFassi : Rif) ، وأقام مدة من الزمن بالقيروان حيث تتلمذ على يدي كل من الربي نسيم بن يعقوب والربي حنانيل بن حوشعيل. وتوجه بعد ذلك إلى فاس للاستقرار بها. ولم يغادر فاس في اتجاه الأندلس إلا سنة 1088م وكان آنذاك شيخا مسنا. وبعد زيارته لبضعة مدن أندلسية طاب له الاستقرار بألسيانة. وفي هذه المدينة التقى بإسحاق بن يهودا بن غياث الذي كان على رأس الطائفة هناك وعلى رأس مدرسة تلمودية شهيرة. وحينما توفي ابن غياث حل إسحاق الفاسي محله. وكان له بالأندلس تلاميذ كثر. من أشهرهم يوسف بن ميكاش ويهودا اللاوي. توفي إسحاق الفاسي سنة 1103م[21].

من أهم مؤلفات إسحاق الفاسي: (كتاب الفقه أو الأحكام أو القواعد الفقهية). وقد دُونت أجزاء منه باللغة العربية. وطُبع لأول مرة سنة 1509م. أما أهمية هذا الكتاب فإنها تستمد من كونه جاء مكملا للتلمود[22]. ومن هنا اشتهر باسم التلمود الصغير Talmud qatan . ويبدو أن معاصريه ، لاسيما ابن غياث وابن البلية ، لم يكونا راضيين كل الرضا عن تلموده الصغير أو المختصر أو اختصاره للتلمود الذي ذاع صيته في الأوساط اليهودية باسم التلمود الثاني. إن من شأن هذه المختصرات، حسب اعتقادهما، أن تؤدي إلى ضياع أثر التلمود الأصلي.

ويتميز منهج إسحاق الفاسي بأنه كان يُهمل الشروح الأكادية، ويوجز في عرض المناقشات المتعلقة بالأحكام الفقهية مركزا على الأحكام الفقهية التي لها طبيعة عملية. أما القواعد التي لها صلة بتفيلين[23] أو

ميزوزة[24] أو سفر توره ، والتي لم تخصص لها أبواب مستقلة في التلمود ، فإن إسحاق الفاسي عمد إلى تصنيفها مسميا إياها باسم الأحكام الفقهية الصغرى.

ولم يكن يتردد في إلغاء أبواب بأكملها لم تعد لها علاقة بظروف العصر الذي عاش فيه. فحينما تطرق على سبيل المثال لموضوع الصيام في يوم عيد الغفران (يوم كيبور) التمس في حديثه الاختصار. وذهب أكثر من ذلك إلى درجة حذف كل ما له صلة بالعبادة في الهيكل الذي أصبح بعد خرابه جزءا من الماضي.

ونؤكد في الأخير أنه قد ازدهرت في هذه البيئة العلوم والآداب ، ونبغ عدد كبير من العلماء في سائر الميادين امتد تأثيرهم إلى أصقاع كثيرة من البلدان الإسلامية[25].

فالأفكار المطروحة اليوم على المستوى العالمي من تسامح الأديان وحوار الحضارات، وغيرها من الشعارات والمبادئ التي يتغنى بها الغرب، ويدعو لها من خلال العديد من الندوات الدولية واللقاءات الإقليمية، قد سبقت اليها الدولة الحمادية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ليس فقط بالطرح بل بالممارسة الميدانية الفعلية.

كما أن إقدام الحماديين على مثل هذا التوجه لم يكن في اعتقادنا اعتباطيا أو محض صدفة، وإنما لان سياسة الدولة مدروسة ذات أبعاد داخلية وخارجية على مختلف المستويات، ويمكن تلخيص دوافع ذلك ومبرراته في العناصر الآتية:

1/ التخوف والاحتياط من قيام كيانات سياسية مجاورة للدولة الحمادية ومنافسة لها–كما سبقت الإشارة إليه–، من الطوائف الأخرى ، خاصة إذا علمنا أن تلك الفترة كانت فترة صراع سياسي بين قوى سياسية تسعى باستمرار لبعث أنظمة سياسية وفق توجهات دينية لمذاهب معينة كالشيعة والاباضية وغيرهما... واحتواء الدولة الحمادية لتلك المذاهب والملل يعني منعها بطريقة غير مباشرة، من التفكير في الانقلاب على الدولة الحمادية وتكوين دول على مذاهبهم ومللهم.

2/ كما أن توجه الحماديين الديني في التسامح والتعايش قد يكون له مدلول تاريخي إذ استفادوا على ما يبدو من تجربة الفاطميين، الذين قاموا باضطهاد جميع الملل والمذاهب من غير الشيعة، وهذا ما ذكره أحد المؤرخين بالقول:<< اشتد الصراع المذهبي بين أهل السنة وبين الشيعة الروافض بعد قيام الدولة الفاطمية بإفريقية والمغرب 296–361هـ لميل هؤلاء إلى حمل الناس على التشيع جبرا واضطهادهم على ذلك اضطهادا عنيفا >>[26] مما أدى إلى ثورات ضدهم أشهرها ثورة أبي يزيد المعروف بصاحب الحمار في 332هـ الذي كان من أسباب نجاح ثورته في البداية تأييد علماء السنة له[27]. كما كان ذلك من أسباب تغيير الولاء عنهم بعد نقل مقر الدولة الفاطمية إلى مصر، فالرضوخ والإذعان لهم لم يكن اعتقادا إيمانيا وإنما كان خوفا ورهبة، وهذا ما حاول الحماديون ، في اعتقادنا ، تجنبه.

3/ وقد يأخذ الموضوع بعدا آخرا، هو انشغال الحماديين بالجوانب الأخرى لبناء الدولة سواء السياسية أو الاقتصادية ومنه تثبيت الحكم وتجنب تشتيت القوى في الصراع المذهبي والديني. فسعى ملوكها إلى التفتح

على العالم الخارجي بهدف ربط علاقات سياسية واقتصادية وثقافية لتقوية الدولة في المجالات المتنوعة، والاستفادة من خبرات الأجانب في مختلف الميادين. وكذا فتح المجال لاحتكاك الحضارات وتحاورها وتبادل نتاجها الحضاري، دون وضع اعتبار للحدود والسياسة والعقائد والمذاهب الدينية التي تُركت للحريات الفردية. دون أن نتعدى هذا التحليل البسيط إلى رمي الدولة الحمادية باللائكية لأن الدولة اللائكية هي الدولة التي لا تعتقد بدين معين ولا تتبنى تحديد دين للدولة.

ولكن في كل هذا يبقى التساؤل القائم اليوم – وبعد انقلاب موازين القوى بين المسلمين من جهة والنصارى واليهود من جهة ثانية– هل يتسامح اليهود والنصارى مع المسلمين اليوم كما تسامح معهم المسلمون على أيام الدولة الحمادية ؟؟؟

الملحق01

<< من غريغوار "إيفيك" عبد عبيد الله إلى الناصر ملك موريتانيا السطيفية بإفريقية.

سلاما ورضا الكنيسة

كتبت لنا سيادتكم النابلة هذه السنة تطلب منا أن نعين القسيس "سيرفاند" "إيفيك" على مقتضى الشريعة النصرانية، الأمر الذي بادرنا بتنفيذه نظرا لعدل طلبكم. وقد أرسلتم إلينا (بهذه المناسبة) هدايا، وقد أفديتم المسيحيين الذين كانوا أسرى بمملكتكم تقديرا لبطرس وحبا لنا واعدا لنا بعتق كل أسير مسيحي تعثرون عليه من بعد، فإن الخالق الذي لولاه لما قمنا بأي شيء قد ألهمكم هذا الحلم وقاد قلبكم للقيام بهذا العمل الكريم. إن الله العزيز الذي يريد أن ينقض جميع الناس، وأن لا يهلك أحد، لا يرضيه شيء أكثر من محبة الإنسان لأخيه بعد الحب الذي يجب على هذا الإنسان نحو نفسه، ومن العمل بهذه الحكمة: عامل غيرك بما تريد أن تعامل به، ويجب عليكم وعلينا أن نفعل الخير أكثر من الأمم الأخرى حيث أننا نعبد إله واحدا على طرق مختلفة، ونحمده ونقدسه كل يوم، فإنه خالق الأجيال ورب العالمين، فإن أعيان مدينة روما عند سماعهم منا بصنيعكم الذي ألهمكم الله إياه أعجبوا بسمو عواطفكم وشادوا بذكركم. فإن اثنين منهم، نديمينا " البريك"[28] "سينسيوس"[29] اللذين تربيا معنا منذ طفولتهما بقصر روما، يرغبان رغبة شديدة في أن تكون بينكم وبينهما صداقة وتعاون ويسعدهما أن يجدياكم نفعا في هذه البلاد. فإنهما يبعثان لكم بعض رجالهم يحدثونكم عن تقدير سادتهم لما قمتم به ولجلالتكم ، وعن سرورهم بخدمتكم هنا، فنوصي فخامتكم بهم حبا وخيرا، ونسأل عطفكم عليهم ورعايتكم لهم بقدر ما يكون عطفنا لكم واعتناؤنا بما يهمكم. والله تعالى يشهد أنه هو الملهم لهذه الصداقة التي نعدكم بها، وكم نتمنى لكم من حفظ ومجد في هذه الدنيا وفي الآخرة. نسأله من صميم فؤادنا أن يستقبلكم، بعد عمر مديد، في نعيم القديس إبراهيم>>[30].

الهوامش:

[1] – رابح بونار: **<u>المغرب العربي، تاريخه وثقافته</u>**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط2، الجزائر 1981، ص:281–283.

[2] – يحي بوعزيز: **أعلام الفكر والثقافة في رقعة الدولة الحمادية**، محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي الأول حول قلعة بني حماد، من 23 إلى 25 سبتمبر 87م، بالمعاضيد، ولاية المسيلة، ص: 5.

[3]– ولد بقلعة بني حماد في رجب عام 478هـ (1085م) ، وعاش بها صدر شبابه ، تنقل بينها وبين بجاية والجزائر للدراسة والتحصيل قبل أن يرحل إلى الأندلس، تجارة وطلبا للعلم، حيث التقى هناك بابن رشد وابن عتاب وأبي بكر، وابن طريف ، وأخذ عليهم جميعا ثم عاد إلى فاس ليتولى خطة القضاء، عام 536هـ (1141م)، وألف عدة كتب منها: تسهيل المطلب في تحصيل المذهب. التقصي في فؤاد التقصي. التبيين في شرح التلقين. وقام بتحقيق كتاب البسيط للغزالي وجمع نكته ومباحثه.

[4]– لقب بأبي حامد الصغير، تشبيها له بالغزالي، عاش في صغره بالمسيلة والقلعة ثم رحل إلى بجاية، وتضلع حتى أصبح علما يشار إليه. فأسندت إليه خطة القضاء، وشهد غزو ابن غانية للمدينة ، وأرغم مع غيره على مبايعته، وتكونت بينه وبين القاضي عبد الحق الأشبيلي، والفقيه محمد بن عمر القرشي صحبة متينة، فدأبوا على اللقاء باستمرار في متجر خاص لطرف حارة المقدس المقابل للقادم إلى الحارة، وذلك للحوار ومناقشة المسائل الفكرية والأدبية. من أهم مؤلفاته:(التفكير، وهو دراسة في القرآن الكريم، التذكير في علم أصول الدين، النبراس في الرد على منكري القياس) ولم يكن تلقبه بأبي حامد هكذا اعتباطا وإنما لكونه بلغ درجة عالية في التفقه والحكمة كالغزالي ،وكان عمدة في الفكر والثقافة والتشريع إلى أن توفي عام 580هـ (1184م).

[5]– المتوفى عام 628هـ (1230م) بمرج حمزة (البويرة) ، درس في القلعة حتى تبحر في التاريخ والفقه والحديث واللغة والآداب، ثم رحل إلى بجاية، ثم انتقل إلى كل من الجزائر وتلمسان، وظل يتنقل بين عواصم المغرب الإسلامي العلمية، يدرِّس ويروي الكتب والمؤلفات حتى بلغ ما رواه 222 كتابا من مروياته–على حسب ما يؤكده يحي بوعزيز–، وتولى منصب القضاء في سلا بالمغرب الأقصى، وفي الجزيرة الخضراء بالأندلس.

من مؤلفاته العلمية: (الديباجة في أخبار صنهاجة، وعليه اعتمد ابن خلدون في كتابه تاريخ صنهاجة. كما استفاد منه عدد من المستشرقين الغربيين، عجالة المودع في علامة المشيع، في الأدب والشعر، كتاب لخص فيه تاريخ ابن جرير الطبري، وشرح مقصور بن دريو، وكتاب الأعلام بفوائد... الأحكام.)

[6]– كان حجة في النحو واللغة والقراءات، درس على أبيه في القرن السادس الهجري (1194م– 1204م) ، ثم رحل إلى بجاية واعتكف على الدراسة والتحصيل قبل أن يتفرغ للتدريس ويصبح شيخ المشايخ في الجامع الأعظم، ومن الأعمال التي قام بها اختصار كتاب التفسير لأبي عمر والرازي، توفي في بجاية.

[7]– فقيها ومحدثا ومؤرخا، درس في القلعة وكان حجة في المذهب المالكي يجلس إليه القضاة ليسمعوا منه في مجلس القضاء، عين مستشارا ونصوحا في مجلس الديوان مدة، ثم عزف عن ذلك وتخلى بإرادته، فرحل إلى بجاية وتصدى للتدريس، وقد وقع أسيرا مع بعض الفقهاء لدى بعض البحارة الأوربيين فلم يتخل عن التدريس عندما تمكن من الخلاص والإفلات، وكان من ضمن تلامذته أحمد الغبريني صاحب كتاب " عنوان الدراية في من عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية "، توفي عام 699هـ (1299م).

[8]– المتوفى عام 669هـ (1270م) كان محدثا ومؤرخا وعضوا في مجلس القضاء ومستشارا في مجلس الديوان بالقلعة، رحل إلى بجاية ودرِّس بها ثم درس، ومن أهم تلاميذه: أحمد الغبريني كذلك ، وكانت له حظوة ومكانة لدى أمراء بجاية الذين كانوا لا يقطعون في أمر إلا بعد العودة إليه مما يدل على عظم مكانته.

[9]– المتوفى عام 673هـ (1274م) ، كان نحويا وأدبيا ومؤرخا، ورث العلم عن أبيه ميمون الذي كان قاطنا بقلعة بني حماد، ثم انتقل إلى بجاية ودرس على علمائها حتى تمكن في الفنون السابقة إضافة إلى الصرف حتى أصبح مثل ابن

جني وفي مستواه، فكثر حوله الطلاب والدارسون ومنهم الغبيريني. من مؤلفاته(الموضع في علم النحو، حدق العيون في تنقيح القانون).

[10]– نشأ بقلعة بني حماد، ودرس بها على الطقية بن الإمام، والنحوي ابن عفراء، ثم انتقل إلى بجاية مدرسا ومعلما في جامع القصبة وخطيبا وإماما به وبالجامع الأعظم، وانتفع به خلق كثير ومنهم الولاة والأمراء والوزراء

[11]– انتقل هو الآخر إلى بجاية وأصبح من الوجهاء بها في العلم والدين والمكانة الاجتماعية وبلغ إلى مستوى الشيخ محمد بن عبد الحق الإشبيلي، وكان ذا حظوة ومكانة لدى خلفاء بني عبد المؤمن. ودفن في رابطة تحمل اسمه هي رابطة ابن يبكي داخل باب أميسون في أعلى بجاية.

[12]– ولد وعاش بقلعة بني حماد، واشتغل في بداية أمره بالجندية، ثم تحول إلى دراسة العلوم والمعارف، ورحل إلى بجاية واستوطنها، ودرس على القاضي عبد الحق الإشبيلي، وتمكن في مختلف العلوم وخاصة علم الحديث، نقلا ورواية وسندا، وتولى خطة القضاء في عدة مدن مغربية، كما تولى نيابة قاضي الأنكحة إلى عبد الله الأصولي ببجاية، اتخذ سقيفة داره مكانا للتدريس لطلبته.

[13]– كان فقيها ورياضيا، تصدى لتدريس الحساب والفرائض في بجاية، وكذلك الفقه، توفي عام 670هـ (1271م).

[14] – عبد الرحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ط4، ج1، دار الثقافة ، بيروت 1980، ص: 289.

[15] Archevêque

[16] – أنظر الملحق رقم1

[17] الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية**، تعريب حمادي الساحلي،ج2 دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1992، ص: 376.

[18] المرجع نفسه، ص: 378.

[19] – رشيد بورويبة وآخرون: **الجزائر في التاريخ ، العهد الإسلامي**، تعريب: محمد بلقراد،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص: 240.

[20] – الهادي روجي إدريس: المرجع السابق، ص: 381.

[21] – كفايتي السعيد: **دور يهود الجزائر عموما ويهود تاهرت وقلعة بني حماد على وجه الخصوص في إغناء الثقافة العبرية القديمة (يهودا بن قريش وإسحاق الفاسي)** مداخلة ألقيت في الملتقى الدولي: قلعة بني حماد– ألف سنة من التأسيس– قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف بالمسيلة 2007.

[22] – إلى جانب نص التلمود، الأورشليمي والبابلي ظهرت نصوص أخرى ملحقة به تُعرف باسم مسختوت قطنوت(الأبواب الصغيرة). كما كثرت الشروح والحواشي والمقدمات المؤلفة لمساعدة دارسي التلمود.

[23] – تفيلين هي تميمة الصلاة. وتميمة الصلاة عبارة عن صندوقين صغيرين من الجلد يحتويان على فقرات من التوراة، من بينها الشماع أو شهادة التوحدي عند اليهود كُتبت على رقائق ويثبت الصندوقان بسيور من الجلد. انظر عبد الوهاب المسيري، 1999

[24] – ميزوزه هي تميمة الباب تُعلق على أبواب البيوت التي يسكن فيها اليهود.

[25] – أنيسة بركات: **محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1995، ص:277.

[26] – رابح بونار: المرجع السابق، ص: 247.

[27]– نفسه، ص: 169.

[28]– Albéric

[29]– Cencius

[30] – الطمار محمد، **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983 ص: 146، وقد أخذها من قولفان من كتابه"المغرب الأوسط في عهد الزيريين".

المشترك الثقافي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية

من الصراع إلى الحوار..من التباعد إلى التجاور ..من التنافر إلى التعاون

د. محمد بنتاجة، المملكة المغربية

مقدمة

إنّ بناء الحضارة الإنسانية على العيش المشترك، أمر لا يقبل الجدال، والحضارة الغربية التي نعيش اليوم في ظلّ خدماتها المادية الهائلة، كما نعيش في ظلّ أزماتهاالمتعاظمة، هي في الواقع نتاج التعاون بين جميع النّاس على اختلاف أديانهم وفلسفاتهموأفكارهم وأنظمتهم، وهي نتاج التكامل بين الأجيال البشرية المتعاقبة عموما وبين الحضارة الإسلامية الاستثنائية على الخصوص.إن العيش المشترك بين بني آدم أنتج حضارة مادية متطوّرة، لكنّه لم ينتج حتى الآنتفاهماً ثقافيا اجتماعياً وسياسياً بين الشرائح الإنسانية المتعدد.

طالما كانت الثقافة مرتعا خصبا لتلاقح الحضارات والتجارب الإنسانية المختلفة. وهذه النظرة الكونية تنطلق من واقع التعارف القرآني الفطري الذي خلقه الله في الإنسان باعتباره مخلوقا اجتماعيا يأنس بالآخرين ويأنسون به. لكن أجواء هذا التعارف الثقافي الكوني الفطري لم تكن دائما بمعزل عن المنغصات والمشاكل.

لقد أرق سؤال الثقافة المفكرين والباحثين كثيرا. وكيف يمكن تحقيق نوع من التجانس بين الثقافات المختلفة من منظور ما يضمن تعددية وتنوعا في المضمون الثقافي للحضارات المختلفة مع الإبقاء على صبغة التعارف الذي بثه الله تعالى في الناس والذي يقتضي التعاون على المشتركات ونبذ الخلافات وتذويب نفسية المقاتل؟ وهذا الواقعالإيماني لم يكن دائم التحقق، حيث عجزت الثقافات نفسها عن استيعاب التنوع والتعدد وصنعت لنفسها دروعا للقتال ونبذ الآخر في سياق من التحيز السلبي والتمركز حول الذات في إطار من الأنا المفرط. وهذا النمط من التفكير والسلوك في حقيقته لا يخدم المجتمع الإنساني الكوني، بل يخدم ثقافة الكراهية، ويبث في عالم الله الرحمن الرحيم بذور العنف والإقصاء، والحقد باسم الدين والثقافة الحق التي لا تقبل جدلا ولا مراجعة. والواقع أن ثقافة الإنسان الفرد أو المجتمع ككل، ما هي إلا نتاج تراكم من التجارب المختلفة، والاجتهادات البشرية التي تصيب وتخطئ، والتي لا ينبغي أن تكون أصلا معتمدا يقتدى به في بلورة النموذج المثالي للعلاقات بين ثقافات العالم. كما لا ينبغي أن ننسى أن الإغترار بالذات وثقافتها ومكوناتها الحضارية تدخلنا في نمطية وفردانية غالية دفعت بعض الكتاب والمفكرين خصوصا في المجال الثقافي الغربي إلى إظهار أنماط من السلوك العدواني تجاه الثقافات الأخرى، كما هو الحال عند هنتغتون مروج كذبة "صراع الحضارات والثقافات" أو لدى فوكوياما في أطروحته العدمية حول "نهاية التاريخ". أو لدى التيارات الفكرية والأيديولوجية المتطرفة كالنازية والفاشية التي قتلت الإنسان وخربت العالم وأظهرت بسبب عدميتها الغالية في المادية وإنكار القيم الإنسانية والمشتركات الثقافية بين الناس سلوكات معادية للإنسانية بل ومعادية للمادة نفسها لأنها تدفع بهذه الأخيرة إلى أبعد مداها ومستخدمة إياها في غير محلها الذي عينه الله تعالى لها. ما أدى بها في نهاية الأمر إلى كره الناس لها وتخليهم عن شعاراتها الخادعة، انتهى بها إلى مزبلة التاريخ.

الإنسان الحديث هو نتاج الإنسان القديم. مهما اختلف وجهات نظره حول العالم والكون والإله والعبادة ..الخ لكنها فروقات تنبني على أصول ثقافية مشتركة، وفيها يكمن العمل الجاد في السعي نحو توحيد كل الجهود والتعاون

على جمعها على كلمة سواء في تحقيق الأهداف المشتركة، ولعل تحديات العولمة ونمطيتها الثقافية الغربية تحيل دون قدرة أي ثقافة على مواجهتها بمفردها. إنها الكوزموبوليتانية العولمية –على حد تعبير الدكتور جون توملينسون– وهنا يتأكد دور التعارف الثقافي في خدمة مشروع التنوع والحفاظ على الخصوصية الثقافية التي تميزنا عن بعضنا. وتضمن للموروث الإنساني الخاص بكل منا أن يبقى مستمرا مع مرور الزمن والحقب والأقوام.

إن ما تتضمنه العولمة من تحديات تنصب في مجملها على محو الذاكرة الإنسانية من التعلق بالذاتي لصالح الأجنبي الأكثر حضورا في العالم الشهادة الكوني. ولعل القيمة المضافة لبحثنا المتواضع هذا هو تحليل أنماط العمل الثقافي وتفكيك البنى الداخلية للتحديات التي تحول دون الحفاظ على التنوع في إطار الائتلاف والحوار بدل الإختلاف والصراع. وأيضا بيان كيف يمكننا بلورة تعددية ثقافية دون تجاوز الخطوط الحمراء داخل كل ثقافة من منظور إسلامي قرآني واضح.كماسأتناول في هذا البحث النظرة الإسلامية للعيش المشترك بشكل عام، وكيف يمكن تحقيقه وفق تصور إسلامي يبني ولايهدم؟

المبحث الأول: المشترك الثقافي والمكوّن الدّيني

لقد أنتجت التغيرات الحضارية في زمننا المعاصر تلكم التحولات العميقة في منظومة الوعي والسلوك الإنساني الغربي (المسيحي– اليهودي...) من النظر الاستعلائي إلى الرؤية المتواضعة الباحثة عن خصوصيات المنافسة العربية (الإسلامية) من منطلق أن هذه الأخيرة لم تزل تتوفر على عنصر من عناصر الجذب والإثارة لآليات القوة الفكرية والحضارية ألا هو الديانة الإسلامية.

وإننا في دراستنا للمشترك الثقافي بين الحضارة العربية (الإسلامية)والحضارة الغربية(المسيحية) يصعب علينا إغفال المكون الدّيني كرافد أساسي يجمع ويلائم بين هاتين الحضارتين العظيمتين، يقول ول وإيريل ديورانت (حتى المؤرخ الشاك يبدي احتراما متواضعا للدّين لأنه يراه مؤديا ووظيفته، ولا غنى عنه على ما يظهر في كل مصر وعصر. فقد أنزل الدّين على التقي والمعذب والمحروم والمسن ألوانا من السلوى الخارقة التي تعدها ملايين النفوس أثمن من أي عون طبيعي...وجعل لأدنى أنواع الوجود معنى وكرامة وسعى من خلال القرابين إلى الاستقرار عن طريق تحويل المواثيق البشرية إلى علاقات مقدسة بالله)[1]. فهذا الاستقرار والإحساس بالكرامة الإنسانية هو الدافع النفسي الذي يعطي لهذا الإنسان الإحساس بضرورة خلق جو من الحماية لحياته الآمنة المستقرة، ولطالما شهدت الحياة البشرية على هذه البسيطة ممارسات ملوثة لهذا المناخ الآمن عن طريق إشعال الحروب والمعارك الطاحنة بإشرافات قدسية تُضفى عليها باسم الإرادة الإلهية (الحروب الصليبية مثلا والمجازر الإمبريالية ضد شعوب القارة الأمريكية...الخ)[2] وهذا في الواقع وصف تاريخي مرت به مجمل الحضارات والثقافات الأرضية خصوصا تلك التي تزعم أنها ذات بعد سماوي متعال جعل منها اتفاقات أو أديانا كونية عالمية. لكن هذا الوصف لم يصر في زمننا المعاصر وصفا جوهريا في أنساق هذه الأديان الكونية، فقد فطنت التيارات الدّينية إلى ضرورة خلق مقاربات ذاتية ذات بعد تسامحي وانفتاحي ساهمت فيه التحولات العالمي، وتبدل المواقع الحضارية قرارا أساسيا في بلورته، فقد بدأت الأديان (تكف عن توجيه الثقافات المرتبطة بها. فالعالم كله يواجه المشكلات نفسها لكن المناطق الثقافية المرتبطة بالمسيحية والإسلام مشتركة معا في التراث مادي حديث يربطهما معا وليس هذا فحسب بل إن المسيحية والإسلام

هما ورثة الثقافات المتمازجة للإمبراطورية الرومانية، فرغم أن اليهودية تشكل عنصرا في الثقافة المسيحية إلا أن هذا العنصر أقرب ما يكون إلى الثقافة الشرقية في الإمبراطورية الرومانية، بينما استعارت الثقافة الإسلامية كثيرا من المنطق اليوناني والميتافيزيقا... وبتوالي القرون أصبحت ثقافات الدولة المسيحية ودار الإسلام قد تجانست – إلى حد ما – بحكم وجود أصل مشترك لهما...)[3]. يقول أ.ل.رانيلا(وقد كان للمنطق اليوناني والميتافيزيقا اليونانية دورا جوهريا في بلورة علم اللاهوت الإسلامي الكلاسيكي **(علم الكلام القديم)**. ساهمت فيه عملية الانفتاح الثقافي الهائل الذي ابتدأه العباسيون أولا في عهد البرامكة ليبلغ أوجه في عهد المأمون العباسي الذي أنشأ دار الحكمة وهو مجمع علمي ثقافي عظيم أنشيء من أجل العمل على تقريب علوم الأوائل من مصادر الفكر الغربي اليونانية واللاتينية خصوصا وأن المكون اللاتيني يحتل موقعا خاصا بالنسبة إلى أوروبا الغربية والعالم المسيحي وبقايا الإمبراطورية الرومانية مع ذلك العدد الهائل من الأمكنة والتواريخ والاختلافات والمتغيرات والقوى والمداخلات التي تتضمنها هذه الكلمات هذا بالإضافة إلى ما تبقى من روما الوثنية...)[4]. ولقد حفظ المسلمون للغرب تراثهم الثقافي وخصوصا الدّيني منه في أصوله ومصادره الأولى، بل واضافوا إليه من الإبداعات والاكتشافات في شتى ميادين العلوم والصناعات والعلوم الإنسانية، التي لازلنا في مجتمعاتنا الحديثة عالة عليها ونستفيد من تجاربها. كما قان المسلمون بعملية ترجمة النصوص القديمة كبيرة جدا، دون أن يفيدوا منها علما ينفعهم في ممارستهم الدنيوية أو الدّينية، فقد تم إعمال قواعد المنطق اليوناني في كل جوانب الحياة الإسلامية ابتداء بالآليات الإسلامية مرورا بعلوم الشريعة الليتورجية وعلم الفقه وأصوله وانتهاء بالمجلات العلمية العلمانية كالميكانيكا وعلوم الآلة كالعربية والفلك والحساب والرياضيات.

أما في زمننا المعاصر فحضور **المشترك الإنساني** بات يعرف نوعا من الخفوت نظرا لأن الطبيعة الثقافة العلمانية المادية السائدة في العالم اليوم خصوصا في العالم الغربي، المهيمن ثقافيا وحضاريا على الأرض. فالغرب بماديته العنصرية – في نصيب مهم منها– المناهضة لأشكال التقارب الدّيني أيا كانت، باتت تعزل النطاقات الدّينية (مسيحية كانت أو إسلامية...) في سياق تصارعي حول مناطق النفوذ اللادينية الشيء الذي هيأ لكل دين مجموعة دفاعات عقلية قوية ضد الدّين الآخر وقد أدت هذه العلاقات المركّبة التي تحتوي في طياتها الألفة والعداء والتآلف والصراع إلى أن أصبح الحوار بين المسيحية والإسلام مسألة لها ضرورة خاصة وإلحاح لا فكاك عنه. والشيء المذهل لوجه خاص –كما يقول ديترسانغاس–هو (أنه لاتوجد فروق وانشقاقات بين الإسلام من ناحية والغرب من ناحية اخرى. ولن تكون لسبب بسيط هو أن الإسلام كذاتية واحدة متجانسة لاوجود له إلا في خيال الأمة الإسلامية وليس في الواقع السياسي، إن الإسلام كاسم مفرد هو مفترض ذهني وأن الأصوب والأدق كما يقر بذلك عنوان صدرا أخيرا–أن نتحدث عن "عوالم إسلامية")[5] وهذا الموقف يمكن أن يكون صحيحا إذا كانت هذه العوالم لاينظم بينها خيط ناظم كما هو الحال في المسيحية مثلا حيث الإختلاف في جوهر الدّين وأساسياته، لكننا في الحالة الإسلامية قتمت ثوابت مشتركة بين ماسمي ب"العوالم الإسلامية" وهي التي يراهن عليها المكون الإسلامي في تحقيق مشروعه على أرض الواقع، وهو ما يغضب الغرب ويحسسه بالتهديد ويدفعه نحو إسلاموفوبيا متوهمة.

إن عدم تفعيل المشروع الإسلامي زاد أيضا من حدة هذه الصراعات بين الإسلام والغرب وتنوسي المشتركات الحضارية والثقافية، لأن غياب النموذج الأنطولوجي لمشروع الإسلامي، يدفع الغرب إلى توهم حركات عدائية اتجاهه وهذا موقف طبيعي إذ القوي يخاف دائما ذلكم المجهول ويتوقع منه السوء دفاعا عن مكتسباته ومصالحه، وهذا في الواقع ليس في صالح العلاقات الإسلامية الغربية، فالإسلام يؤكد على رسالته الدعوية العامرة بالخير للناس، فكل فوبيا ماهي إلا تشويه للإسلام وصد للناس عن سبيل الله تعالى. والواقع أن الأديان مطالبة بمحاربة كل أشكال التوسع النفوذي **وتذويب نفسية المقاتل** تجاه الأديان الأخرى لأنها مع اشتراكها في المصادر والأصول الثقافية كما بيّنا وهي أيضا تشترك في طبيعة التحديات التي باتت تهدّدها ليس باعتبارها مكونا انتقائيا وإنمائيا، بل باعتبارها وحدة شاملة يجب ملؤها من الجذور. وأقصد بهذه التحديات جرثومة الإلحاد والعلمنة الشاملة المهددة للأديان وللممارسات الدّينية، فالعلمنة حسب القس الألماني جوتفرايد كونزلن –(ليست فقط وصفا لاضمحلال الأهمية الثقافية للدّين التاريخي وصورته الممأسسة، بل تعني أيضا خلق وسائل جديدة لعمليات فهم الوجود وقوى الإيمان ذات توجه دنيوي وتتمثل القوى الإيمان العلمانية الدّينية –حسب رأيي–في الثالوث التالي:

– التاريخ كتاريخ علماني للخلاص (ويمكن القول أيضا التاريخ كنقطة جذب المصير).

– مسيخانية (إيمان بمجيء المسيح المنتظر) سياسة (أو دين الثورة).

– العلم كقوة علمانية للإيمان)[6].

لقد أدى انتصار التاريخ العلماني – حسب تعبير كونزلن – للدّين إلى تطور العصر الحديث وهو الآن في أزمة حقيقية فقد أصبحت القناعات العقلية الأساسية أمورا تفتقر إلى اليقين وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها.

وأصبح **معبد العلم عتيقا**، وهكذا فقدت الآمال العلمانية بالفداء والخلاص قوتها الثقافية. ولا يقتصر معنى ذلك على حدوث أزمة في التراث الدّيني للعالم الغربي أي المسيحية، بل أيضا حدوث أزمة في الثقافة العلمانية للحداثة، ولم ينحصر الأمر في إصابة المسيحية وباقي الأديان بالإنهاك بل أصيب العصر الحديث كله بالإعياء أيضا، وباتت رؤى متشائمة من رواد ما بعد الحداثة والعدميّين كنيتشه في رؤيته النافذة لثقافة "آخر بني البشر" رؤية صحيحة وواقعية،(فمن أزوالدشبنغلر في كتابه "انحطاط الحضارة" إلى أرلوند توينبي في كتابه"دراسة للتاريخ" إلى بكريم يوروكين في كتابه "الدّيناميات الاجتماعية والثقافية وأزمة العصر" أن حضارة الغرب العلمانية الإنسانية السائدة، رغم ثرائها المادي وجبروتها العسكري، تعاني من آلام مبرحة، إذ فقدت القوى التي أدت إلى سيطرة هذه الحضارة، وقدرتها على الاستقطاب، وهاهي قوى التفكك والاضمحلال تتجاوز قوى التعاضد والتماسك، والمراسي التي ثبتت السفينة آخذة في التدعي، والقيم التي جمعت النّاس معا تعاني من الاضطراب، ولم تعد العلل مقصورة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات، بل اصبح نهر الحياة برمته ملوثا)[7]. لذلك فالحل في دورة الإنسانية المعاصرة إلى رياض الإيمان والتسليم لله رب السموات والأرض والملكوت وبهذا الهدف السامي يتطلب منا نحن معاشر أتباع الأديان السماوية منها والوضعية محاولة إيجاد صيغ ثابتة وواضحة تعصمنا من الزلل وتحول دون إحياء صفحات سوداء من الماضي وكما قال جارودي" إن الأمر ليس اصطناع طوباوي لا أساس له من الواقع بل أمر وعي ما تصبوا إليه آلاف

المجتمعات المتشاركة والطوائف على اختلاف أنماطها المتنوعة وهي تسمى كل منها لمصلحتها إلى تغير الحياة إن الأمر هو أن تعرف القاسم المشترك بين تطلعاتها وإن نفتح آفاق إمكانات جديدة إن ما نراه الآن يولد وينموا ليمنحنا سلفا الثقة والجرأة على تصورات وعلى تحقيق عالم آخر، ونمو إنساني الوجه[8].

المبحث الثاني: المشترك الإنساني رافعة الحوار والتواصل بين الحضارات

لكن حديثنا عن معيقات الحوار ليس إلا لإيماننا القوي بأنّ الحضارات وجدت لتتحاور لا لتتصارع كما علمتنا سنن التاريخ، فالتلاقح الحضاري المستمر بين الحضارات سرالارتقاء الحضاري للمجتمعات البشرية حتى اليوم، لأن في التلاقح اختصار لقرون من الزمان التاريخي الثمين واختصار للجهد الماديوالبشري. والحديث عن المعيقات ليس إلا تصميماً على الحوار، ودرءاً للتجريبية في الحوار والتواصل الحضاري. ولأن في الوعي التاريخي بالمعيقات التمكين للمعينات أي لعوامل الدفع في الحوار بين الحضارات الكبرى. ويمكن اختصار محركات الدفع في الحوار بين حضارة المسلمين و حضارة الغرب الحديث في ثلاث عوامل: عوامل دفع عابرة للحضارات، عوامل دفع إسلامية، وعوامل دفع غربية.

1-عوامل الدفع العابرة للحضارات:

إن المجتمع الإنساني العالمي اليوم يطمح لتحقيق ثلاث ضروريات كبرى: **حفظ البقاء** و**تحقيق الرخاء** و**تحقيق الهناء** (البقاء البيولوجي والرخاء الماديوالهناء الروحي) وهي باختصار الجيل الثالث لحقوق الإنسان في المنظومة الحقوقية العالمية بشعاراته الثلاث: سلامة البيئة والسلام الدولي والتنمية المستدامة[9].

إن حاجتنا للسلام والحوار هي حاجة للبقاء. والحاجة إليه هو شعور بالخوف فرضته الأخطار المحدقة بكوكبنا الأرض. لقد كدس الإنسان من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتدمير الأرض عشرات المرات. ويمارس الإنسان اليوم عدواناً مكثفاً على مكونات البيئة الطبيعية، أحدث اختلالات جسيمة في التوازنات البيئية الكبرى. فمنطق تحقيق أكبر ربح ممكن دفع الإنسان لممارسة أنشطة اقتصادية و صناعية أضرت ضرراً كبيراً بكل أغلفة الأرض. وهي الغلاف الهوائي والغلاف المائي والغلاف الصخري والغلاف الحيوي أو البيولوجي، مما تسبب وسيتسبب في توقيف تدفق الحياة على الأرض، وتوقف تدفق الطاقة الحيوية يعنى الموت لكثير من الظواهروالمخلوقات.كتلوث الهواء والماء والتربة ونفاذ المخزون الاستراتيجي من المعادن والطاقة في الغلاف الصخري. وتكاثر الأمراض المستعصية والموتان في صفوف مملكة الحياة كالتصحر وانحسار الغلاف النباتي التحولات المناخية المفاجئة في الأمطار والحرارة والرياح.. إن حاجتنا للسلام والحوار هو حاجتنا أيضاً للرخاء المادي وهو شعور إنساني فرضته حالة الفقر والجوع والأمية والمرض والموتان المتفشية في وسط أربعة أخماس سكان العالم. شعور إنساني بالتوزيع غير العادل للثروة على الصعيد الولي، (إذ يمتلك 20% من سكان العالم 80% من الثروة العالمية)[10]، وهذا الشعور الإنساني حاضر في كل الأحواض الحضارية شرقاً وغرباً, وتقويته ممكنة عبر الحوار حوار وسلام تحتاجه البشرية لتسخير مقدرات الطبيعة والحضارة البشرية لتحقيق العيش الكريم.

إن حاجتنا للسلام والحوار بين الحضارات هم أيضاً من أجل تحقيق السعادة والطمأنينة والسكينة للبشرية. فحضارة الغرب حققت الحاجات المادية لمجتمعاتها بإفراط، ولكنها عممت مجاعة روحية مرعبة بإفراط أيضاً، كانت

نتيجتها انعدام الأمن الروحي لساكنتها، فكانت ثمرتها المرة اليأس المفضي إلى الشقاء. مظاهره التعاطي بكثرة للانتحار وتناول المخدرات والتعاطي بكثرة للجريمة في الغرب[11]. وهذا أمر يفرض حواراً ينتهي بتبادل المنتجات الروحية العالية القيمة بين الحضارات، ويمكن للإسلام في هذا الباب أن يكون عونا للحضارة الغربية في تجاوز أزمتها الروحية الخانقة.

2-عوامل دفع إسلامية:

العامل الأول: مقاصد الشريعة:

إن حفظ البقاء العيني والرخاء الاقتصادي والهناء الروحي كمشترك إنساني هو من صلب مقاصد الشريعة الإسلامية. فمقاصد الشريعة كما صاغها إمام الحرمين الجويني وبعده أبو إسحاق الشاطبيوالطاهر بن عاشور في مراقي ثلاث: **مرقى الضروريات، ومرقى الحاجيات، ومرقى التحسينات أو الكماليات.** ومقاصد الشريعة في الواقع منظومة شاملة لحقوق الإنسان: ففي مرقى الضروريات تحدث العلماء على خمس ضروريات بدونها تنتفي الحياة أي ينتفي البقاء أو الوجود الآدمي وهي: **حفظ الدّين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ العرض أو النسل، وحفظ المال.** وأضاف إليها العلامة ابن عاشور **حفظ النظام**[12]. وفي تقديرنا فهي إضافة نوعية هامة جداً.فحضارة الغرب أهملت حفظ الدّين فأهملت بذلك حقوق الإنسان الروحية، وهو خلل كبير في البنيان الحضاري الغربي، وأهملت أيضاً مقصد حفظ العرض والنسل، فكانت نتيجته انهيار مأساوي للأسرة وتناقص ديموغرافي خطير يهدد أوروبا اليوم بالشيخوخة في هرمها السكاني، فأوروبا اليوم واليابان يشتعلان شيباً، وفي نهاية القرن الجاري سيصبح أكثر من نصف سكان أوروبا شيوخاً. وهذا خلل كبير يمكن علاجه من خلال حوار جاد وصادق بين الإسلام والغرب، فنساهم في حفظ العرض والنسل والدّين في الغرب. لنعيد بذلك التوازن لحضارتنا اليوم.

إن مقاصد الشريعة الإسلامية تتضمن كل أجيال حقوق الإنسان الثلاثة وزيادة، جيل حقوق الإنسان السياسية والمدنية، جيل حقوق الإنسان الاقتصادية والإجتماعية والثقافية، والجيل الثالث سلامة البيئة والسلام والدولي والتنمية المستدامة، وهي مساحة حضارية مشتركة تسمح بالحوار والتواصل بين الحضارات.

العامل الثاني: الحوار ضرورة شرعية:

قال تعالى**(يَاأَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير)**[13] ، فمن غايات الخلق الإلهي للرجال والنساء من بني آدم، وللقبائل داخل الشعب أو الأمة الواحدة وللشعوب والأمم التعارف. والتعارف في نظري أعلى درجات الحوار المتحضر بين الرجل والمرأة في مجال الأسرة والقبائل في مجال الدولة والشعوب في مجال الحضارة، والتعارف معناه تبادل المعرفة والخبرة بين الذكر والأنثى، بين الأمم والحضارات لتحقيق البقاء والرخاء و الهناء للبشرية جمعاء. والتعارف ليس معناه الإجتماع حول طاولة لتبادل الآراء ليس إلا و إنما الحوار الحضاري أو التعارف بالمفهوم القرآني يعني بالأساس تبادل المنتجات الحضارية ذات القيمة الإنسانية، سواء كان إنتاجاً مادياً أو إنتاجاً معنوياً. وهو ضرورة شرعية لكون أمة الإسلام أمة شهادة قال تعالى**(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)**[14] ثم قال: **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[15]. فمثل أمة الشهادة كمثل الشاهد أما القاضي. فهو يمتلك علماً بشيء يريد تبليغه للقاضي لتحقيق العدالة بإنقاذ مظلوم من ظلم ظالم. فأمة الشهادة وظيفتها تبليغ العلم الإسلامي للأمم لإنقاذها من الظلم والضلال الروحي والعوز المادي. وهذا غير متأتي إلا بالحوار بين الحضارة الإسلامية وكل الحضارات الموجودة على كوكبنا الأرض، وعلى رأسها حضارة الغرب. والحوار وتبليغ رسالة الإسلام لن تكون إلا بالتي هي أحسن كما هي تجربة الإسلام حينما كان المسلمون يقودون العالم في العصر الوسيط. فمئات الشعوب اعتنقت الإسلام حباً و طوعاً. لا كرهاً أو خوفاً كما يزعم دهاقنة الاستشراق، قال تعالى **(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ واحد وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)** [16]، ثم قال تعالى **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**[17] ثم قال **(ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**[18].

3-عوامل دفع مشتركة إسلامية وغربية:

إن المساحات المشتركة بين الإسلام والحداثة هي مجالات أساسية للحوار بين الحضارتين وهي كالتالي:

أ- الحداثة رد فعل تاريخي متطرف ضد فعل تاريخي متطرف:

للحداثة تعاريف متعددة حسب الحقل المعرفي الذي يعالجها و تعريفي للحداثة تعريف أو مفهوم تاريخي تعريف مستمد من دلالات مصطلح الحداثة في وقائع التاريخ الغربي الحديث، وليس من دلالاته في القواميس الفلسفية واللغويةالغربية. فالحداثة ليست أكثر من تحديد لأركان المشروع الثقافي الوضعي كما تم تنزيله في القرون الخمسة الأخيرة في بيئة الغرب الحديث، وهما ركنان كبيران:

أولاً القطع مع الماضي الوسيط، وثانياً الوصل مع الماضي القديم لضمان الارتقاء الحضاري في الحاضر والمستقبل. فالركن الأول للحداثة الذي يعني **القطع مع الماضي الوسيط الأوروبي** فهي (أسلوب فكري يتشكك في المفاهيم التقليدية للحقيقة والعقل والهوية والموضوعية، وفي فكرة اتجاه العالم نحو التقدم والتحرر وفي مجالات العمل التي لا خيار سواه أو في القصص الشمولي أو في التفسيرات النهائية)[19] وله غايات كبرى، نذكر منها بالأساس أربع هي: إعادة الاعتبار لأدوات الإنتاج الحضاري الكبرى،إعادة الاعتبار للشأن الدنيوي، إعادة (الاعتبار) للعقل والعلم وإعادة الاعتبار للحرية الشخصية. واعتبرت الحداثة أن السبل الاستراتيجية لتحقيق ذلك هي: العلمنة والتمايز أو التعدد والتعبئة[20].

ب- الحداثة قطع مع حالة التفكك قصد بناء حالة من الوحدة و التكتل:

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس ميلادي، نشأ حلف قوي بين الكنيسة والنظام الإقطاعي أوقف التعبئة الحضارية أو النفير الحضاري في العالم الأوروبي. وعاش الأوروبيون فعلاً عصر ظلام تاريخي توقف فيه الغربيون عن الإنتاج الحضاري المعتبر ذو القيمة سواء كان إنتاجاً مادياً أو إنتاجاً روحياً.

لقد أنتجت البشرية عبر تاريخها الطويل خمس أدوات عملاقة للإنتاج الحضاري هي:السلطة المركزية المستقلة، والأمة، والوطن، واللسان، والرسالة أو المشروع الثقافي للنهضة، إذ تعتبر هذه الأدوات إلى الآن شروطا لنهضة أية

أمة أو شعب. ما حدث لأوروبا في العصر الوسيط هو تفكك أدوات الإنتاج الحضاري العملاقة هذه، فتوقف الإنتاج الحضاري نفسه لمدة تزيد عن عشرة قرون.

لقد تفككت السلطة المركزية القوية مع انهيار الدولة الرومانية في القرن الخامس الميلادي، تحت ضربات فرسان القبائل البدوية وميلاد الكنيسة باعتبارها جهازا بديلا للدولة، وكانت النتيجة الواقعية لهذا الحدث التاريخي الكبير في أوروبا أن نشأ تحالف بين أهل السيف أو الفرسان، وأهل القلم أو الرهبان من رجال الكنيسة، تحالف أفضى إلى تقسيم الوطن الواحد إلى مئات الإقطاعيات، كل إقطاعية يحكمها فارس يسمى السيد أو النبيل، يسنده كاهن. وتحول سكان الأرض من الفلاحين إلى أقنان أو عبيد يباعون ويشترون مع أراضيهم التي أصبحت في ملك الفارس أو الكاهن[21]. وأضحت كل إقطاعية بسكانها الأقنان في حدود جغرافية وسياسية واقتصادية مغلقة أي في عزلة تامة عن باقي الإقطاعيات في الوطن الواحد. فالوطن الواحد الألماني أو الإيطالي على سبيل المثال لا الحصر تقطع إلى عشرات أو مئات الإقطاعيات وتقطع الشعب الواحد إلى عشرات أو مئات المجموعات السكانية المقطوعة الوصال مع إخوانها في الوطن، بفعل القوانين الفيودالية أو الإقطاعية التي تمنع مرور الرجال والمال والأفكار فيما بينها.

والخلاصة المرعبة أن حلف أهل القلم والسيف أنهى عمله بتفكيك أدوات الإنتاج الحضاري الكبرى وهي: السلطة والأمة والوطن واللسان. إذ انهارت السلطة المركزية الرومانية وتفكك الوطن وتحولت الشعوب إلى مجموعات سكانية مقطعة الأوصال تحت حكم الفرسان والرهبان الذين كونوا طبقة النبلاء. ولم يعد اللسان اللاتيني لسانَ إنتاج كما كان في العهد الروماني فسادت اللهجات والنتيجة الأكثر رعباً هي توقف تدفق الطاقة الحضارية بالغرب. فكان عصر الظلمات حقاً كما نعتته عقيدة الحداثة لاحقاً و يحق للحداثيين الغربيين أن ينعتوا الدّين المسيحي بأنه فكر ظلامي[22]. ولهذا السبب الهام رفعت الحداثة إبان ثوراتها الكبرى في القرون: الثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين شعار: **القومية والدولة القومية والسوق القومية واللسان القومي وشعار الأمة أوالشعب. والحداثة كمشروع ثقافي للنهضة**، بمعنى رفع شعار إعادة بناء أدوات الإنتاج الحضاري الكبرى من سلطة مركزية قوية وأمة ووطن موحد ولسان موحِّد ورسالة. فكان لها ذلك وكانت انطلاقة نهضة حضارية كبيرة ساعدها عليها عقيدة الاستعمار. فالقطع مع الكنيسة من طرف عقيدة الحداثة كانت غايته القطع مع المسؤول تاريخياً، وهي الكنيسة والإقطاع، عن تفكك أدوات الإنتاج الحضاري، تفكك انتهى إلى تَكَوُّرٍ حضاري طويل الأمد في البيئة الأوروبية الوسيطة، وهذا أمر لا اعتراض عليه من طرف عاقل مسلماً كان أو غير مسلم إلى هذه الحدود. والحداثة أيضاً قطع مع الإهمال للشأن الدنيوي في عقيدة الكنيسة المسيحية خصوصا الكاثوليكية منها، فالمسيحية ديانة آلت إلى الانحراف والضلال كما يخبرنا ديننا الحنيف سواء في تثليثها لله الأحد سبحانه، أو في اعتقادها المنحرف بالعلمانية فهي تزعم باطلاً أن عيسى عليه السلام قال(**أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله**)[23]، أي أن الشأن الدّيني من اختصاص الكنيسة والشأن الدنيوي من اختصاص السلطة السياسية، وهذا بالضبط هو الأصل في تعريف العلمانية، أي فصل الشأن الدّيني عن الشأن الدنيوي بشكل كلي(العلمانية الشاملة على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله). فكانت نتيجة هذا المعتقد الكنسي المنحرف أن أهملت الكنيسة المسيحية تنظيم الشأن الدنيوي إهمالاً شبه تام، فلا غرابة أن لا نعثر

داخل المسيحية على الأحكام الشرعية أو القوانين الدّينية أي القوانين المنظمة لسير الشأن العام، قوانين تضبط ممارسة السلطة السياسية والمعاملات الاقتصادية والإجتماعية ونظام الضرائب، لضمان سير الدولة وللضمان الإجتماعي وغيرها من شؤون العمل الدنيوي.

إن المسيحية فرّطت في تدبير الشأن الدنيوي وفرطت في أدوات الإنتاج الحضاري **وهذا تطرف في الموقف والممارسة التاريخية**، كانت نتيجته رد فعل تاريخي متطرف هو الآخر من طرف عقيدة الحداثة، فأفرطت في الاهتمام بتدبير الشأن الدنيوي، وفرطت في الشأن الدّيني، والحاجيات الروحية للإنسان تحت شعار العلمنة والعَلْمانية. والحداثة تعني أيضاً القطع مع **معتقد تحريم العقل وتحريم العلم:** فقد حرمت الكنيسة الإيمان بالعقل والإيمان بالعلم، واعتبرت ذلك كفراً بل نصبت محاكم التفتيش لذلك في نهاية العصر الوسيط، فأحرقت وأعدمت ما يناهز الثلاثين ألف عالم ومفكر حسب بعض المؤرخين، والجميع يعلم محنة غاليليو وكوبيرنيكوس. وهذا أيضاً فعل وموقف متطرف، فرط في نعمتين عظيمتين من نعم الله تعالى. ومع انتصار ثورة الحداثة مارست هي الأخرى رد فعل متطرف، فأفرطت في رعاية العقل بلغت درجة التقديس إذ اعتبر التيار السائد في الحداثة أن كل ما لا يمكن للعقل إدراكه، بواسطة الحواس الطبيعية أو الحواس الاصطناعية كالمجهر والتليسكوب وغيرها، غير موجود. فنفت بذلك عالم الغيب كوجود الله سبحانه والملائكة والوحي والرسل والدار الآخرة وغيرها، فكانت النتيجة التلقائية لهذه النظرة انتشار ثقافة الإلحاد في العالم الغربي أولاً ثم انتشارها في بقع أخرى من العالم، بما فيها العالم الإسلامي. وعلى منوال هذا نفهم أيضاً موقف المسيحية وفلسفة الحداثة من مفهوم الحرية: فالكنيسة وحليفها الإقطاع سلبا من الإنسان الأوروبي في العصر الوسيط حريته الشخصية بالتمام، وحولا السكان إلى أقنان أي عبيد الأرض بمصطلح التاريخ الأوروبي، إذ يباعون ويشترون مع الأرض، فرقبتهم ملك للسيد أو النبيل الذي قد يكون صاحب قلم (الكُهَّان) أو صاحب سيف الفرسان).

لقد كان الإنسان الغربي محروما من حركة أو تنقل الجسد إلا بإذن السيد، ومحروما من حرية التفكير والتعبير بالتمام، وطبعاً لا حق له في الممارسة السياسية أو التعبير السياسي، بل إن التطرف في العداء للحرية الشخصية وصل درجة إعلان الكنيسة حرمة الزواج بالنسبة لرجال الكنيسة، وهذا منافٍ للفطرة التي فطر الله عليها كل مكونات الغلاف الحي ومنها بني آدم، وحرمت الكنيسة الإنسان المسيحي حتى من حرية الدعاء المباشر لله تعالى، إذ فرضت علية أن يمر الدعاء عبر وساطة الكاهن وهو ما سمي بسلك الكهنوت، فهذا التفريط في الحرية عند الديانة المسيحية قابله عند فكر الحداثة إفراط في الحرية الشخصية وغير الشخصية. لقد اعتبرت الحداثة الحرية هي التخلص الكامل للشخص من أي قيد أخلاقي أو فكري أو قانوني أو سنني في تحقيق متعة الجسد. فالعقل يجب أن يمارس نشاطه بعيداً عن الاعتقاد بان للنشاط العقلي للإنسان حدود وسنن لا يمكنه تجاوزها، والجسد يجب أن يمارس نشاطه الشهواني بعيداً عن أي اعتقاد بأن لتلبية الشهوات حدود آدمية وسنن طبيعية، فكان الزواج المثلي بين الرجل والرجل أو المرأة والمرأة وغيرها من التصرفات المنحطة كما نشاهد اليوم. فالمسيحية حرّمت العقل والعلم والحرية وهذا تفريط، والحداثة أفرطت في رعاية العقل والعلم المادي والحرية إلى درجة التقديس وهذا إفراط، من الثمرات الحلوة للحرية التي جاءت بها الحداثة الحرية السياسية أو الديمقراطية كإنتاج حضاري متقدم جداً. ومساحة للحوار الحضاري بين الحداثة والإسلام.

بعد هذه المقارنة بين الفعل التاريخي المتطرف للتجربة المسيحية في أوروبا في العصر الوسيط، وبين الفعل التاريخي المتطرف للحداثة بالأمس واليوم، بعد هذا نطرح السؤال التالي: هل ارتكب الإسلام كعقيدة وشريعة وتجربة تاريخية في العصر الوسيط نفس الأخطاء التاريخية التي ارتكبتها المسيحية؟ أم أن تجربته نقيض تام لتجربة الكنيسة؟

ت- الحداثة في ميزان الإسلام: لا إفراط و لا تفريط

إن كانت تجربة الدّين المسيحي في أوروبا تؤكد بالشواهد التاريخية وبالنص الدّيني أنها ساهمت في تفكك أدوات الإنتاج الحضاري الكبرى من سلطة مركزية وأمة ووطن ولسان ورسالة، فإن تجربة الدّين الإسلامي في دار الإسلام تؤكد بالشواهد التاريخية العينية وبالنص الدّيني أن الإسلام بنى أدوات الإنتاج الحضاري العملاقة. في مكة المكرمة ولدت الرسالة، رسالة النهضة، ومع هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة وُلِدت رأساً النواة الصلبة لأدوات الإنتاج الحضاري، وهي الدولة بمعناها القانوني الحديث والذي يتضمن ثلاث مكونات أساسية وهي: السلطة السياسية المركزية، الوطن أو الإقليم والأمة أو الجماعة المستوطنة للإقليم/ الوطن، فالإقليم/الوطن مثلثه المدينة المنورة ومحيطها من القبائل المتحالفة أو المسلمة، ثم جزيرة العرب والأمة مثلها المهاجرون والأنصار واليهود وغيرهم من ساكنة الإقليم/ الوطن، أما التعبير عن ميلاد السلطة المركزية كإحدى أدوات الإنتاج الحضاري المادي والروحي، فقد مثله النبي محمد صلى الله عليه وسلم باعتباره الحاكم السياسي إلى جانب كونه رسولا يوحى إليه، ومثلته وثيقة الصحيفة باعتبارها دستور الأمة المكتوب منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، ومثلته شورى الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة في كل شيء، قال تعالى(**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**)[24] ، شورى في كل شيء، إلا فيما هو وحي فلا شورى فيه، فهو دستور رباني مكتوب، ما على المسلم فيه إلا السمع والطاعة. ومثله اللسان العربي المبين باعتباره لسان عبادة ولسان إدارة ولسان إنتاج حضاري في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم في عصر الخلافة الراشدة ثم في كل عصور الخلافة التابعة الزاهرة ومثلته رسالة الإسلام كمشروع ثقافي من أصل رباني. بل إن الإسلام بعد الفتوحات المباركة بنى سوقاً وطنية ووطناً عابراً للأقاليم من حدود الصين إلى حدود الأندلس، وطناً عابراً للأقطار وسوقاً اقتصادية حرة يتنقل فيها الرجال والمال والأفكار بدون جواز سفر وبدون تأشيرة مرور كما يصف لنا ذلك الرحالة المغربي ابن بطوطة في رحلته التي دامت ثمانية وعشرون سنة واستغرقت كل بلاد الإسلام وغيرها. وبنى الإسلام بعد الفتح أمة عابرة للأقوام والشعوب، فامتدت من إندونيسيا في المحيط الهادي إلى المغرب والأندلس والسنغال على المحيط الأطلسي. وتوسعت السلطة المركزية باعتبارها أحدى أدوات الإنتاج الكبرى بعد الفتح فظهرت الخلافة الإسلامية بدءاً من عهد الخلفاء الراشدين وانتهاء بالخلافة العثمانية.

لقد جاءت الحداثة لإخراج أوروبا من عهد التجزئة الإقطاعية، إلى عصر الوحدة والتكتل القومي، فوحدت الوطن القومي والسوق الوطنية والكيان السياسي الوطني ووحدت اللسان الوطني وجاءت بسالتها الثقافية التي مثلتها فلسفة الحداثة فضمنت رهان الارتقاء الحضاري، وهو مسلك الإسلام في تجربته التاريخية. وفي هذا ائتلاف وتوافق بين الحداثة والإسلام وبالتالي الحوار، فالإسلام أيضاً وقبل عصر الحداثة بقرون جاء لإخراج النّاس كافة وفي كل

القارات بما فيها قارة أوروبا، من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضنك الحياة إلى سعتها، فأخرج شعوباً كثيرة من عهد التجزئة إلى عصر التكتل والوحدة العقدية والجغرافية والاقتصادية والسياسية، **لكنه يمتاز على تكتل الحداثة بأنه ليس تكتلاً وطنياً فحسب؟** بل تكتلاً عابراً للأقطار والأوطان والقوميات والأعراق والألسن، وعابرا للطبقات والقارات، **تكتل تعود فيه الجنسية الأم للعقيدة قبل الوطن** أو الإقليم، فالنّاس إخوان في الله أولاً ثم في الوطن ثانياً ثم في الدم واللسان ثالثاً، وهذا اختلاف بين الإسلام والحداثة. والحوار الثاني للحداثة مع الإسلام نصاً وتجربة هو اهتمامهما معاً بالشأن الدنيوي وتنظيم العمران البشري، بعكس المسيحية، فالأحكام الشرعية الإسلامية في القرآن الكريم والسنة وسيرة الرسول ε شاملة لكل حاجيات النّاس المادية و الروحية، أحكام وضعت لنا قواعد شرعية لممارسة الحكم السياسي، نذكر منها على سبيل المثال:

قاعدة أو مبدأ القانونية: أي التزام أولي الأمر في الحكم بمرجعية دستورية عليا تعود إليها الأمة والسلطة في تنظيم الشأن العام وعند الاختلاف. وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، قال تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)**[25]، يقول الدكتور توبي.أ.هف(لم يكن ثمة شك في العالم الإسلامي في أن قانون البلاد هو الشريعة الإسلامية. ولم يكن ثمة من مصادر أخرى تنافس الشريعة)[26]، في حين لم يعرف الغرب مبدأ القانونية أو الحكم وفق القانون إلا في نهاية القرن الثامن عشر مع ثورة الحداثة السياسية)[27]، حيث كانت التشريع بيد القياصرة الرومان وبعد أن تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية على يد قسطنطين الكبير، تجاذبت الكنيسة دور التشريع وسن القوانين بين الأباطرة والباباوات، (وكان الصراع بين الدّين والدنيا، وبين مطالب المسيح ومطالب القيصر، أمرا معترفا به يخضع للجدل والجروب المتكررة)[28]، بل وحتى القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تزل إشكالية القانونية قائمة، كما بين ذلك المؤرخ القانوني إرنست كانتوروفتش، فالملك (هو منبع العدل ويفترض فيه تفسير القانون في حال غموضه وكانت المحاكم لاتزال هي محاكم الملك، وكان الملك يعتبر قاضيا كامل السلطة في مملكته، بينما يحكم القضاة الآخرون الذي يستمدون سلطتهم منه بالنيابة عنه)[29]. لكن الاختلاف الثاني الجوهري بين العقيدتين كون القرآن الكريم مصدرا دستوريا ربانيا ودستورهم وضعي بشري. ونذكر أيضاً **قاعدة أو مبدأ السلطة للأمة:** أكدت الديمقراطية الحديثة على البعد السياسي للحرية، على أن الشعب هو مصدر كل السلطات. وفي هذا ائتلاف مع الإسلام الذي أكد على استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى**(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)**سورة البقرة:28، ثم قال سبحانه **(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)**[30] ، فالأحكام الشرعية المنظمة للحقل السياسي متعددة، تحدد لنا الحلال والحرام في الممارسة السياسية، ونكتفي بهذين المثالين، وهذا ما لا أثر له في الدّين المسيحي الذي اعتبر السلطة لقيصر وليس لله عز وجل، ونفس الشيء يسري على كل مجالات الحياة البشرية.

لقد حددت لنا الشريعة الإسلامية كل القوانين الكلية المنظمة للنشاط الاقتصادي والنشاط الإجتماعي والأسري، والمعاملات والتربية والبيئة وحقوق الإنسان، رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً، من المهد حتى اللحد. بل وضعت لنا قوانين وأحكاما لا وجود لها حتى في حضارة الحداثة، كحفظ الدّين وزاد الإسلام على الحداثة بتنظيم الشأن الدّيني والحاجيات الروحية للإنسان الذي أهملته بالتمام ثقافتها. وهذا اختلاف هام بين الحداثة والإسلام، فإهمال البعد الروحي عند البشرية والتركيز على الغرائز المادية عندها خطأ قاتل، قد يتسبب في انهيار حضارة الحداثة، كما تؤشر على ذلك اليوم الصحوة الدّينية العالمية الشاملة لكل الأديان، (خصوصا نحو الإسلام)، وهي تعبير عن رغبة واعية أو غير واعية من البشرية في تلبية الأشواق الروحية في كيان الإنسان والحاجة للمتعالي. **إنها بداية عصر ما بعد الحداثة.**

والخلاصة أن الإسلام لم يهمل الشأن الدنيوي كما أهملته المسيحية، فكان سبباً من أسباب طردها من حقل التدبير العام وفقدانها صفة القيادة التي تجمع بها النّاس من حولها وتحركهم وفق تعاليمها، من ثم فلا مجال لرفع شعار العلمانية في العالم الإسلامي بالمفهوم الغربي من طرف تيار الحداثة، **فهو في بلادنا ليس أكثر من نسخة مشوهة للحداثة الأصيلة في الغرب وهو خطأ قاتل لأمتنا.**

والحداثة في توافق وائتلاف أيضاً مع الإسلام في كونه اهتم بالعقل والعلم والحرية عكس الدّين المسيحي المحرف. فالإسلام اعتبر العلم فريضة على كل مسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(طلب العلم فريضة على كل مسلم)**[31] ، بل إن أول آية نزلت من القرآن الكريم بدأت بكلمة **(اقرأ باسم ربك الذي خلق)**[32] وقال تعالى **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)**[33] ، فنحن شرعاً أمة **اقرأ** و**أمة علم** بعكس المسيحية التي كفرت المومنين بالعلم والعقل. كما حض الإسلام على رعاية العقل البشري، إذ نجد كثيراً من الآيات القرآنية الحاثة على إعمال العقل، باعتباره الوسيلة المثلى لفقه الواقع وفقه النص الدّيني ومعرفة الخالق سبحانه، قال تعالى**(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**[34] ثم قال:**(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)**[35] ، ثم قال تعالى**(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**[36] ، ثم قال:**(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)**[37]. فهذه كلها آيات تدعونا صراحة إلى إعمال العقل بالتذكر والتفكر والتدبر في آيات الله في الكتاب المنشور(القرآن الكريم) وآيات الله في الكتاب المنثور (الكون). بل إن القرآن الكريم جاء ليعلم البشرية طرائق التفكير العقلي السليم وطرائق البحث العلمي النافع، وهذا أيضاً فيه توافق وائتلاف وحوار بين الحداثة الغربية والإسلام، فمن الشروط المنهجية للبحث العلمي الحديث اليوم:

أولا: تحديد إشكالية البحث، أي تحديد الأسئلة المركزية لاستنطاق الظاهرة المبحوثة، **ثانياً:تحديد فرضية البحث، ثالثاً: فحص الفرضية،** ثم **رابعاً:استخلاص النظرية،** لكن المكون المفتاح في البحث العلمي هو **تحديد السؤال.** وكما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم **(...**إنما شفاء العي–أي الجهل– **السؤال)**[38] ، فإن تعلمت كيفية طرح السؤال بطريقة سليمة تكون قد بدأت مسيرة الألف ميل من أجل إنتاج علم وممارسة سليمتين ونافعتين. فالسؤال شرط للإبداع والاجتهاد السديد. والقرآن الكريم جاء ليعلمنا كيفية طرح السؤال، لقد جاءت آيات كثيرات في صيغة

سؤال بدون جواب مثال ذلك الآية الكريمة(**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**)[39]. فهذه أسئلة بدون جواب مباشر ومن الحكم الربانية في طرح السؤال في كثير من الآيات الكريمات هو تعلم طرح السؤال نفسه. كل هذا يدل على الرعاية الكبيرة للشريعة الإسلامية للعقل وتسخيره عكس ما هو عليه الأمر في المسيحية. فماذا بعد هذا التوضيح؟ أليست العلمانية في بلاد الإسلام هي الوصل مع الماضي الإسلامي الزاهر لا القطع معه كما حدث مع المسيحية في الغرب؟ لكن مع كل هذا التوافق بين الحداثة والإسلام، فإن هذا الائتلاف يتضمن أيضاً اختلافات بينة بين الحداثة والإسلام لمفهوم العقل ومفهوم العلم، فالحداثة لا ترى حدودا لنشاط العقل البشري، وهذا إفراط في حين علمنا ديننا الحنيف والعلم الحديث أن لنشاط العقل البشري حدود لا يتعداها في الإدراك والمعرفة، وهي حدود العالم المادي، أما عالم الغيب فلا يمكنه إدراكه بالعقل وحواسه الطبيعية أو الاصطناعية. والمعرفة في هذا المجال تتم عبر الإخبار الرباني عن طريق الوحي المنزل على الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فالْفرد غير قادر على إدراك عالم المغناطيس والرياضيات وغيرها من المخلوقات، فهي بالنسبة له غير موجودة وعالم غيب بسبب الحدود المخلوقة من الله الخالق سبحانه على جهازه الإدراكي، فكذلك الإنسان لا يمكنه إدراك عالم الغيب، وهو موجود، للحدود المجعولة على آليات إدراكه. كما أن العلم في الإسلام يختلف عن العلم في فلسفة الحداثة، فالعلم في الحداثة **بابان:** علوم **مادة** كالفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها، وعلوم **إنسان** كالتاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس وغيرها. أما العلم في الإسلام فأبواب ثلاث: **علوم الشرع** و**علوم المادة** و**علوم الإنسان،** فلا فصل بين العلم والدّين في الإسلام. فالعقل والعلم وأدوات الإنتاج الحضاري الخمس والاهتمام بالشأن الدنيوي أحدثت الحداثة نفيراً حضارياً ببلادها الأصلية وأيضاً بنفس كل تلك الأمور اهتم الإسلام عقيدة وشريعة وتجربة تاريخية فأحدث نفيراً حضارياً عملاقاً في العصر الوسيط. ومما سبق أريد أن أوجه سؤالاً حيوياً لأبناء مدرسة الحداثة ببلاد الإسلام والسؤال هو: إذا كانت الحداثة في الغرب تعني العلمنة والتمايز والتعبئة الحضارية عن طريق القطع مع الماضي الأوروبي الوسيط، هذا العصر الذي فرطت فيه المسيحية في أدوات الإنتاج الحضاري، وفي الشأن الدنيوي، وفي العلم والعقل والحرية. **فهل يمكنكم أنتم الحداثيون ببلادنا أن ترفعوا نفس شعار الحداثة الغربي وتستنسخوا نفس تجربتهم فتدعون إلى القطع مع الماضي الإسلامي (الوسيط)؟** رغم أن الإسلام بنى أدوات الإنتاج الحضاري واهتم بالشأن الدنيوي كاهتمامه بالشأن الدّيني، وأعطى رعاية خاصة للعقل والعلم والحرية؟ سيقال: إن الحداثة في بلاد الإسلام تعني عكس الحداثة في بيئة الغرب، فهي ليست قطعاً مع الماضي بل وصلاً مع الماضي الإسلامي المجيد، والقطع مع الحاضر العلماني المنحط. فأهل الحداثة ببلاد الإسلام إن كانوا صادقين في نية النهضة، فعليهم أن يكونوا أصوليين، لأن الغربيين أنفسهم كانوا أصوليين، قطعوا مع العصر الوسيط المنحط ووصلوا مع العصر القديم المجيد عندهم، عصر أثينا وروما باعتباره الميلاد الأول لهويتهم فاخذوا من تراث أثينا العقلانية والديمقراطية الوثنية، وأخذوا من روما القانون الروماني، واستوعبوا حضارة الإسلام مع الجحود.فهم لم يفرطوا في ميلادهم الأول في أثينا وروما، فكيف فرط نحن في ميلادنا الأول بمكة و المدينة؟ فهل من مستيقظ؟! سيقال: إن الحداثة في بلاد الإسلام تعني القطع مع حداثة الحاضر. حاضر فككت فيه الحداثة الغربية الغازية أدوات الإنتاج الحضاري ببلادنا وعممت

التجزئة. لقد أعادت الحداثة العلمانية الغازية إنتاج العصر الوسيط الأوروبي بديارنا، ففكّكت الوطن العربي إلى 57 إقليما والوطن الإسلامي إلى 22 دويلة ضعيفة ومفككة الأوصال وأضحت الحدود مغلقة بين هذه الأقاليم، يمنع فيها مرور النّاس والمال والأفكار إلا بتأشيرة مرور وجواز سفر، وبالنتيجة قطعوا أوصال الأمة الواحدة إلى57 قطعة، وفكّكوا السوق الوطنية الكبرى، وأسقطوا السلطة المركزية للأمة بإسقاط الخلافة الإسلامية ودولة الشريعة. وفي قلب العالم الإسلامي استبدلوا لساننا العربي المبين بألسن أعجمية تمارس الوظائف العليا للسان في الإدارة والاقتصاد والتعليم العالي ونسبياً في الإعلام. هكذا توقفنا عن إنتاج الحضارة.

إن العلمانية والعلمانيين في بلاد المسلمين يجب أن يكونوا جسراً للحوار بين الإسلام وحضارة الحداثة لا أن يقطعوا الموصول أو المشترك بينهما كما رأينا.

الخاتمة

الخلاصة العامة والقوية هي: أن مساحات الحوار بين الإسلام وفلسفة الحداثة القائدة اليوم للحضارة متنوعة وواسعة، لكن نجاح الحوار يفترض مواجهة تهديدين كبيرين هم التطرف الحاصل في العقل الثقافي المهيمن اليوم في الغرب. والتطرف الحاضر في مدرسة الخوارج (التكفيريين بتعبير العصر) وسط المسلمين، وإن الخطر منهما هو الجرعة المتزايدة للتمركز حول الذات والانغلاق الحاد الذي تتضمنها بنياتها المرجعية والفكرية، لذلك جاء الإسلام بجملة من الخصائص منها كونه دينا عالميا ومعنى ذلك إنكاره لأي شكل من أشكال التمركز على الذات، يقول الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري[40] (وإذا كان الإسلام دينا عالميا فإنه في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعني أيضا " المركزية الدّينية"، التي تريد العالم دينا واحدا، فهو ينكر هذه المركزية، عندما يرى في **تعددية الشرائع الدّينية سنة من سنن الله في الإجتماع الدّيني**، لا تبديل لها ولا تحويل لقوله تعالى **(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن لبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات)، (ولو شاء ربك لجعل النّاس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)**. ولكي ينجح الحوار الحضاري علينا التعاون على صياغة ميثاق يتضمن قواعد الحوار، هذه بعضها:

- الانطلاق من **مبدأ التعدد في الهوية الحضارية** باعتبارها اعتزاز بالخصائص وعدم الرضا عند تغييرها.
- الانطلاق من مبدأ التسوية التاريخية الواقعية بين الحضارات فالغرب واقع حي والصحوة الدّينية واقع حي.
- الانطلاق من مفردة الخصوصيات والتعددية الحضارية والتنوع في مسارات تاريخ البشرية.
- الانطلاق من مفردة الانفتاح الحضاري كشرط لنيل بعض الكونية أو كلها.
- الانطلاق من مفردة وجود البعد الكوني في كثير من الخصوصيات.
- الانطلاق من مفردة أن الحوار مدخل للمنفعة الحضارية المتبادلة.
- الانطلاق من مفردة التدافع الحضاري مصلحة عظمى والتدافع المسلح مفسدة عظمى. والله أعلم

الهوامش:

1- أيريل و ول ديورانت، دروس التاريخ ص: 89، ترجمة وتقديم: علي شلش الطبعة الأولى، 1993، دار سعاد الصباح- الكويت.

2- انظر على سبيل المثال لا الحصر المراجع الآتية: هيلين إيليربي، **الجانب المظلم في التاريخ المسيحي**، ص:69 - 109، الطبعة الأولى،2005، دار قتيبة للطباعة والنشر. ووليام الصوري، **الحروب الصليبية**، ج2 /ص: 110، ترجمة وتقديم: حسن جبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1955. ومحمد العروسي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، ص: 27، الطبعة الأولى، 1374هـ/1974م، دار الكتب الشرقية.

3- مونتجمري وات، الإسلام و المسيحية في العالم المعاصر، ص: 215-216، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

4- أ.ل. رانيلا، الماضي المشترك بين الغرب والعرب، ص: 10، ترجمة: نبيلة إبراهيم، مراجعة: فاطمة موسى، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 241، يناير/ كانون الثاني، 1999.

5-ديبتر سانغاس، الصدام داخل الحضارات: التفاهم بشأن الصراعات الثقافية، ص:164، ترجمة: شوقي جلال، الطبعة الأولى،/1429هـ/2008، دار العين للنشر، أبوظبي.

6- جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا ص: 30، تقديم وتعليق: محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر، نوفمبر 1999.

7- خورشيد أحمد، الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي، ضمن(الإنسان ومستقبل الحضارة: وجهة نظر)، ص:615، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، عمان، الأردن، 1944.

8- روجيه جارودي، حوار الحضارات، ص: 10، تعريب: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، لبنان.

9- أحمد المفتي، الأديان والنظام العالمي لحقوق الإنسان، ص:111، مجلة العدل، العدد الثامن، السنة الثامنة.

10- هانس، بيتر مارتن، هارالد شومان، فخ العولمة، ص:25، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، العدد:238، أكتوبر 1998.

11- انظر، كولن ولسون، سقوط الغرب، ص: 35، ترجمة: أنيس حسن، الطبعة الأولى، 1971، دار الآداب.

12-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج2/ص: 355، تفسير الآية 220 من سورة البقرة، ط1984، الدار التونسية للنشر-تونس. قال رحمه الله" وَأَيًّا مَا كَانَ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّظَرَ فِي مَصَالِحِ الْأَيْتَامِ مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فِي حِفْظِ النِّظَامِ ..."

انظر أيضا كتاب، إسماعيل الحسني، مقاصد الشريعة عند الطاهر بن عاشور، ص:97، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

13- سورة الحجرات:12

14- سورة البقرة:142

15- سورة المائدة:7

16- سورة العنكبوت:45

17- سورة البقرة: 255

18- سورة النحل:10

19- تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ص: 7، ترجمة: منى سلام، مراجعة: سمير سرحان، أكاديمية الفنون، القاهرة.

20–انظر محاورة ريموند وليامز لجورج شتاينر في كتابه: طرائق الحداثة : ضد المتوائمين الجدد،ص:249، ترجمة: فاروق عبد القادر، مراجعة: فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة، العدد:246، يونيو 1999.

21– هيلين أشتون، إنسان عصر الإقطاع، ص: 205، ترجمة: عبد الله الوافي، الطبعة الأولى، 2002، المركز القومي للترجمة والنشر، القاهرة.

22– روجيه جارودي، حوار الحضارات، ص: 25.

23 – إنجيل متى، الإصحاح 22، العدد: 30. انظر، إنجيل برنابا، نهاية الفصل31 منه. قلت: ليس في هذا النص أي دلالة على الفصل بين الديني والدنيوي بل على العكس من ذلك. لأن السياق الذي وردت فيه هذه المقولة الشهيرة في المسيحية كدلالة على روحانية الديانة وابتعادها عن كل ما هو دنيوي ليؤكد على دنيوية رسالتها وعلى مدى اهتمام السيد المسيح عليه السلام بالشأن العام و لتوضيح هذه الفكرة سأسوق من إنجيل (متّى) نص السياق كما هي واردة فيه، يقول (متّى): "اجتمع الفريسيون والهيروديسيون ودسوا على يسوع رجلاً ليصطادوه بكلمة، فقال له الرجل: يا معلم، قد علمنا أنك محق، وأن طريق، الله بالحق تعلم، وأنك لا تبالي بأحد ولا تعمل لوجه إنسان، فقل لنا **هل نعطي الجزية لقيصر أم لا؟** فعلم يسوع سرّهم وخاف شرّهم، فقال: يا مراؤون إنما جئتم لتجربوني **أدوا ما لقيصر لقيصر وما لله** – لله" وهذا النص يدل دلالة واضحة على المواطنة الصالحة للمسيح وطاعته لأولياء الأمر بفرضه أداء الضرائب لهم وذلك من أجل الحفاظ على استمرارية الدولة و**تأمينا المجتمع الإسرائيلي من بطش جبابرة الرومان الوثنيين** وهذا في الواقع هو جوهر السياسة ومعدن الكياسة، وما السياسة إلا رعاية المصالح و درء المفاسد، كيف لا والمسيح الحق ناطق في تصرفه هذا بالوحي الإلهي وقوله مبني على المرجع الديني الذي تلقاه بالوحي من ربنا الذي في السماوات جل في علاه لذلك قالوا في تفسير هذا النص فيما يسمى بالتفسير التطبيقي للكتاب المقدس الذي ألفه أكثر من خمسة وعشرين ومن كبار علماء اللاهوت المسيحي، ص: **690**– المطبعة الإكليريكية–قبرص، الطبعة الأولى،1988، **(فانتماؤنا للدولة يقتضينا دفع الأموال للخدمات والمنافع التي نتمتع بها وانتماؤنا = لملكوت السماوات يقتضينا أن نقدم لله ولاء نفوسنا وطاعتها)**، وبالتالي فالخضوع للدولة وتجنب الفتن، تعليم من تعاليم السيد المسيح ومن السياسة النبوية، لتستقيم الحياة فلا دليل لمن يستند على هذه الآية – والتي نشك بنسبتها حسب شواهد كثيرة لنبي الله المسيح عليه السلام– في إقرار شرعية العلمانية دينيا إذ ليس ذلك من منطوق الإنجيل ولا من فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام والله تعالى أعلم وأجل.

24– سورة آل عمران:158

25– سورة النساء:58

26– توبي.أ.هف، فجر العلم الحديث: الإسلام. الصين. الغرب، ص:143، ترجمة: محمد غصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 260، أغسطس2000، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

27–المرجع السابق، ص:143.

28– المرجع السابق ، ص:140.

29– نقلا عن توبي.أ.هف، فجر العلم الحديث: الإسلام. الصين. الغرب ، ص:140.

30– سورة النور:54

31– أخرجه الطبراني في الأوسط، ج245/4، رقم: 4096، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، 2002، دار الكتب العلمية. وهو **حديث صحيح لغيره**، انظر صحيح الجامع الصغير للشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، تحت رقم: 3913، تعليق: زهير الشاويش، الطبعة الثالثة، 1990، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر. وسلسلة الأحاديث الضعيفة، ج1/ص: 600.

32- سورة العلق:1

33- سورة الزمر:8

34- سورة النحل:43

35- سورة القمر:16

36- سورة آل عمران:190

37- سورة الأنفال:21

38- أخرجه أحمد في المسند، برقم: 3057 وأبوداود في السنن، باب في الجروح التيمم، ج1/ص: 145، رقم:336، وابن ماجة في السنن، كتاب الطهارة، ج1/ص: 362، رقم:572، سنن البيهقي، باب الجرح إذا كان في بعض جسده دون بعض، رقم:1015، قال محققوا المسند: **(حسن وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين)**، انظر المسند، ج1/ص:330.

39- سورة الغاشية:16-20

40- عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص: 80، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، دار الشروق.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع المدني

1. الأديان والنظام العالمي لحقوق الإنسان، أحمد المفتي،مجلة العدل، العدد الثامن، السنة الثامنة.
2. الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، مونتجمري وات، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
3. الأوسط، الطبراني، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، 2002، دار الكتب العلمية.
4. إنسان عصر الإقطاع، هيلين أشتون، ترجمة: عبد الله الوافي، الطبعة الأولى، 2002، المركز القومي للترجمة والنشر، القاهرة.
5. الإنسان ومستقبل الحضارة من منظور إسلامي، ضمن(الإنسان ومستقبل الحضارة: وجهة نظر)، خورشيد أحمد،مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، عمان، الأردن، 1944.
6. أوهام ما بعد الحداثة، تيري إيجلتون، ترجمة: منى سلام، مراجعة: سمير سرحان، أكاديمية الفنون، القاهرة.
7. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط1984، الدار التونسية للنشر-تونس.
8. الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي،الطبعة الأولى،2005، دار قتيبة للطباعة والنشر.
9. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي، الطبعة الأولى، 1374هـ/1974م، دار الكتب الشرقية.
10. الحروب الصليبية، ووليام الصوري، ترجمة وتقديم: حسن جبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1955.
11. حوار الحضارات، روجيه جارودي، تعريب: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، لبنان.
12. الحوار من أجل التعايش، عبد العزيز بن عثمان التويجري، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، دار الشروق.
13. دروس التاريخ أيريل و ول ديورانت، ترجمة وتقديم: علي شلش الطبعة الأولى، 1993، دار سعاد الصباح-الكويت.
14. روضة المحبين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: حامد الطاهر، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م، دار الفجر للتراث.
15. سقوط الغرب، كولن ولسون،ترجمة: أنيس حسن، الطبعة الأولى، 1971، دار الآداب.
16. سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء في الأمة، محمد بن نوح النجاتي الألباني، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة، 1992، مكتبة المعارف، الرياض.
17. سنن ابن ماجة، أبوعبد الله محمد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت.

18. سنن ابي داود، أبوداود سليمان بن الشعث، إعداد وتعليق:عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، الطبعة الأولى، 1388هـ، دار الحديث، بيروت.
19. سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، 1996.
20. سنن الدارقطني، علي بن عمر الدارقطني، تحقيق:شعيب الأرنؤوط وحسن عبد المنعم شلبي وعبد اللطيف جرز الله وأحمد برهوم، الطبعة الأولى،1424هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
21. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين الخرساني البيهقي، تحقيق: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.
22. صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، تحت رقم: 3913، تعليق: زهير الشاويش، الطبعة الثالثة، 1990، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.
23. الصدام داخل الحضارات: التفاهم بشأن الصراعات الثقافية، دبيتر سانغاس، ترجمة: شوقي جلال، الطبعة الأولى،/1429هـ/2008، دار العين للنشر، أبوظبي.
24. طرائق الحداثة : ضد المتوائمين الجدد، ريموند وليامز، ترجمة: فاروق عبد القادر، مراجعة: فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة، العدد:246، يونيو 1999.
25. العهد الجديد، دار المشرق، بيروت، توزيع المكتبة الشرقية، معيات الكتاب المقدس في المشرق، الطبعة الثالثة، بيروت
26. إنجيل برنابا، ترجمة: خليل سعادة، تحقيق:سيف أحمد فاضل، دار القلم، الطبعة الثانية،1983، الكويت.
27. فجر العلم الحديث: الإسلام. الصين. الغرب، توبي.أ.هف،ترجمة: محمد غصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 260، أغسطس2000، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
28. فخ العولمة، هانس، بيتر مارتن، هارالد شومان، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم: رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، العدد:238، أكتوبر 1998.
29. مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا جوتفرايد كونزلن، تقديم وتعليق: محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر، نوفمبر 1999.
30. الماضي المشترك بين الغرب والعرب، أ.ل. رانيلا، ترجمة: نبيلة إبراهيم، مراجعة: فاطمة موسى، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 241، يناير/ كانون الثاني، 1999.
31. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ابن حنبل أحمد بن محمد الشيباني، تحقيق: أبو عاصم، حسن بن قطب، وآخرون، الطبعة الأولى،1997، مؤسسة قرطبة. القاهرة، مكتبة الخراز، جدة.

الثورة الجزائرية من خلال الصحافة التونسية (جريدة العمل أنموذجا)

د. رضوان شافو، جامعة الشهيد حمّه لخضر بالوادي، الجزائر

مقدمة:

لقد جمعت بين المنطقتين الجزائر وتونس أواصر الصداقة وعمق الصلات الحضارية عبر العصور التاريخية القديمة والحديثة والمعاصرة، وذلك بحكم الروابط الدينية والاجتماعية والاقتصادية، والتقارب الجغرافي حيث شهدت العلاقات بينهما تعايشا وانفتاحا وتضامنا كبيرا بين الشعبين،ويتجلى ذلك بوضوح خلال الفترة الاستعمارية، وعلى الخصوص الثورة الجزائرية، حيث أعطى النشاط الصحفي في تونس اهتمام كبير للثورة الجزائرية، من أجل فضح السياسة الاستعمارية، وتعبئة الرأي العام التونسي بعدالة القضية الجزائرية،ولقد استطاعت بعض الأقلام التونسية أن تجاهر الاستعمار الفرنسي وبلهجة حادة بفضح سياسته الاستعمارية وأساليبه القمعية ضد الشعب الجزائري، متجاهلين ما يحيط بهم من مخاطر، آملين من وراء هذا التحدي تحرر واستقلال الجزائر من الاستعمار الفرنسي،ومن ابرز الصحف التونسية التي تفاعلت صحفياً مع انتصارات الثورة الجزائرية التحريرية نجد: جريدة الإرادة، والبلاغ، والاستقلال، واليقضة، والطليعة، والعمل،...وغيرها من الجرائد، ومن هذا المنطلق اخترنا "جريدة العمل التونسية" لسان حال الحزب الحر الدستوري الجديد كنموذج للدراسة، والتي كانت من اكبر الجرائد المناصرة للثورة الجزائرية وداعميها حيث قامت بالدعاية لها في مختلف المجالات سياسيا وإعلاميا وعسكريا، وفي سنة 1957 خصصت ركنا يهتم بالقضية الجزائرية تحت عنوان "صوت الجزائر" يكتبه صحفي باسم مستعار"رابح"، بالإضافة إلى ذلك تخصيص صفحات كاملة للحديث عن الجزائر سياسيا وعسكريا وإصدار أعداد خاصة بالثورة الجزائرية.

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام الإعلام العربي عموما والتونسي خصوصا بالقضية الجزائرية يعود إلى انتصارات الثورة الجزائرية في بداية انطلاقها، وتطور تنظيماتها الداخلية والخارجية جعلها تفرض نفسها كمستلهم للشعوب العربية بعد تحدِّيها للحلف الأطلسي آنذاك ، وأن تصبح محل اهتمام كل الشعوب المستضعفة والخاضعة للاستعمار الأجنبي ، واستطاعت أيضا التعبير عن بعدها المغاربي والقومي العربي من خلال التجاوب الكبير الذي أبدته معظم الدول العربية مدعّمة من طرف شعوبها الباحثة عن الانعتاق والحرية من ربقة الاستعمار الصليبي الغربي،بل يمكن القول أن الثورة الجزائرية كانت لبنَّة أساسية في توحيد الصف العربي، واستطاعت إلى حد كبير لم شمله ولو سياسيا، لذلك كان التجاوب كبيرا معها لدرجة جعلت بعض الحكومات العربية آنذاك تتمرد على النظام الغربي،بل وفي غالب الأحيان تتحداه من أجل هذه الثورة وتتوحد من أجل القضية الجزائرية[1].

غير أن السلطة الاستعمارية كعادتها التجأت إلى الوسائل القمعية لكَبتْ وخنق أصوات الصحف والصحافيين،وذلك بمصادرة الصحف، ووضع العراقيل أمام عمليات التوزيع والرواج، حيث تم توقيف جريدة العمل التونسية العديد من المرات،وسجن صُحفيِّيها وكُتَّابِها ،ولعل أهم ما كان يقلق السلطة

الاستعمارية في اتجاه هذه الصحافة هو تركيزها على نقد سلوك الإدارة نحو العنصر الأهلي ارتباطها بالجمهور،حيث أصبحت جزءً من تقاليده اليومية ومشاغله الدائمة[2]، ويذكر الدكتور محمد القورصو بأن الصحف التونسية كانت هي الأكثر مصادرة من طرف السلطات الفرنسية بحكم كثرتها ورواجها وسهولة دخولها إلى الجزائر خاصة الزهرة والأسبوع والإرادة، والهلال.والعمل ،الإصلاح...الخ،ورغم هذه العراقيل والصعوبات إلا أن هذه الجريدة عملت دورا كبيرا في التعريف بالقضية الجزائرية والعمل على تدويلها في المحافل الدولية، ونشر الوعي الثقافي والسياسي لدى الشعب الجزائري، وعملت على تقويته ودعمه ضد غطرسة السياسة الاستعمارية الهادفة إلى طمس معالم الهوية العربية والإسلامية للمجتمع الجزائري، وفضح وتعرية أساليب الدعاية الاستعمارية المغرضة أمام الرأي العام المحلي والعالمي.

أولا /التعريف بجريدة العمل:

هي أول جريدة للحزب الحر الدستوري الجديد التونسي، وقد تأسست سنة 1929 من طرف نخبة من شباب الحزب الحر الدستوري التونسي، ومن بعض الشباب الذين درسوا في فرنسا، وقد كانت تسمى قبل ذلك بجريدة "صوت التونسي" التي صدرت سنة 1928، قبل أن تتحول إلى اسم "العمل التونسي، وكان من ابرز أقلامها آنذاك محمود الماطري، والطاهر صفر،البحري قيقة، والحبيب بورقيبة[3]، بينما يذكر الدكتور حسن الحبيب اللولب في كتابة" التونسيون والثورة الجزائرية" إلى القول بأن هذه الجريدة قد صدر عددها الأول في 1 جوان 1934م، وهي جريدة نصف أسبوعية، وأصبحت يومية بداية من سنة 1955، مضمونها سياسي إخباري،ونتيجة لمعارضتها للسياسة الاستعمارية في القطر المغاربي عطلتها سلطات الاحتلال الفرنسي بداية من 1 سبتمبر 1934، ثم عادت للصدور يوم 8 ماي 1937 اثر عودة القادة المنفيين من الجنوب، واحتجبت بعد يوم 7 أفريل 1938،وأحداث 8 أفريل 1938، وعوضتها"إفريقيا الفتاة" ثم " الحرية"، وعادت جريدة العمل للصدور يوميا بداية من يوم 25 اكتوبر 1955،وكانت توزع في عشرين ألف نسخة، ، كما كانت تقوم بالدعاية للندوات الصحفية التي تعقدها جبهة التحرير الوطني، وفي سنة 1988، تحولت الجريدة إلى اسم "الحرية[4]".

ثانيا/ جوانب من الدعاية الإعلامية لبعض قضايا الثورة الجزائرية:

إن دراسة محتوى جريدة العمل التونسية يحتاج إلى صفحات كثيرة، ووقت طويل لدراسة كل القضايا المتعلقة بالحركة الوطنية والثورة الجزائرية، ولا يمكننا التطرق بالتحليل لمختلف المواضيع التي تناولتها الصحيفة طيلة سنوات صدورها،ولكننا في هذه المقتضبة التاريخية سنحاول التركيز على بعض المقالات الإعلامية خلال الثورة كعينة للدراسة والتي كان لها وقع كبير على الرأي العام المحلي والعالمي:

1- القضايا السياسية:

1-1- موقف الحزب الحر الدستوري التونسي من اندلاع الثورة التحريرية: من ابرز القضايا السياسية التي تناولتها جريدة العمل التونسية هو موقف الحزب الحر الدستوري التونسي من اندلاع الثورة التحريرية

في أول نوفمبر 1954، حيث كتب الصحيفة في عددها الصادر في 18 نوفمبر 1955، وفي الصفحة الأولى عنوانا لذلك تحت اسم" بيان المكتب السياسي للحزب الدستوري التونسي"، وذلك بعدما عقد المكتب السياسي للحزب مؤتمرا بصفاقس أيام 15 16و17و18 نوفمبر 1955 ناقش فيه تطورات القضية الجزائرية التي اصدر فيها لائحة خاصة بالجزائر تضمنت تحية للشعب الجزائري مع التأييد والدعم المطلق للشعب الجزائري وعن حقه في تقرير مصيره، بالإضافة إلى التنديد بالقمع الاضطهاد الاستعماري ضد الشعب الجزائري، والدعوة إلى وضع حد للحرب الاستعمارية الناشئة في الجزائر،ودعوة الحكومة التونسية إلى توضيح موقف الشعب التونسي من الأزمة الجزائرية لدى وزارة الفرنسية لأنه يعتقد انه لا هدوء ولا استقرار في تونس طالما بقي الشعب الجزائري الشقيق في محنته[5].

كما لم تفوت جريدة العمل التونسية ذكرى احتلال فرنسا للجزائر في 5 جويلية 1830، ونتيجة لاستمرار عمليات القمع والإبادة الجماعية ضد الشعب الجزائري، تناولت الجريدة في عددها الصادر يم 6 جويلية 1956 بشيء من التفصيل البيان الذي أصدره الحزب الحر الدستوري التونسي بمناسبة ذكرى احتلال الجزائر من طرف فرنسا، ومما جاء فيه :" في هذا اليوم الذي احتلت فيه القوات الفرنسية الجزائر يندد الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي بالحرب الاستعمارية القاسية والرامية إلى غزو القطر الشقيق من جديد ويشهر بالاعتداءات المتوالية على الأرواح والأرزاق والمدن والقرى الآمنة وما تجره من آلام وخراب،...ويعرب عن تضامن الشعب التونسي الكامل مع الشعب الجزائري الشقيق في محنته ويلاحظ أن استمرار الحرب في الجزائر خطر على السلم في شمال إفريقيا والعالم وان بقاء النظام الاستعماري تهديد دائم لاستقلال شمال إفريقيا والعالم..."[6].

1-2- النشاط الطلابي الزيتوني : في إطار نشاط الطلبة التونسيين والجزيرتين الزيتونيين، تطرقت الجريدة إلى مسالة مهمة، حاولت بها فرنسا ضرب الوحدة بين الأشقاء الجزائريين والتونسيين، وذلك عن طريق تجنيد الشباب التونسي في صفوف الجيش الفرنسي للقضاء على الثورة الجزائرية، الا أن جريدة العمل لعبت دورا كبيرا في فضح هذه السياسة وتنوير الرأي العام التونسي بخطورة المؤامرة الاستعمارية، وذلك من خلال تغطية المؤتمر الزيتوني الذي عقد في 1و2و3 نوفمبر 1955 من اجل التعريف بالقضية الجزائرية ومناصرتها ودعمها،ومعارضة تجنيد الشباب التونسي لمقاتلة إخوانهم في الدين بالجزائر حسب ما نصت عليه اللائحة السياسية للمؤتمر الزيتوني، والتي نشرتها الجريدة في عددها الصادر يوم 6نوفمبر 1955 [7].

1-3- المفاوضات الفرنسية الجزائرية: في إطار بداية الاتصالات السرية بين الحكومة الفرنسية وقيادة الثورة الجزائرية سنة 1956، تطرقت جريدة العمل في عددها الصادر في 26 جوان 1956، وتحت عنوان " بيان المجلس الملي للحزب الدستوري" إلى هذه الاتصالات عن طريق لائحة أخرى خاصة بالجزائر، وذلك على اثر اجتماع المجلس الملي للحزب يومي 23 و24 جوان 1956 بتونس وقد جاء في الجريدة

ما يلي:" يُحيّ الكفاح المجيد الذي يقوم به الشعب الجزائري الشقيق في سبيل حريته واسترجاع سيادته وهو يعرب عن إعجابه بالتضحيات التي يبذلها هذا الشعب من اجل المثل العليا ويأمل أن تجنح فرنسا للسلم وتعترف للشعب الجزائري الشقيق بحقه في تسيير أموره بنفسه وان تسلك في حل المشكلة الجزائرية الطرق السلمية بالتفاوض مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري الشقيق"[8].

1-4- اختطاف طائرة الوفد الجزائري المتجه نحو تونس: من القضايا السياسية التي أحدثت هزَّة كبيرة في العالم العربي والإسلامي وأثَّرت سلباً على الوحدة المغاربية، حاثة اختطاف طائرة قادة الثورة الجزائرية في الخارج من طرق القوات الجوية الفرنسية وهم متوجهين من الرباط إلى تونس في 22 أكتوبر 1956م، حيث عبرت الحكومة التونسية على لسان مجلسها التأسيسي ، وعدة هيئات سياسية ومنظمات عمالية عن تضامنها مع الشعب الجزائري،واستنكارهم لاختطاف الوفد الجزائري، حيث تناولت عدة صحف تونسية بإسهاب كبير عن هذه الحادثة، ومنها جريدة العمل التونسية التي حضرت اجتماع ممثلو المنظمات القومية مثل الحزب الحر الدستوري الجديد التونسي،والاتحاد العام التونسي للشغل،واتحاد الصناعة والتجارة والاتحاد القومي للمزارعين التونسيين، ونشرت بيان الاجتماع في عددها الصادر يوم 24 أكتوبر 1956، ومما جاء فيه :" ...إنهم يُشهرون فيه بعمل السلطات الفرنسية المشين والخارج عن القانون الدولي والمنافي لكل مروءة،وذلك بإلقاء القبض غدرا على الزعماء الجزائريين الذين كانوا خارج المناطق الجوية الفرنسية قادمين إلى مؤتمر السلم والمفاوضة،وخاصة أنهم كانوا في ضيافة تونس مراكش وحمايتها، إذ يُعتبر استفزاز شعوب شمال إفريقيا عداوة سافرة تهدد استقلال تونس ومراكش، وطلب الممثلون من الشعب القيام بإضراب عام ليعبر عن إيمانه بانتصار الحق في الجزائر.."[9].

كما نشرت الجريدة أيضا في عددها الصادر يوم 26 أكتوبر 1956 بيانا للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة يندد بحادثة اختطاف طائرة الزعماء الخمسة جاء فيه مايلي :"...بعد التأمل في الوضع الجديد الذي نتج عن عمل القرصنة والغدر الذي عمدت إليه السلطات الفرنسية لاختطاف ضيوف تونس والمغرب يرى أن هذا العمل العدائي الموجه للشعبين من شانه أن ينتج عواقب وخيمة في العلاقات الفرنسية وشمال إفريقيا،وهو يؤكد على الحكومتين إزاء هذا العدوان ويحثهما على اتخاذ جميع الوسائل الكفيلة لحماية كرامة امة المغرب العربي الكبير تخليص الجزائر الشقيقة من الاستعمار الفرنسي وتوحيد الأقطار الثلاثة[10] ".

وفي نفس القضية تطرقت الجريدة إلى معاناة الزعماء الخمسة المختطفين في السجون الفرنسية،وإضرابهم عن الطعام بسبب الممارسات القمعية ضدهم والمعاملات اللانسانية المخالفة لحقوق الإنسان، حيث قامت الجريدة بتغطية اجتماع نظمه الاتحاد العام التونسي للشغل بالتنسيق مع الاتحاد العام للعمال الجزائريين يوم 31 أكتوبر 1961 بمناسبة الذكرى السابعة لاندلاع الثورة التحريرية، ونشرت بيان الاجتماع في عددها الصادر يوم 16 نوفمبر 1961، ومما جاء فيه ما يلي:" ..في الوقت العصيب يتعرض عشرات الآلاف من إخواننا الجزائريين إلى خطر جراء تعنيف السلطات الفرنسية وسياستها

التعسفية المنافية لأبسط حقوق الإنسان والكرامة البشرية، مما أدى بالمساجين الجزائريين وفي مقدمتهم الوزراء الخمسة إلى إعلان إضراب الجوع اللانهائي احتجاجا على المعاملة غير القانونية التي تأباها المواثيق الدولية، وللتشهير بهذه السياسة الإجرامية وتضامنا مع إخواننا الجزائريين يدعو الاتحاد العام التونسي للشغل كافة الشغالين إلى الإضراب عن العمل يوم الخميس 16 نوفمبر 1961.."[11].

1-5- الإعلان عن توقيف إطلاق النار: لقد تناقلت مختلف وسائل الإعلام التونسية خبر الإعلان عن توقيف إطلاق النار بين جيش التحرير الجزائري والجيش الفرنسي على اثر انتهاء المفاوضات الرسمية النهائية بين الطرفين،والتي انطلقت يوم 7 مارس وانتهت يوم 18 مارس 1962، بالفرح والابتهاج للشعب الجزائري الذي عان ويلات الاستعمار الفرنسي طيلة 132 سنة من المقاومة والكفاح العسكري،وخرجت مختلف فئات المجتمع التونسي، ومختلف الأحزاب السياسية والمنظمات القومية تحتفل بانتصار الجزائريين على العبودية والاستغلال، وقد عبرت جريدة العمل التونسية في صفحاتها الأولى عن فرحة الشعب التونسي في عدة أعداد، كان أولها العدد الصادر يوم 19 مارس 1962،والذي تناولت فيه فرحة الجماهير التونسية التي خرجت في مظاهرت شعبية وعفوية تهتف بحياة الجزائر حرة مستقلة[12].

وعلى المستوى الحكومي ذكرت جريدة العمل التونسية أن الرئيس الحبيب بورقيبة اتصل برئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة وقدم له التهاني بمناسبة توقيف إطلاق النار،بعده قام بزيارة تهاني إلى مقر إقامته، معبرا له عن فرحة التونسيين مع الشعب الجزائري،ويتجلى من خلال التصريح الذي نشرته الجريدة في عددها الصادر يوم 19 مارس 1962،ومما جاء فيه ما يلي:" إنه ليوم عظيم في تاريخ المغرب العربي هذا الذي أعلن فيه وقف القتال بعد كفاح بطولي مرير دام أكثر من سبع سنوات شنه الشعب الجزائري على قوى الظلم والطغيان...،ونحن نبتهج ببشرى استقلال اختنا الجزائر نعتقد أن استقلالها سيكون فاتحة لعهد تعاون بيننا جميعا في نطاق المغرب العربي الكبير وتعاون جميع أنصار الحرية والسلام في العالم من اجل بناء مستقبل زاهر ومن اجل السير بشعوبنا نحو العزة والحرية والتقدم..."[13].

2- القضايا العسكرية:

2-1- إدخال السلاح عن طريق الحدود :من المتعارف عليه في الكتابات التاريخية وحسب الشهادات الحية للمجاهدين أن اكبر صعوبة عرفتها الثورة التحريرية في عامها الأول هو صعوبة إدخال السلاح عبر الحدود الجزائرية الشرقية والغربية، وبالتالي كان لابد على دول الجوار تقديم الدعم اللوجيستي لتسهيل عملية إدخال السلاح إلى الجزائر عن طريق المناطق الحدودية ليصل بدوره إلى المناطق الداخلية،على الرغم من أن السلطة الاستعمارية حاولت خنق الثورة التحريرية وعزلها عن الخارج بفرض رقابة صارمة عن الحدود، وإقامة المناطق المحرمة، وإقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الجزائرية الشرقية والغربية، ورغم ذلك استطاعت قيادة الثورة تجاوز هذه العقبات وتحقيق العديد الانتصارات على جيش الفرنسي.

وقد تناولت جريدة العمل التونسية مسالة تسليح الثورة الجزائرية عبر الحدود الليبية والتونسية في عدة أعداد، مع الإشارة إلى ردود الفعل الفرنسية على قوافل التسليح التي كانت تدخل إلى الجزائر عبر تونس، فقد أشارت الجريدة في عددها الصادر يوم 7 ديسمبر 1956 بان الأسلحة التي تأتي إلى الجزائر من مصر عبر البر تدخل إلى الجنوب التونسي والمناطق المجاورة لشط الجريد، وأما الأسلحة التي تصل عن طريق البحر فتشحن في سيارات عسكرية وتحملها إلى جهة الكاف[14]، وهي ذات الإشارة في العدد الصادر يوم 22 فيفري 1958 في قولها :" إن كميات من الأسلحة تتسرب من ليبيا والمواقع الشرقية عبر الحدود"[15].

وفي ذات السياق عبرت الجريدة عن امتعاض الفرنسيين من المساعدات العسكرية التونسية التي كانت تقدم للثوار الجزائريين، وعن قلق فرنسا من السياسة التي ينتهجا بورقيبة في مساعدة الثورة الجزائرية بالسلاح، حيث ذكرت الجريدة في عددها الصادر يوم 16 نوفمبر 1957: "...إن الثوار الجزائريين المسلحين أصبحوا يعبرون ويدخلون الحدود بكل حرية وأمان واطمئنان ويتدربون في تونس، ويتداوون ثم يعدون إلى الجزائر، وان بورقيبة يتناول أسلحة بيد ويسلمها بيد أخرى إلى الثوار الجزائريين..."[16]، وفي عدد آخر ذكرت الجريدة حسب تصريح بورقيبة لوكالة الأنباء الشرق الأوسط قائلا فيه:" ...إني لن أعطل حركة تهريب السلاح نحو الثوار الجزائريين"[17].

وفي ذات السياق لما عجزت السلطة الاستعمارية على خنق الثورة وعزلها عن الخارج، وتوقيف عمليات الإمداد بالسلاح عن طريق إنشاء المناطق المحرمة وإقامة الأسلاك الشائكة، التجأت إلى استخدام بعض العملاء التونسيين لعرقلة عمليات إدخال السلاح إلى الجزائر، الا أن بعض الأفراد في الحكومة التونسية تجندوا لكشف هؤلاء العملاء وتهديدهم بالقتل في حالة إذا ما ثبت التهمة عليهم، وهذا ما أشارت إليه جريدة العمل التونسية من خلال تصريحات القيادي صالح بن يوسف في عددها الصادر يوم 15 فيفري 1959، والذي رفض المساومة على السلاح الجزائري، ومما جاء في تصريحاته لإحدى وكالات الأنباء:" بأنه أعطى أوامر بقتل حسين بوزيان، لأنه يتعرض لقوافل التسليح الجزائرية"[18].

2-2- انخراط التونسيين في صفوف جيش التحرير الوطني: على الرغم من احتلال تونس وفرض الحماية عليها سنة 1881م،إلا أن أواصر الأخوة والتضامن بين الشعبين بقيت مستمرة من خلال التنسيق بين حركات المقاومة الوطنية مند منتصف القرن 19م ويتجلى هذا بوضوح من خلال دعم شيخ الطريقة الرحمانية بنفطة الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز لثورة بن غداهم عام 1864م، ومع بداية القرن 20م تضامنت وتعاونت الحركات السياسية بمختلف تشكيلاتها بين البلدين وحاولت أن تنسق مقاومتها السياسية ضد الاستعمار الفرنسي، وذلك مثلما حدث سنة 1919م أثناء عقد مؤتمر الصلح، حيث تشكلت لجنة مشتركة جزائرية – تونسية للمطالبة باستقلال البلدين،وفي إطار التحضير للثورة المسلحة حرصت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية على تنسيق العمل العسكري ميدانيا بين البلدين، وأرسلت الأمين

دباغين إلى تونس للتباحث مع المناضلين التونسيين في أمر تشكيل منظمة سرية في تونس تنسق عملها مع المنظمة السرية الجزائرية، بعد اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954م، حيث تلاحمت دماء أبناء الشعبين جنبا إلى جنب خلال مرحلة الكفاح التحرري ضد الاستعمار الفرنسي، حيث أبدى التونسيين تضامنا عريضا مع ثورة الجزائر وقدموا لها أشكالا مختلفة من الدعم والمؤازرة[19]،وفي هذا الإطار شارك العديد من التونسيين إلى جانب إخوانهم الجزائريين في عدة عمليات عسكرية ضد القوات الفرنسية سواء على مستوى التراب الوطني أو التراب التونسي بناءً على التنسيق العسكري بين القيادة التونسية وقيادة جبهة التحرير الوطني، وهذا ما ذكرته جريدة العمل التونسية على لسان الرئيس بورقيبة في عددها الصادر يوم 3 جويلية 1958:"..إذا ما كانت الثورة الجزائرية في حاجة إلى متطوعين تونسيين فلن امنع التونسيين من الذهاب إلى الجزائر لخوض معركة التحرير إلى جانب إخوانهم..."[20]،وهو نفس الطرح أشارت إليه جريدة الصباح في عددها الصادر يوم 4 مارس 1956 بقولها :" إن العمليات العسكرية كانت عديدة بتونس وتتجدد كل يوم وليست عمليات منعزلة إنما وراءها خطة عمل وتنسيق بين الثوار التونسيين وحركة التحرير الجزائرية"[21].

ونتيجة لانخراط التونسيين في صفوف جيش التحرير الوطني،استخدمت السلطة الاستعمارية للانتقام منهم عدة أساليب قمعية تنوعت بين الاختطاف والاعتقال والتعذيب والقتل،هو ما أشارت إليه الجريدة في أعدادها الصادرة خلال شهر سبتمبر 1956، فقد جاء في العدد الصادر يوم في 7 سبتمبر 1956 أن:" الجيش الفرنسي قام بخطف مواطنين تونسيين يوم 3 سبتمبر 1956 وساقوهم إلى مركز امني بالجزائر حيث قتلوا احدهم..."[22]، وفي ذات السياق ذكرت جريدة العمل التونسية :" إن طائرة فرنسية ألقت الصباح الباكر يوم 28 ماي 1957 قنابل على هنشير دويو الواقع ببوشابة قرب غار الدماء.."[23]، وفي عدد آخر ذكرت الجريدة أن الجيش الفرنسي واصل إمعانه في الاعتداء على المواطنين العزل بحجة حق التتبع وملاحقة الثوار الجزائريين، ومنها الاعتداء على منطقة عين الكرمة على الحدود الجزائرية التونسية حيث قتلت أربعة جنود من الجيش التونسي واختطفت اثنين وقادتهما إلى الجزائر[24].

2-3- أحداث ساقية سيدي يوسف 8 فيفري 1958:كان من نتائج الدعم التونسي للثورة الجزائرية هو قصف السلطات الاستعمارية لقرية ساقية سيدي يوسف الواقعة على الحدود الشرقية لجزائرية لتونس يوم 8 فيفري 1958، بحجة الرد على إطلاق النار الذي كان يتم على الطائرات التونسية من التراب التونسي، وهي في مهمة استطلاعية استكشافية حسب تصريحات الضباط الفرنسيين، وهذا ما أشارت إليه جريدة العمل التونسية في عددها الصادر في 9 فيفري 1958 بناءً على تصريحات جاك شابان دلماس وزير الدفاع والقوات المسلحة الفرنسية قائلاً :" إن طيارينا لم يقوموا بشيء عدا تطبيق حقهم الشرعي في الدفاع إزاء المدافع المضادة للطيران التي كانت توجه نيرانها من التراب التونسي، والتي لا يمكن التسامح معها نظرا إلى الأضرار التي لحقت بطيارتنا وطيارينا ووجب التأكيد من جديد بأن تونس أصبحت قاعدة

أساسية توجه منها العمليات المتكررة،والتي لولا تدخلاتها المتعددة لوضع حد للعمليات في الجزائر"[25]، لكن في حقيقة الأمر هو محاولة من السلطات الفرنسية لتوقيف الدعم العسكري والتأييد الشعبي التونسي للثورة الجزائرية، ولإرسال رسالة واضحة لكل الدول العربية المساندة والمساعدة للثورة الجزائرية بوجوب توقيف الدعم والمساندة،فحسب شهادة المجاهد العقيد الطاهر الزبيري والذي كان شاهدا على هذا الهجوم قائلا: " بأن هذه الأحداث أردا من خلالها العدو الفرنسي ضرب الدعم التونسي للثورة التحريرية، وزرع الخوف لدى الدول العربية للتخلي عن مساندتها للجزائر، لكون أن هذه المنطقة كانت موقعا للاجئين الجزائريين وجرحى ومعطوبي الثورة، غير أن ذلك زاد في دعم القضية الجزائرية على المستوى العالمي"[26].

وفي هذه السياق تناولت جريدة العمل التونسية هذه الأحداث بإسهاب كبير سواء كانت تبريرات السلطات الفرنسية على الاعتداءات، أو الإجراءات والمواقف التي اتخذتها الحكومتين التونسية والجزائرية من جراء هذه الاعتداءات، فكان أول تصريح للحكومة التونسية على هذه الاعتداءات قد نشرته الجريدة في عددها الصادر يوم 9 فيفري 1958 جاء فيه:" إن القوات الفرنسية قامت بانتهاك السيادة التونسية للمرة السابعة والعشرين بعدوانها على ساقية سيدي يوسف، وقد اقترفت يوم 8 فيفري أجرم اعتداءاتها،إذ سجل الأول منها في 9 جويلية 1956 وقد أسفرت الاعتداءات عن استشهاد مائة مدي من بينهم خمس نساء"،[27]، أما بخصوص موقف جبهة التحرير الوطني فقد نشرت بيانا تندد فيه ببشاعة ووحشية هذه الاعتداءات، وتتضامن مع الشعب التونسي، وقد نشرت الجريدة هذا البيان في عددها الصادر يوم 14 فيفري 1958، ومما جاء فيه مايلي:" إن جبهة التحرير تسجل السخط العالمي الذي أعقب العدوان الإجرامي على الساقية وتلاحظ أن الرأي العام الأممي المتأثر بهذا الحادث، قد اكتشف أخيرا طبيعة إنكار نتائجه الفاجعة وانه يمثل تهديدا مستمرا للسلام العالمي، وان جبهة التحرير الوطني تريد أن تذكر العالم بأن الاستعمار الفرنسي عندما قام بهذا العدوان الوحشي ضد الجمهورية التونسية قد ظن انه استطاع معاقبة الرئيس بورقيبة الذي بدأ يعرض وساطته من اجل إيقاف المأساة الجزائرية..."[28].

وبالفعل أن هذه الأحداث كشفت بشاعة جرائم الاستعمار الفرنسي وفضحت سياسته أمام الرأي العام العالمي، وأنتجت ردود فعل دولية عززت من عدالة القضية الجزائرية في المحافل الدولية، وهو ما يؤكده المجاهد العقيد الطاهر الزبيري في شهادته في الهجوم على منطقة ساقية سيدي يوسف، بأن هذه الأحداث أثارت عدة ردود أفعال دولية من الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، سويسرا، بالإضافة إلى تونس ومصر،وهو ما يعتبره مكسبا للثورة بعد إدخال القضية الجزائرية في محافل الأمم المتحدة، مما يعد هزيمة لفرنسا التي أشهدت العالم على جرائمها وبطشها،كما كانت هذه الجريمة ضربة قاضية لفرنسا التي أردت أن تتستر عن جريمتها بحجة أنها تدافع عن ذاتها الا أنها اعترفت بعد ذلك بخطئها بعد تلقيها عدة تنديدات من المجتمع الدولي بسبب هذا الانتهاك الصارخ للقانون الدولي[29].

الخاتمة:

ما يمكن قوله ومن خلال القضايا الثورة الجزائرية التي تناولتها جريدة العمل التونسية، بان هذه الأخيرة لعبت دورا كبيرا في دعم الثورة الجزائرية، واستطاعت أن تكون احد الأرقام الإعلامية في مواجهة الإعلام الاستعماري ودحض كل ادعاءاته المغرضة، وافتراءاته الكاذبة، وان توصل صوت الشعب الجزائري إلى المنابر الإعلامية الدولية،وتؤكد في المحافل الدولية ومن خلال أقلامها المخلصين والصادقين بعدالة القضية الجزائرية،كما يمكن القول بأن تخصيص صفحات خاصة بالثورة الجزائرية في جريدة العمل التونسية له أكثر من دلالة، أهمها التعبير عن عمق التضامن والتأيد الشعبي التونسي بمختلف إمكاناته ووسائله المتاحة لخدمة الشعب الجزائري.

الهوامش:

1. رضوان شافو، **أوراق بحثية في قضايا تاريخية**،منشورات مديرية الثقافة بالوادي، مطبعة الامال، 2015، ص 45.
2. خيرالدين شترة،**الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900– 1956**،الجزائر، دار البصائر،ج2، 2009، ص1509
3. الطاهر عبدالله،**الحركة الوطنية التونسية: رؤية شعبية قومية جديدة 1830– 1956**،منشورات دار المعارف للطباعة والنشر،تونس، ص 58.
4. حبيب حسن اللولب، **التونسيون والثورة الجزائرية**، الجزائر، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2009، ص 593
5. **جريدة العمل**،" بيان المكتب السياسي للحزب الدستوري التونسي"، العدد 22، 18 نوفمبر 1955، ص1.
6. المصدر نفسه،" بيان الديوان السياسي في ذكرى احتلال الجزائر"، العدد 218، 6 جويلية 1956، ص2.
7. المصدر نفسه،" لائحة المؤتمر الزيتوني"، العدد 12، 6 نوفمبر 1955، ص3.
8. المصدر نفسه،" بيان المجلس الملي للحزب الدستوري "، العدد 209، 26 جوان 1956، ص6.
9. المصدر نفسه،" بيان المنظمات القومية"، العدد 311، 27 أكتوبر 1956، ص1.
10. المصدر نفسه،"بيان الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة"، العدد 313، 26 أكتوبر 1956، ص4
11. المصدر نفسه،" نداء من الاتحاد العام التونسي للشغل"، العدد 1890، 16 نوفمبر 1961، ص6
12. المصدر نفسه،"مظاهرات"، العدد 1994، 19 مارس 1962، ص1
13. المصدر نفسه،"تصريح الرئيس بورقيبة"، العدد 1994، 19 مارس 1962، ص4
14. المصدر نفسه،" تهريب الأسلحة"، العدد 349، 7 ديسمبر 1956، ص3
15. المصدر نفسه،" دخول الأسلحة إلى الحدود"، العدد 727، 22 فيفري 1958، ص3
16. المصدر نفسه،" الأسلحة"، العدد 633، 16 نوفمبر 1957، ص3
17. المصدر نفسه،" تصريحات الرئيس بورقيبة"، العدد 837، 3 جويلية 1958، ص3
18. المصدر نفسه،"تصريحات صالح بن يوسف"،العدد 1033، 15 فيفري 1959، ص1
19. رضوان شافو، المرجع السابق، ص16
20. **جريدة العمل**،"تصريحات بورقيبة"،العدد 837، 3 جويلية 1958، ص3
21. **جريدة الصباح**،" العمليات العسكرية بتونس"، العدد1290، 4 مارس 1956، ص1
22. **جريدة العمل**،" اعتداءات"، العدد 271، 7 سبتمبر 1956، ص1
23. المصدر نفسه،"اعتداءات جديدة"، العدد 497، 29 ماي 1957، ص1

24. المصدر نفسه،"اعتداءات"، العدد 579، 3 سبتمبر 1957، ص2
25. المصدر نفسه، "تصريحات جاك شابان دلماس وزير الدفاع والقوات المسلحة الفرنسية"، العدد716، 9فيفري 1958، ص 3.
26. زولا سومر،" الطاهر الزبيري شاهد على أحداث ساقية سيدي يوسف"، **جريدة المساء**، 6 فيفري 2008
27. **جريدة العمل**،" اعتداءات"، العدد716، 9 فيفري 1958، ص 1.
28. المصدر نفسه،" بيان جبهة التحرير الجزائرية"، العدد 720، 14 فيفري 1958، ص4
29. زولا سومر، المرجع السابق.

مراحل الصراع الاسباني الجزائري 1500 –1571
معركة مزغران و انعكاساتها المحلية و الدولة أنموذجا

د. محمد بليل ، جامعة ابن خلدون، الجزائر

مقدمة

إن دراسة إشكالية الصراع الجزائري الإسباني بالبحر المتوسط الغربي ، تعود جذوره إلى مجموعة من المعطيات المتمثلة في الأوضاع المضطربة به ، نتيجة الخلل الذي وقع في ميزان العلاقات الدولية بين الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي، هذا ألأخير الذي اتحد ضد مسلمي الأندلس و قامت الإمبراطورية الناشئة بشبه الجزيرة الإبيرية بقيادة إيزابيلا و فرديناند الثاني، بطرد المسلمين و تشتتيهم ،من جهة و تمكن العثمانيين بشرق أوربا من فتح القسطنطنية عام 1453 و توسعهم نحو وسط أوربا ،حيث انتقل الصراع بشكل قوي إلى غرب المتوسط بعد تشبع الفتوحات العثمانية بشرق أوربا و جنوبها ، و بالتالي أتساع مساحة الدولة العثمانية وتحولها في ظرف زمنيّ وجيز إلى قوة عالمية، امتدت حدودها من نهر الفرات شرقاً إلى جزيرة كريت غرباً، ومن شبه جزيرة القرم شمالاً إلى بلاد النوبة جنوبا على امتداد ثلاث قارات هي: آسيا وأوربا وأفريقيا[1].

و امتدت و توسعت بشكل كبير في القارة الأسيوية ،والباقي بكل من شرق أوربا وشمال إفريقيا ،الأمر الذي جعلها تبسط يدها على بحار ومضايق ذات أهمية استراتيجية قصوى ؛ومنها البحر الأبيض المتوسط.إلى غاية المحيط الأطلسي حيث تصدت للاعتداءات الصليبية والمسيحية للإمبراطورية الأسبانية على سكان شمال إفريقيا .

و نظرا لموقعها الجيوستراتيجي ، احتلت مكانة هامة في العلاقات الدولية بين الشرق و الغرب ، مما جعلها تتوسع في جميع الجهات بفضل الروح الجهادية التي أضحى العثمانيون يتمسكون بها، حيث أوجد ذلك جيلا من المجاهدين و البحارة المسلمين يعملون في خدمتها بشكل مباشر أو حر مثل ما تمثل في أسرة آل بربروس الذين ركبوا البحر لتحرير المسلمين الأندلسيين و الدفاع عن سكان شمال إفريقيا المهددين من قبل أسبانيا ،التي قامت باحتلال العديد من الموانئ المغربية من طرابلس شرقا إلى طنجة غربا[2] .

في هذه الظروف الدولية الصعبة التي كانت تمر بها الدويلات الإسلامية بغرب البحر المتوسط حسب العديد من المصادر المعاصرة لهذه الفترة بتعرض شواطئها للاحتلال و الغزو و مطاردة مسلمي الأندلس[3] ؛ظهر البحارة المسلمون عروج و إخوته حاملين لواء الجهاد البحري ضد الصليبيين ، حيث استبشر سكان المنطقة خيرا بهم فاستنجدوا بهم في كثير من المواقع رغم الخلافات و الحساسيات بين أمراء الدويلات الحفصية و الزيانية و المرينية و القبائل المترددة[4].

لذلك تطرح أمامنا اشكالية الصراع العثماني الإسباني بمنطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط و دور الجزائريين فيه من خلال المعارك الكبرى التي خاضوها ضد الاحتلال الإسباني ، و من أهم تلك المعارك في بداية توسع العثمانيين بالجزائر ، تمثلت في معركة مزغران التي وقعت بتاريخ 26 أوت 1558 ،

التي نحاول أن نسلط عليها الضوء من خلال صيرورة هذه المعركة و نتائجها المختلفة على منطقة حوض المتوسط الغربي و انعكاساتها المحلية و الدولية .

1- مراحل الصراع الإسباني الجزائري بالبحر المتوسط الغربي 1500-1550

مرّ هذا الصراع الذي شهده البحر الأبيض المتوسط الغربي بعدة محطات و أحداث من الصراع العسكري و السياسي بين الجزائريين بقيادة الإخوة عروج و فيما بعد الدولة العثمانية و القوى المسيحية ،الممثلة خاصة في الفرسان القديس يوحنا و الإمبراطورية الكثولوكية المسيحية الأسبانية بقيادة فرنديناند Ferdinandالثاني ملك آراغونة d'Aragon و إليزابيلا ملكة قشتالة Castilleو أباطرتها فيما بعد أمثال شارل كانCharles Quintو حكامها بوهران أمثال الكونت" دالكاديت "**comte d'Alcaudéte** فيما يلي :

- تمكن عروج في البداية من المجيء إلى البحر المتوسط الغربي بحلق الواد بتونس بالإتفاق مع حاكمها الحفصي حيث حقق انتصارات رائعة على السفن المسيحية و باتت أوروبا في حيرة من أمرها أمام شجاعة هذا القرصان البحري المسلم الذي خلص الكثير من الأسرى المسلمين و أوقف زحف ألأسبان تجاه سواحل المغرب الإسلامي في نهاية القرن الرابع عشر و بداية القرن الخامس عشر[5] ، حيث تزامنت تحركات عروج و إخوته البحارة إلياس و خير الدين(الخضر) بطرد مسلمي الأندلس و القضاء على أخر دويلة إسلامية بالأندلس و هي غرناطة سنة 1492م[6].

- لبى عروج نداء حاكم بجاية لتحرير ها من الأسبان منذ عام 1513و أحرز تقدما ملحوظا لمهاجمتها و تحرير أجزاء منها و في عام 1515 ،عاود الكرة بطلب من أحد مرابطها بضرورة تحرير بجاية من الغزو الإسباني وعندها قام بالمرور على بلدة جيجل ؛التي استقبلته و منها شن هجومه البحري على ميناء بجاية و حاصره لمدة طويلة قبل أن يرفع الحصار بسبب تماطل الأمير الحفصي من مد عروج بالإمدادات و مجيء إمدادات إسبانية.

- تحرير الجزائر العاصمة من الاحتلال الإسباني ، حيث تمكنت الدولة العثمانية من بناء أسطول بحري قوي استفاد منه البحارة المسلمون الذين لبوا نداء الجهاد لتحرير بلدان المغرب من السيطرة الإسبانية ، خاصة و أنها أضحت تشكل خطرا على سكان المنطقة بعد ضعف الإمارة الحفصية و أصبح بنو عبد الواد ،ألعوبة في يد حكومة أسبانيا و قواعدها المتمركزة بالجزائر العاصمة بحصن البنيونPénon و المرسى الكبير و بوهران ، إضافة لأطماع الأسر الحاكمة بالمغرب الأقصى و تواطئها مع الأسبان لاقتسام تلمسان ،حيث أثرت هذه الأحداث على حكام المدن المغرب الأوسط بتنس و شرشال و الجزائر العاصمة ، هذه الأخيرة التي استنجد سكانها و ضغطوا على حاكمها سالم بن التومي ليدعو عروج و خير الدين(الخضر) لتحرير مدينتهم من الاحتلال الأسباني وفق استراتيجية بحرية طبقها عروج و إخوته لتحرير المدينة من النفوذ الإسباني[7].

و فعلا قبل عروج و دخل المدينة سنة 1516 و أقام فيها أول حكومة مستعينا بأهاليها، لكن ابن سالم التومي تنكر للعهد و تواطأ مع بعض القبائل الرافضة للحكم التركي و بالأسبان و حاكم تلمسان الزياني ، مما جعل عروج يوسع من دولته و يفرض سيطرته على مدن المدية و شرشال و تنس ؛ ليصل إلى تلمسان مارا بمستغانم التي ألحقها بدولته سنة 1517 [8] و أرجع الحكم للأمير الزياني الذي سلب ملكه من قبل أبو حمو التلمساني .

وبسبب خيانة وغدر السلطان الزياني المنصب من قبل عروج و تواطؤ بعض السكان مع هذا الأخير قام عروج بإعدامه ،وأقام حكومة قوية بتلمسان ،إلا إنها لم تستمر طويلا، حيث حوصر من قبل ألأسبان و أبا حمو اللاجئ عندهم لمدة ستة أشهر ، إضافة لتردد بني وطاس بتموينه بالمئونة و العتاد و انقلاب السكان عليه، فأجبر إلى تغيير استراتيجيته بالمنطقة [9].

في هذه الظروف غير المتكافئة بين القوتين ،غادر عروج تلمسان إلى قلعة بني راشد ،حيث لحقه الأسبان و دارت معركة غير متكافئة استشهد خلالها عروج سنة 1518 (بسلادو)المالح حليا بغرب الجزائر أو بالقرب من تلمسان حسب بعض المراجع[10]، ليخلفه أخاه الخضر (خير الدين) الذي حاول الحفاظ على ما حققه أخاه.

ونظرا لعدم قدرته على مواجهة الأسبان لوحده، لجأ خير الدين إلى الدولة العثمانية طالبا منها مساعدتها و القبول بخضوعه لها ، حيث أمده سليم الأول و من بعده سليمان القانوني بجيش من الإنكشارية و بعض القطع البحرية لتصبح الجزائر إيالة عثمانية[11]، و لكن بسبب تغير الظروف و انقلاب حاكم إمارة كوكو ببلاد القبائل أحمد ابن القاضي الذي نصبه خير الدين عليها، حيث تواطأ مع الحفصيين بتونس و بعض القبائل ، فانسحب خير الدين مرة ثانية إلى قاعدته الأولى بجيجل التي رحب سكانها به ،ليقوم بأعمال الجهاد ضد البحارة المسحيين و ينقذ المسلمين المطاردين من الأندلسيين سنة 1520 –1525، فاستنجد مرة ثانية سكان الجزائر العاصمة به ،بعدما يئسوا من فساد إبن القاضي و تعاونه مع المسيحيين الأسبان ليدخلها مرة ثانية سنة 1525 لتصبح عاصمة الدولة الجديدة للمغرب الأوسط و يقوم بالزحف شرقا و غربا لمعاقبة القبائل التي تمردت ضد حكمه و مواجهة حملات الأسبان و تهديداتهم المستمرة للعاصمة من صخرة حصن البنيون ،الذي قام خير الدين برجمه و استرجاعه و طرد الحامية الإسبانية منه سنة 1529 بعد انتصار أسطول خير الدين على الحامية الإسبانية المرابطة بهذا الحصن الذي تم تحويله إلى رصيف ميناء الجزائر .

– تعرضت مدينة الجزائر و العديد من المدن في الوسط و الغرب لهجمات الأسطول الإسباني انطلاقا من قاعدته بوهران و المرسى الكبير متحالفة مع السلاطين الزيانيين و بعض القبائل الجزائرية الرافضة للحكم التركي في بدايته في معارك عديدة في سنوات 1519–1520و 1533–1535–و كان أهم تلك الهجمات تعرض العاصمة لهجوم الأسطول الأسباني بقيادة امبراطورها شرلكانCharles Quint الذي مني شر هزيمة سنة 1541، لتكتفي إسبانيا بالحفاظ على أملاكها بالغرب الوهراني و تحاول إثارة الفتن

بين القبائل الجزائرية و وتأليب الحكام الزيانيين على بعضهم البعض و مهادنة سلاطين الأسرة المرينية ثم الوطاسية و السعدية في إطار ميزان القوى الدولي بالبحر المتوسط الغربي ، نظرا لبروز البحرية العثمانية به و خضوع الجزائر العاصمة للدولة العثمانية[12].

2- أوضاع الغرب الجزائري في النصف الأول من القرن السادس عشر

كانت المنطقة الغربية من الجزائر و التي ستتحول إلى إقليم بيلك الغرب في عهد الحكم العثماني مضطربة، بسبب تردي الأوضاع ألأمنية و عدم وجود سلطة مركزية نتيجة ضعف السلطة الزيانية في عهد أخر سلاطينها أبا حمو الزياني الثالث وأحمد أبا الزيان و غيرهم الذين فقدوا السيطرة على كثير من أقاليمهم ، ففي شرق الدولة الزيانية انفصل شيوخ قبائل فليتة و مجاهر تحت إمارة بني توجين و استقلت مغراوة عن نفوذهم ، حيث كانت مستغانم تشكل إحدى مدن هذه الكونفديرالية المغراوية و سقطت وهران و المرسى الكبير تحت الاحتلال الإسباني و تنازع أفراد العرش الزياني في ما بينهم ، فاستنجد بعضهم بإسبانيا و أخرون بالمغرب و الإخوة عروج[13].

و بالتالي فلأوضاع السياسية لمنطقة الغرب الجزائري كانت متوترة و أضحت منطقة صراع بين القوى المحلية باقتسام أملاك السلطة الزيانية ، هاته الأخيرة التي وصلت إلى مرحلة من الضعف المتقدمة و باتت فريسة للأطماع الخارجية ، خاصة إسبانيا التي قامت باحتلال الموانئ الرئيسية للمنطقة و حاول المرينيون و السعديون الوصول إلى تلمسان و مستغانم ، و في هذه الظروف سطع نجم الأتراك بوصول بحارة آل بربروس و إخضاعهم للجزائر العاصمة منذ عام 1516 و استقرارهم النهائي فيها منذ عام 1525 ، حيث أضحت الجزائر إيالة عثمانية و بدأت تتوسع نحو المناطق الغربية بهدف انتزاعها من الزيانيين و الأسبان بدءا بمستغانم سنة 1517 التي أصبحت قلعة متينة في وجه التهديد الإسباني[14].

لذلك نعتقد بأن ظهور الأتراك بالجزائر ،مثل إشارات فأل خير بالنسبة للجزائريين كلهم، بهدف توحيدهم ضمن دولة مركزية استطاعت مواجهة القوى الخارجية كإسبانيا و السعديين و فرنسا و تحولت القبائل الجزائرية من المفهوم الضيق للإمارة إلى الدولة القومية . لأن الجزائريين، هم من استنجدوا بالدولة العلية و ساهمت هذه القبائل في توحيد الجزائر و تحرير العديد من المناطق المهددة من قبل إسبانيا.

و بذلك نجح الجزائريون بقيادة عرج و خير الدين في تحرير العديد من المواقع التي كان يحتلها الإسبان، و في مقدمتها :صخرة الجزائر البنيون في سنة 1529، و عنابة في سنة 1540 ، و بجاية في سنة 1555و التصدي للأسبان بمستغانم في أكثر من موقع.و لكنهم أخفقوا في تحرير وهران ، و المرسى الكبير، و استطاعوا مساعدة المهاجرين الأندلسيين و إنقاذهم من خطر الموت من القراصنة ألأوربيين كفرسان يوحنا القديس[15]. و أيضا النجاح في توحيد أجزاء كثيرة من البلاد الجزائرية ، التي كانت تابعة للمماليك ، و الإمارات الحفصية و الزيانية، وللأمراء و شيوخ القبائل المنشقين عنهم، وربطها بمدينة الجزائر التي اتخذوها حاضرة للبلاد كلها، بحيث غدت معظم أجزاء الجزائر الحالية من مشمولات حكمهم .

و قد وجدوا في سبيل بسط نفوذهم عليها مقاومة و معارضة من سلاطين بني زيان، و بني أبي حفص، و غيرهم، وكذلك من الإسبان ، و أخيرا من الأشراف السعديين حكام المغرب الأقصى، إلا أنهم تمكنوا من التصدي بنجاح للحملات الإسبانية ، و الحفصية، و الزيانية، و السعدية، وغيرها و التغلب على مقاومات الزعامات المحلية. و بالتالي القضاء نهائيا على نفوذ الزيانيين في تلمسان ، وتنس و كل الغرب الجزائري و ذلك في سنة 1551م، وعلى نفوذ الحفصيين في الشرق الجزائري، و المساهمة في القضاء عليها حتى في تونس نهائيا في سنة 1574بإلحاق تونس بالجزائر[16].

– العمل على مد نفوذ الجزائر، والدولة العثمانية إلى المغرب الأقصى، في العديد من المرات

– النجاح شيئا فشيئا في إرساء دعائم الحكم العثماني في الجزائر، و الشروع في احداث تنظيمات إدارية فيها، و تقسيمات إقليمية جديدة بحيث أصبح الغرب الجزائري بايليكية قاعدته الأولى مازونة ثم معسكر و مستغانم قبل أن يستقر مقرها في وهران بعد فتحها الأول و الثاني في القرن الثاني عشر ، و أصبح الشرق الجزائري بايليكته أيضا قاعدته مدينة قسنطينة.

و أصبح القطاع الأوسط من البلاد و يتشكل من بايليكية التطري و قاعدته مدينة المدية في قسمه الجنوبي. و من دار السلطان في قسمه الشمالي الممتد من دلس شرقا و تنس غربا. وهذا القسم كان تابعا مباشرة للإدارة المركزية في مدينة الجزائر. وقد كان على رأس كل بايليكية باي تابع لحاكم الجزائر، البايلرباي، أو الباشا، أو الآغا، أو الداي ،و هي التسميات التي حملها حكام الجزائر خلال مراحل العهد العثماني في الجزائر .

وقد نشأ حكام الجزائر العثمانيون مؤسسات عسكرية ، و إدارية و دينية ، و عملية ساعدتهم على التحكم في زمام الأمور في الجزائر[17].

و من خلال هذه النجاحات تشجع العثمانيون بفرض سيطرتهم على بلاد المغرب بالوصول إلى مدينة فاس ومساعدة حاكمها الشرعي و تنصيبه في عرشه و محاولة القضاء على السلطة الحفصية الضعيفة و تخليص سكانها من التهديدات الإسبانية، و لكن صعوبة الموقف و تردد السلطتين الزيانية و السعدية في مؤازرة الحكم التركي بالمنطقة ، جعل أتراك الجزائر في عهد خير الدين و خلفائه أمثال حسن أغا و ابنه حسن باشا يعتمدون على الجزائريين ، خاصة المرابطين و أصحاب النفوذ الديني بمنطقة الغرب الجزائري أمثال سيدي بوعبد الله المغوفل بحوض الشلف و واد ارهيو و سيدي لخضر بن خلوف اللذان دعما الحكم التركي، و كان لشعر الواليين الصالحين من أشعار حول مدح النفوذ العثماني و الدعوة إلى جهاد الصلبيين الأسبان،أهمية كبرى في دعم العثمانيين بترسيخ حكمهم بالجزائر و توسيعه لغاية الحدود المغربية[18].

و من هذا المنطلق ، شكلت منطقة مستغانم و منطقة الغرب الجزائري ،مرحلة متقدمة في الدفاع عن حدود الجزائر الغربية من خلال تصدي القوات البحرية العثمانية و المجاهدون الجزائريون للهجمات

الأسبانية على الموانئ الجزائرية من شرشال ، مرورا بتنس إلى مستغانم و تلمسان لرد الزحف الأسباني على المناطق الغربية الجزائرية ، حيث عرفت المنطقة تهديدا أسبانيا تمثل في ما يلي[19] :

-احتلال المرسى الكبير عام 1505 و وهران عام 1509 و توقيع وثيقة الاستسلام لحكام مستغانم مع حاكم وهران بتاريخ 26ماي 1511م

-توقيع السلطنة الزيانية صلح مع إسبانيا عام 1512 تعترف فيه بسلطة إسبانيا على العديد من موانئ الغرب الجزائري و بسبب ضعفها ،استولت إسبانيا على العديد من المواقع العسكرية ذات الأهمية الجيوسياسية خاصة وهران و المرسى الكبير و فرض هيمنتهم على الطرق البحرية المؤدية لأرزيو و مستغانم[20].

- انتصار الجزائريين على القرصان أندري دوريا و تحطيم أسطوله بشرشال من قبل قوات خير الدين و المجاهدين الجزائريين بقيادة لخضر بن خلوف ، حيث مجد هذه المعركة في أشعاره عن معركة شرشال سنة 1531، التي قال عنها[21] :

شاب راس من قوة لعيه لحمال مسطرين الفرسان ماشية و جاية

و الخلوفي يناده و سايس في البطال و العرب بسنجاق و القوم غازية

في جبل شرشال حطينا للقتال يحق في ذاك اليوم امرا باكية

حيث نستخلص من هذه الأبيات الشعرية المسؤولية الكبرى التي كلفه بها خير الدين في المعركة ،باعتباره رجل ذو مكانة دينية و عسكرية بمنطقة الظهرة و بقبيلة مغراوة ، في حين نجد مراجع أخرى تؤكد على أهمية موقعة شرشال و فرض السيطرة العثمانية على الجزائر و التوسع نحو الغرب و اتقاء شر هجمات القراصنة الأوربيين باستعداد الجزائريين بالمشاركة القتالية إلى جانب الجيش التركي و المساهمة في الأسطول البحري[22].

- تصدي الباي الجديد حسن أغا للهجمات الإسبانية على السواحل الجزائري و دعم السلطان الزياني محمد بن عبد الله للعودة إلى عرش أبيه، بعدما انتزعه منه أخوه عبد الله في 940 هـ الموافق 1534م و شارك إلى جانب خير الدين في تحرير تونس و في ولايته الثانية 1535-1542 عرفت الأوضاع السياسية بالجزائر عدة اضطرابات و تذبذب مواقف سلطان تلمسان محمد ابن عبدالله و أمير تنس و سلطان إمارة كوكو ببلاد القبائل أحمد ابن القاضي و تواطئهم مع الأسبان ضد حسن أغا و الحكم العثماني بالجزائر ، و اعتقد الأسبان بقيادة ملكهم شارلكان و حاكم وهران الجديد "الكونت دالكاديت بأن حسن أغا، سيستسلم لهم مما أدي بشرلكان إلى القيام بحملة عسكرية على العاصمة في شهر أكتوبر من عام 1541 ، لم تستطع النيل من قوة الأسطول الجزائري و اندحر الأسطول الأسباني و مني شر هزيمة ، و كانت من أهم النتائج السياسية لانتصار حسن اغا على شرلكان ،تمثلت في ترسيخ الوجود العثماني بالجزائر و تطوع الجزائريين في البحرية العثمانية و تخوف الأمراء المحليين المعارضين للوجود العثماني من القوة الجديدة و بدؤوا القبول بها و التعاون معها تارة و التمرد عليها تارة أخرى، حسب الظروف

السياسية و العسكرية التي كانت تمر بها منطقة البحر المتوسط الغربي[23]، لكن وقوف المرابطين و رجال الطرق الصوفية الجزائريين،أفشل مخططات المناوئين و اضحت إسبانيا و أوربا المسيحية ،تحسب ألف حساب للدولة الجزائرية الناشئة بقيادة العثمانيين؛ و هو ما جعل الحاكم العام لوهران يضغط على المجلس الإسباني بقشتالة Castile ، بتوجيه حملات ضد مدن الغرب الجزائري.

و كان من نتائج هذا الصراع تمكن الأسطول العثماني الجزائري من تحرير الأسرى الأندلسيين و الموريسكيين الذين نزلوا بسواحل الجزائر و عملوا على نهضتها و الوقوف إلى جانب حكومة خير الدين و خلفائه بالتصدي للأسبان و غزوهم في عقر دياركم، لإنقاذ مسلمي الأندلس الذين تعرضوا لمحاكم التفتيش الإسبانية و باتوا عرضة للتمسيح و التعميد القسري.

و لهذه الغاية عمل ممثل الحكومة الإسبانية بوهران "الكونت دالكاديت" ،بشن هجمات على تلمسان و مستغانم بهدف طرد الأتراك منها و تأليب القبائل العربية و البربرية ضد الوجود العثماني في الجزائر كالآتي[24] :

– قيام الأسبان بحملة على تلمسان سنة 1542 لاحتلالها وتنصيب السلطان الموالي لهم بدلا من السلطان الموالي للجزائر و لكن الحملات الإسبانية فشلت، بعد تدخل أتراك الجزائر الذين قضوا على أخر ملوك بني زيان و أخضعوا تلمسان مباشرة للحكم العثماني بالجزائر 1552.

– قيام الأسبان بوهران بقيادة الكونت دالكاديت بالهجوم على مستغانم و مزغران ، حيث استطاع دخولها و وقوع معركة مابين القوات الإسبانية و قوات الجزائريين و الحامية التركية في 21 مارس 1543و و بفضل قيام حسن باشا في ولايته الأولى بتوجيه إمدادات لحامية مستغانم و تطوع القبائل الجزائر و أهالي المنطقة؛ أفشل هذا الهجوم و اندحر الأسطول ألأسباني و رجع قافلا إلى وهران و في ما بعد، حاول الأسبان الانتقام من هذه الهزيمة بالزحف برا على معسكر و قلعة بني راشد .

– الهجوم الأسباني الثاني على مدينة مستغانم و مزغران سنة954هـ الموافق ل1547 م، لكن الحامية العثمانية بتدعيم من القبائل الجزائرية في الغرب الجزائري أفشلوا هذا الهجوم و عاد "دالكوديت" أدراجه إلى وهران بسبب إرسال حسن بن خير الدين لإمدادات كبيرة إلى مستغانم ، و بالتالي أنقذ مستغانم و مزغران من السقوط مرة ثانية في يد حاكم إسبانيا ، الذي بات مصرا أكثر من قبل الانتقام من الأتراك و أهالي مستغانم، ريثما تتيح له الظروف المواتية و تقلب الأوضاع السياسية و العسكرية بغرب المغرب الأوسط[25].

و لذلك نستخلص مما سبق لنا ذكره ، أن الأسبان أضحوا متخوفين من تنامي الدولة الجزائرية الحديث و أسطولها الذي بات يهدد الأساطيل الأوربية و تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا على إثر معاهدة التعاون فيما بينهما ،خلال حكمي السلطان سليم القانوني و الملك الفرنسي فرنسوا الأول عام 1535 و تحالف المرابطين و رجال الصوفية مع العثمانيين في الجزائر ، خاصة بالغرب الجزائري ممثلا في شخصيات دينية بارزة أمثال سيدي بوعبد الله المغوفل[26] و لخضر بن خلوف[27] الذين وقفوا بقبائلهم و اتباعهم إلى

جانب الخلافة الإسلامية و اعتبار المعركة مع إسبانيا امتدادا للحروب الصليبية ضد المسلمين ، لذلك أوجب هؤلاء الزعماء الدينين أتباعهم بواجب فريضة الجهاد ضد الكفار الأسبان و نصرة إخوتهم الأندلسيين المطاردين و توفير اللجوء لهم .

3- موقعة مزغران في شهر أوت 1558و نتائجها السياسية و العسكرية محليا و دوليا

إن الحديث عن هذه المعركة البحرية و البرية الكبرى التي وقعت في النصف الثاني من شهر أوت من سنة 1558بحوض البحر المتوسط الغربي، بين قوات حسن باشا بيلر باي الجزائر في ولايته الثانية و بمشاركة كبيرة للقبائل الجزائرية من الظهرة و معسكر و سيق و تلمسان بتدعيم من البحرية العثمانية الجزائرية التي كانت تترصد تحركات الأسطول الإسباني من وهران بقيادة حاكمها الكونت دالكاديت comte Alcaudéteو ابنه دون مارتن Dom Martinبجيشه تعداده 12 ألف مقاتل، حسب روايات العديد المصادر الإسبانية المعاصرة[28]، إلا أن المجاهد و و الوالي الصالح سيدي لخضر بن خلوف الذي سبق لنا التعريف به في الهامش يعتبر المصدر العربي الوحيد الذي تناول هذه الموقعة بشكل مفصل و دقيق لأحداث المعركة و مقدماتها السياسية و العسكرية ، متتبعا أطوار أحداثها ،واصفا لنا إياها انطلاقا من مشاركته في التحضير لهذه المعركة و لمساهمة في القتال فيها ، مقدما بعض ألأرقام المتمثلة في تسعة ألاف قتيل إسباني ، تكون أكثر مصداقية بسبب مشاركته في هذه المعركة المصيرية ، و ،كان كذلك مسؤولا على الفرق العسكرية الجزائرية في البحر و البر ،من خلال قصيدة مشهورة عرفت بقصة مزغران معلومة متكونة من تسعة وتسعين بيتا شعريا من النمط الشعبي ، يبن لنا مطلعها دقة المعلومات و صدقها كالآتي[29]:

يا فارس من ثم جيت اليوم عيد أخبار الصح معلومة
يا عجلان رَيَضْ الملجومْ رايتْ اجنودْ الشومْ ملمومة
يا سيلني عن طْراد الروم قصة مزغران معلومة

لذلك سنحاول في هذا العنصر من هذه الدراسة الاستفسار عن أوضاع المنطقة العسكرية و السياسية و طبيعة الأطراف المتصارعة و أبرز أسباب هذه الواقعة و أهداف الهجمات الأسبانية على مستغانم و صيرورة المعركة و نتائجها المختلفة.

أ – الظروف المحلية و الدولية التي دفعت الأسبان إلى الهجوم على مستغانم ومزغران

حسب العديد من الدراسات المتخصصة في مجال العلاقات الدولية بالحوض الغربي للبحر المتوسط في العصور الحديثة[30]، خاصة القرن السادس عشر ، بأنها تميزت بانتعاش ظاهرة القرصنة الأوربية و الجهاد البحري لدى مسلمي العثمانيين أو الأتراك الذين تمكنوا من الوصول إلى سواحل الشمال الإفريقي و التصدي للقوة البحرية و القراصنة الأوربيين و تمكنوا من الاستقرار بسواحل تونس و المغرب الأوسط من جيجل إلى مستغانم وتلمسان.

و في هذه الظروف المتوترة بهذه المنطقة من بلاد المغرب ، خاصة المغرب الأوسط الذي عرفت دولة بني عبد الواد ضعفا متزايدا بسبب عدم قدرتها على الحفاظ على المناطق التي كانت تحت سيطرتها ، و لجوء سلاطينها بطلب الحماية و اللجوء إلى القوى المختلفة المحيطة بهم ،كإسبانيا التي كانت كثير ما تتدخل في شؤون تلمسان و تعزل الأمراء و تنصب من يوافقها على سياستها التوسعية ، إضافة لمحاولات الفاسيين السعديين احتلال الجزء الغربي من المغرب ألأوسط و تحالفهم أحيان مع الأسبان المتواجدين بوهران ، مما جعل الجزائريون بتأثير من الطرق الصوفية و المرابطين و رجال الدين ، يستنجدون بالقوة الإسلامية الناهضة بإسطنبول و المشرق الإسلامي للدفاع عن أنفسهم و المساهمة في أسطول البحرية العثمانية لمواجهة الخطر الإسباني[31].

و حاول عروج و أخوته ثم فيما بعد البيلر باي خير الدين الذي تمكن من دحر الأسبان بالجزائر العاصمة و تكوين أول حكومة جزائرية مستقلة تابعة للعثمانيين، حيث أضحت فكرة الأمة الجزائرية تتشكل من خلال تأييد جل القبائل الجزائرية لهذه الدولة و دعوة رجال الدين و الزعامات المرابطية للجهاد ضد الإسبان[32] . حيث كان الجزائريون يلبون دعوات الحرب ضد إسبانيا و بعض الأمراء المتعاونين مع ألأسبان أمثال سلطان كوكو بالقبائل و أمير تنس و سلطان تلمسان و أمير مستغانم حميدة العبد رئيس قبيلة المحال بمغراوة التي تمكنت من تشكيل إمارة مستقلة عن الزيانيين بسيطرتها على مدن مستغانم و مزغران و مازونة و لكن العثمانيين تمكنوا من القضاء عليها ، حيث تمّ إخضاع مستغانم لسلطتهم سنة 1517، و بذلك استطاعت القوة العثمانية الجديدة بمشاركة الجزائريين من تحقيق حلم الدولة الجزائرية الحديثة و استطاعت مواجهة الكثير من المشاكل الداخلية و الإشكاليات الناتجة عن الحساسيات و العداوة المتواجدة بين القبائل الجزائرية ، نظرا لضعف الدولة الزيانية و التدخل الإسباني في شؤون السكان الجزائريين ، إضافة للتدخلات العديدة للسلطة المرينية و فيما بعد الوطاسيون و السعديون بالغرب الأقصى .

إن شعور الجزائريين بالأمان في ظل الدولة العلية العثمانية من خلال ممثليها آل بربروس ، إنما جاء نتيجة عقد واضح بين الجزائريين و الأتراك من خلال استنجاد الجزائريين من أمراء و مرابطين و رجال دين نافذين، سبق لنا الإشارة لهم، و ازدادت العلاقة متانة بوقوع تزاوج و تصاهر بين الوافدين العثمانيين و الأهالي الجزائريين، حيث خرج من صلبهم العديد من جنود الجيش البري و رياس البحر، كان من أبرزهم في الفترة التي نقوم بدراستها حسن باشا ابن خير الدين الذي كان من القادة الموحدين للجزائر و قائد معركة مزغران الشهيرة التي غيرت من مجرى العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي[33].

و من هذا المنطلق، فقد عرفت الجزائر عدة أحداث سياسية و عسكرية منذ سنة 1547 إلى غاية اندلاع معركة مزغران بين الجزائريين و جيش حاكم وهران الكونت " دالكوديت" فيما يلي[34] :

–تولي حسن باشا الحكم في ولايته الأولى 1542–1551،حيث عالج الاوضاع الأمنية المتردية بالغرب الجزائري و تداعيات تدهور أوضاع السلطنة الزيانية بتلمسان ، حيث تعهد أبو زيان أحمد المدعوم من قبل الجزائر بعدم السماح للأسبان بدخول تلمسان و أنه مستعد لإقامة صداقة دائمة مع الأتراك ؛ و في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها السلطنة الزيانية ،طالب أخاه أبو عبد الله سابق ذكره ،الحماية الإسبانية من حاكم وهران ، فاستغل الأسبان هذه الفرصة للتحرك نحو تلمسان التي لم يبق من القبائل خاضعا لها سوى قبيلة بني عامر ، فقاموا بتدعيم هذا السلطان اللاجئ عندهم " أبي عبد الله محمد " و دعموه بجيش قوامه 12 ألف مقاتل ، حيث تمكنوا من دخول تلمسان و حصار الحامية التركية و الانتقام من القبائل المجاورة المؤيدة للحكم العثماني في الجزائر ، و دخلت دولة بنو زيان مرة أخرى في حلبة الصراع بين العثمانيين و الأسبان المتحالفين مع الفاسيين و بعض قبائل الأعراب المجاورة لوهران ، و فتحت هذه الظروف شهية حاكم وهران "دالكديت " لاحتلال مستغانم سنة 1547 مثل ما سبقت الإشارة إلى ذلك ، لكنه فشل فشلا ذريعا ، خاصة وأن التلمسانيين تمردوا على مولاي عبد الله و عينوا من جديد مولاي أحمد سلطانا عليهم بتأييد من حكومة الجزائر.

– إن هذا الصراع الذي شهدته منطقة الغرب الجزائري منذ هزيمة الأسبان بمستغانم و إلحاق تلمسان بها مرة ثانية ، أدى بالأسبان و حلفائهم إلى بذل المزيد من الجهود، للتدخل في الشأن الجزائري و تأليب القبائل و السلطة الزيانية على العثمانيين بالجزائر في ولاية حسن باشا الأولى ، حيث تدهورت العلاقات الجزائرية السعدية بسبب التدخل السافر لهم في الأراضي الجزائرية و تحالفهم مع الأسبان ، مما نتج عنه سقوط تلمسان مرة أخرى في يد الفاسيين (السعديين) ، حينها استعد حسن باشا لمواجهة هذا الموقف بشكل حاسم للقضاء على السلطنة الزيانية المنهارة و ضم تلمسان إلى الجزائر ، فجهز جيشا قوامه خمسة ألاف مقاتل و ألف من الخيالة و ثمانية ألاف من مشاة القبائل الجزائرية ، إلى جانب جيش عبد العزيز أمير بني عباس ،المتمركز في غرب الجزائر ، حيث مرّ جيش حسن باشا بمستغانم ، حيث انهزم السعديين و ضمت تلمسان إلى الجزائر بعد القضاء النهائي على الحكم الزياني سنة 1552م[35].

– بعد وشاية وزارة الخارجية الفرنسية للباي العالي ضد حسن باشا، بسبب خلافة مع السفير الفرنسي و رفض حسن باشا مساعدة الفرنسيين في البحر المتوسط ، استدعي لاستانبول و تم تكليف قائد تلمسان حاكما مؤقتا إلى غاية تعيين صالح رايس، الذي قام بتوسيع نفوذ العثمانيين بمختلف جهات الجزائر ، و لكن بعد موته ، دخلت الجزائر في اضطراب سياسي جديد ، حيث رفض حسن قورصو الذي كلف سابقا من قبل حسن باشا للقضاء على الدولة الزيانية ، و عند عودته للجزائر العاصمة رفض استقبال الباي الجديد "محمد باكرلي ، إلا أن هذا الأخير استعان بطائفة رياس البحر و تمكن من استلام السلطة بعد مقتل حسن قورصو في أواخر 1956، و في نفس الوقت قام أنصار قورصو من جيش الإنكشارية و حاكم تلمسان " القايد يوسف" بقتل الباي الجديد و نصبوه حاكما عليهم ، و في هذه الظروف ، رفض الباب العالي هذا الانقلاب ، فاستغل الأسبان و السعديين هذه الاضطرابات ، فاحتل السعديون مرة أخرى مدينة

تلمسان سنة 964هالموافق ل 1557م، بينما طالب الكونت دالكيديت " تدعيم بلاده لاحتلال مستغانم و مزغران حسب " هايدو" [36].

-تدخل الباب العالي لعلاج اضطرابات الجزائر الحاصلة بسبب الصراع بين الانكشارية و رياس البحر بإصدار فرمان بتعيين حسن باشا ابن خير الدين مرة أخرى لولاية ثانية كانت حاسمة في نظرنا مابين 1557- 1561، ، لأنها ارتبطت بموقعة مزغران الشهيرة التي سنعود لتفاصلها و نتائجها فيما بعد .

- وصل حسن باشا إلى الجزائر العاصمة سنة ،1557 حيث أسرع لفك الحصار المضروب على الحامية التركية بتلمسان، و في إطار نفس المهمة ، كلف أحد رسوله ليغتال السلطان السعدي " محمد الشيخ" و القيام بهجوم كاسح على مدينة فاس بغية احتلالها ، و نظرا لقلة عدد جيشه و بعد المسافة و الخوف من حاكم وهران استغلال هذه الظروف ، قفل راجعا عن طريق البحر إلى الجزائر للتصدي لجيش الكونت دالكاديت " حاكم وهران المتوجه نحو مستغانم[37].

نستخلص مما سبق لنا ذكره للأحداث الخاصة بالجزائر العثمانية و المرتبطة مباشرة بمحاولة "دالكيدت" احتلال مستغانم ، حيث مرّت منطقة مستغانم و الغرب الجزائري بأحداث خطيرة ، تمثلت في ذلك العداء و الحقد من قبل الشرفاء السعديين للأتراك العثمانيين بالجزائر و رفض أحقية الدولة العثمانية في وراثة الخلافة الإسلامية بالتواطؤ مع الأسبان الذين يحتلون مدينتي المرسى الكبير و وهران ، و هو ما نعتبره تهور حكام المسلمين و عدم الاستفادة من دروس التاريخ القريبة منهم و المتمثلة في الحروب الصليبية بالمشرق و بالأندلس و ببلاد المغرب بقيام الإمبراطورتين الأسبانية و البرتغالية ،بغزو سواحل بلدان المغرب و طرد مسلمي الأندلس و تدمير البنية التحتية لبلدان شمال إفريقيا ، من خلال الحملات الصليبية للأسبان بقيادة شارلكان على تونس سنة 1535 و على الجزائر العاصمة سنة 1541،و محاولة حاكم وهران الإسباني دالكونت ألكاديت " احتلال مستغانم و القضاء على الحكم العثماني بالجزائر[38].

ب – أخبار و وقائع معركة مزغران و تطورها مابين 20أوت – 26 أوت 1558

إن الحديث عن موقعة مزغران[39]، و التي نعتبرها معركة مصيرية في تقرير مصير الدولة الجزائرية الفتية و الحديثة عهدا آنذاك ،بسبب المخاطر التي واجهتها و كادت تعصف بالبلاد و تمزقها بين القبائل و الأمراء المحليين و الدولتين الإسبانية و السعدية ،حيث نجد أنفسنا أمام شح المادة التاريخية و تقارير المعركة ، حيث تجاهلت المصادر الإسبانية أهميتها و عرجت على ذكرها بشكل بسيط ، مركزة على الصراع بشكل عام و التواجد الإسباني بوهران و المرسى الكبير و مخافة المهانة و الذل التي ألحقته موقعة مزغران بحاكم وهران الكونت دالكوديت و إبنيه و خيرة الضباط الأسبان و كذلك خوفا على مشاعر الإمبراطور الإسباني الذي تلقى الهزائم بالجزائر العاصمة و كتم الحقيقة عن الشعب الإسباني[40].

بينما لم نعثر كثيرا في المصادر الجزائرية المعاصرة لهاته الموقعه على ذكر أهميتها ، باستثناء إشادة صاحب الأسفار أبا راس الناصري المعسكري الذي اشاد بدور لخضر بن خلوف في هذه المعركة ، هذا الأخير الذي كان ضابطا و مجاهدا في سبيل الله في جيش حسن باشا ، ترك لنا قصيدة هامة تعتبر من

أهم المصادر الجزائرية التي أرخت لهذه الموقعة من خلال قصيدته " قصة مزغران معلومة" و أيضا بعض الدراسات الحديثة لباحثين فرنسيين[41] و جزائريين[42] نقلوا لنا بعض معطيات هذه المعركة ، التي سنأتي إلى شرح و تحليل سير هذه المعركة و نتائجها المختلفة بشكل موجز ما يخدم غرض بحثنا.

تحرك "الكونت دالكديت" نحو مستغانم بجيشه تعداده 12 ألف مقاتل إلى جانب بعض القبائل الجزائرية في 21 ذي القعدة من عام 965هـ الموافق ل22 أوت 1558، بهدف احتلالها، مستغلا غياب حسن باشا عن الجزائر ، إلا أن هذا الأخير استبق الأحداث ،ورجع إلى الجزائر بهدف مواجهة الجيش الإسباني، حيث تحرك الجيش الإسباني بجميع معداته من مشاة و أربع سفن كبرى كانت تحمل الأرزاق بالبحر ، بينما كان حسن باشا و البحرية الجزائرية تراقب من بعيد تحرك الأسطول الإسباني من خليج أرزيو نحو مستغانم و مزغران و تمكن البحارة الجزائريون من الانقضاض على السفن الإسبانية و تدميرها ، حيث شكل هذا الهجوم البحري للجزائريين أولى ثمار نتائج الانتصار ، بينما قام قايد تلمسان بملاحقة الجيش الإسباني و عرقلة وصوله قرب عين تموشنت إلى غاية مستغانم،حيث حفز ذلك الجزائريين بالدخول في معركة فاصلة ضد الجيش الإسباني الذي استسلم لليأس و تعرض للجوع و العطش[43].

إن مقاومة أهالي مستغانم عن مدينتهم كانت بطولية ، خاصة مع مجيء المجاهدين الجزائريين من عدة مناطق كالظهرة بقيادة المجاهد لخضر بن خلوف و بعض القبائل من تموشنت و تلمسان و معسكر و سيق بتدعيم من حسن باشا الذي أمدّ المجاهدين المتوجهين نحو مستغانم ب خمسة ألاف مقاتل مزودين بالبنادق و جنود الإنكشارية المزودين بالمدافع ، إضافة للأسطول الجزائري الذي قام بتدمير السفن الإسبانية و ألف من رجال الخيالة المحليين بقيادة لخضر بن خلوف،و بذلك نستخلص بأن تلاحم الجزائريين و تكتلهم أنقذهم من خطر الهجوم الإسباني على مستغانم ، فنتج عن ذلك مطاردة الجيش الأسباني خارج أسوار المدينة ، حيث تراجع هذا الأخير نحو بلدة مزغران بالإحتماء بها ، و لكن الجزائريين لحقوا قوات الكونت دالكوديت و دار معركة حاسمة بمزغران منذ يوم 24 أوت إلى غاية مساء يوم 26 أوت ،1558، فتعرض الأسبان للهجوم من كل الجهات ، و تحت وقع الهزيمة ، تفرق حلفاء الكونت و هربوا خارج المدينة أمثال أبو غاني المغربي و بعض القبائل الجزائرية التي اختلطت مع المقاومين الجزائريين كي لا تقتل ، و في هذه الأحداث الكبيرة وجد الجيش الإسباني نفسه محاصرا و منهزما، خاصة بعد مقتل قائده الكونت دالكوديت تحت أقدام الخيول و لم يعثر على جثته إلا بعد البحث عنها بمعاول خاصة بذلك العهد، تناولها لخضر بن خلوف بشكل مفصل في قصيدته(قصة مزاغران معلومة) و اما أحد أبنائه فقتل في المعركة و تم أسر الابن الثاني" دون مارتين"Dom Martin الذي لم يطلق سراحه إلا بعد مدة و انتشال جثة أبيه لتدفن بوهران بإحدى الكاتدرائيات .

و حسب الأستاذ عمار بن خروف ،فإن الحملة الثالثة على مستغانم كانت أسوأ من الحملتين السابقتين و تعرض جيش الأسباني للفناء ؛قتلا و اعتقالا ل 12 ألف عسكري الذين جيء بهم إلى مستغانم و تحطم الأسطول الإسباني بكامله و حقق الجزائريون نصرا عظيما بتاريخ 26 أوت من سنة 1558 [44].

و إذا ما رجعنا لقصيد لخضر بن خلوف ، التي توارثها أحفاده و أصبحت مصدرا رئيسيا للباحثين الجزائريين ، نجده يفصل في هذه المعركة تفصيلا ، حيث وصف شاعرنا سيدي لخضر بن خلوف المعركة بكل وقائعها الدامية وإحداثها ومواقعها الجغرافية و البشرية التي نتج عنها ألاف الضحايا ،فكان الشاعر واحدا من المشاركين بها عندما كان فتى يافعا ، حيث ذكر تفاصيل عن أحداث المعركة و دوره فيا من خلال بعض الأبيات الآتية[45] :

. يا فارس من تم جيتْ اليومْ .... غزة مزغران معلومة

ويقول في مقطع اخر ذاكرا فيه القائد الاسباني

احتاطوا بالامير شنظاظوش ... يالشيعة والقوس والبطاش

انتدهوا وتخلفوا بجيوشْ ... جيش القنت(الكونت) الكافر الغشاشْ

ويذكر كذلك في مقطع اخر أمير المسلمين القائد العثماني حسن باشا:

الامير حسن يوم مزغران... اخلف الثار من العدو تحقيق

رْجع للبهجة روضة البلدان ... بغنايم شتى ونصر لبيقْ

ادعوا له ياناس بالغفران... يجعل له ربي يوم المضيق طريق

وفي مقطع اخر يصف المعركة الدامية:

ولى الميت في البطاح فراش... تمشي الخلق على سْبيبَ الخيلْ

بيضا وابيض لون وصف الشاش... زرقة و ازراق لون وصف النيل

ويختم سيدي لخضر بن خلوف القصيدة بالقول:

الله يرحم ناسخ المنظوم... والقاري و المستمع دايما

يرحم ناس أخيار القوم... خير الدين وسيلة الرحمة

يا سايلني عن طْرد الروم.... قصة مزغران معلومة

إذن فالمجاهد لخضر بن خلوف يعتبر أحد الشهود الرئيسيين عن هذه المعركة التي تناولتها الكتابات الأسبانية و الفرنسية و المؤرخين المعاصرين ، حيث نجد أنفسنا أمام وصف دقيق لأحداث هذه المعركة و تطور فصولها منذ الاستعدادات الأولية للطرفين المتصارعين و الأساليب الحربية المستخدمة و أيضا نوعية الأسلحة المتطورة من بنادق و مدافع و كذلك الأطراف المشاركة إلى جانب كل طرف ، فالحكومة الجزائرية بقيادة الأتراك في الجزائر ،كان حلفائها الرئيسيون ،مختلف طبقات الشعب الجزائري من قبائل و زعماء الطرق الصوفية و الزعماء الدينين البارزين أمثال لخضر بن خلوف وسكان مستغانم و مزغران الذين دافعوا عن مدينتيهما ، بينما الطرف الثاني المعتدي على حرمة الجزائريين ، تمثل في حاكم وهران ألكونت دالكديت و إبنيه و خيرة ضباطه و جنوده و بعض المرتزقة من القبائل الجزائر و الأمراء المحليين الذين باعوا ضمائرهم للمحتل الكافر ، إضافة لتواطؤ السعديين الذين كانوا يروا في أنفسهم ؛أنهم من سلالة شريفة لا يمكن للأتراك توريثها عنهم بسبب الأطماع التوسعية ، و أن سلالة الأشراف في نظرنا،

ليست حكرا على الأسر الحاكمة المغربية عبر التاريخ الإسلامي ،فالذين شاركوا في القتال إلى جانب الأسطول العثمانيي بالجزائر في معركة مزغران و الحامية العثمانية من الجيش الإنكشاري ، كانوا هم أيضا من السلالة الشريفة التي تمتد إلى الحسن و علي و فاطمة الزهراء رضي الله عنهم أمثال لخضر بن خلوف و سيدي عفيف و سيدي علي من الظهرة و بوعبد الله من وادي ارهيو بحوض الشلف و أسرة سيدي الخطاب بمينا و مستغانم و أيضا أشراف تلمسان و السيق و معسكر و بالتالي فحجة الانتماء إلى السلالة الشريفة لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، إنما اتخذت في غير موقعها ، لأن الصراع في نظرنا،كان بين أمة المسلمين أينما تواجدوا و أعدائهم الصليبيين الذين قاموا بطرد مسلمي الأندلس و التنكيل بأهالي شمال إفريقيا ببلاد المغرب الإسلامي .

ج- نتائج المعركة على المستوى المحلي

وقعت معركة مزغران في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، حيث أربكت نتائج هذه المعركة الأمراء المحليين ، الذين قدموا الولاء للحكم العثماني الجديد و ارتضوا به ، رغم التردد في بعض الأحيان و الانقلاب على هذا التأييد ، و لكن الحكومة العثمانية بالجزائر تمكنت من رسم الحدود السياسية للجزائر الحديثة من بونة إلى تلمسان و إلى ورقلة و بسكرة و بني عباس جنوبا ، و كان لرجال الطرق الصوفية و الزعماء الدينيين دورا بارزا في هذا النصر في تثبيت أركان الدولة الجزائرية الحديثة و توحيد القبائل الجزائرية التي أزارت الحكم العثماني واتضحت حدود الدولة الجزائرية الحديثة بعد محاصرة الأسبان بوهران و تحرك الجزائريون مرارا بحصار و هران و محاولة تحريرها من الأسبان و إيقاف الأطماع السعدية المغربية.

و من أم النتائج هذه المعركة على المستوي المحلي ، تحقيق الاستقرار و الأمن في الكثير من مناطق الجزائر رغم بعض المحاولات التي كانت تريد الانقضاض على العثمانيين بالجزائر ، و أحس الجزائريون آنذاك بوجود الدولة من خلال مساهمتهم في الأسطول الجزائري و دفع الضرائب و فتح الأسواق و تنقل سكان الجنوب نحو الشمال ، حيث عرفت الجزائر في هذه الفترة مرحلة هدوء بتنمية نشاط البحرية الجزائرية و فرض الآتوات على الأساطيل الأوربية ، حسب شهادات العديد من المعاصرين و الكتاب الأوربيين من خلال رحلاتهم إلى الجزائر كتجار أو جواسيس و قناصلة و سفراء، حيث تجولوا بمدن الغرب الجزاري و مستغانم مؤكدين أن أهالي مستغانم، كانوا أغنياء بسبب الموقع الاستراتيجي و الأهمية الاقتصادية للمنطقة ، حيث كانوا يدفعون للأتراك ما قيمته 800درهم زياني ذهبي سنة 1570م و 600 وزن كبير من القمح و الشعير و 2000 علبة من الزبدة و 70 بغل و ثلاثة احصنة ، كما تميزت المدينة بوجود سكان الحضر أي أصحاب المدينة الأصليين منذ تأسيسها[46].

و حديثا ألف المرحوم توفيق المدني أحد أبرز الأعلام الجزائريين في الفترة المعاصرة كتاب هام بعنوان حرب الثلاثة مائة سنة بين إسبانيا و الجزائر ما بين سنتي 1492-1792، و ضح فيه لنا أهمية التواجد العثماني بالجزائر من خلال تطرقه للأحداث العسكرية و السياسية دار معظمها على شواطئ الجزائر أم

بمواقع متعمقة في الداخل بضواحي وهران و تلمسان مثلا ، و في موقع أخ اعتبر توفيق المدني أن إنجازات حسان باشا خلال ولايتيه رسمت حدود الدولة الجزائرية الحديثة[47].

نستخلص مما سبق لنا ذكره ، بأن معركة مزغران مثل ما تم وصفها من قبل المعاصرين ، بأن كان لها انعكاسات إيجابية على الأوضاع الداخلية للجزائر و ترسيخ وجود كيان جزائري موحد لدى عامة الناس و خاصتهم إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830.

د- نتائج المعركة على المستوى الدولي

إن العديد من الكتابات التي اطلعنا عليها حول طبيعة الصراع بين الجزائريين بقيادة الأتراك و الأسبان و حلفائهم الزيانيين و الوطاسيين و فيما بعد السعديين ، أشارت إلى تغيير ميزان القوى الدولي بالبحر المتوسط الغربي ، من خلال تمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على الجزائر رسميا عام 1819، رغم أن الجزائريين استنجدوا بآل بربروس سنة 1516، لكن العثمانيين واجهتهم مشاكل عديدة داخلية و خارجية ، كان من أبرزها على المستوى الدولي ، التحرش الإسباني بسواحل الجزائر و تهديده الدائم للجزائر العاصمة و التدخل في شؤون بني زيان بتلمسان و احتلالها للمرسى الكبير و وهران سنتي 1505 و 1509 و محاولاتها المتكررة احتلال مستغانم، منذ معاهدة الاستسلام لحكام مستغانم الزيانيين عام 1511 و الهجمات المتكررة عليها سنوات 1542 – 1547 و أخرها عام 1558 ، حيث اندحر الأسطول الأسباني و فشل حاكم وهران من احتلال مستغانم و مزغران ، حيث لقى مصرعه في معركة مزغران، مساء يوم 26 أوت 1558، حيث نتج عن هذه الموقع،نتائج إيجابية هامة على المستوى الدولي في إطار الصراع الإسباني الجزائري تناوله المؤرخ الجزائري توفيق المدني بشكل مفصل في دراسته الهامة " حرب الثلاثة مائة "[48] . و من أبرز انعكاسات انتصار الجزائريين على الأسبان في موقعة مزغران دوليا، تمثلت فيما يلي حسب وجهة نظرنا من خلال استقرائنا للشهادات المعاصرة و المراجع ذات الصلة بالموضوع كالأتي[49]:

- اندحار الأسبان بمستغانم و تقوقعهم بوهران و انشغالهم بمشاكل العالم الجديد
- بروز قوة الأسطول الجزائري التي باتت تراقب سواحل الجزائر و تحولت من موقع الدفاع إلى الهجوم على الأساطيل الأوربية التي لا تحترم السواحل الغربية للبحر المتوسط
- اعتراف الإيالات العثمانية بتونس و طرابلس بقوة بايات الجزائر و عقد علاقات صداقة معهم و التنسيق فيما بينهم لمجابهة الخطر الإسباني مثلما حدث في سنة 1671 بتحرير تونس بمشاركة بايات الجزائر من خلال حملة سنان باشا أحد القادة الأتراك و بمساعدة بايات الجزائر[50].

-تراجع السعديين بالمغرب الأقصى إلى ما وراء حدود تلمسان ، حيث اتخذ حسن باشا مستغانم كقاعدة أممية لانطلاق في حملات تأديبية للسلاطين السعديين و ضرب الحصار على وهران و المرسى الكبير.

–تراجع الحملات الصليبية على الجزائر و قيام الدول الأوربية بعقد المعاهدات و دفع الأتاوات نضير مرورها بأمان بالبحر المتوسط ، رغم بعض التوترات التي كانت تحدث من حين إلى أخر بمحاولة الأساطيل الأوربية عدم احترام هذه المعاهدات و لكنها كانت تضطر إلى طلب عقدها مرة ثانية اتقاء قوة ألأسطول الجزائري[51].

هـ – واقع العلاقات الدولية في الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد هزيمة الأسبان بمستغانم و مزغران

تشكلت الخريطة السياسية بشكل واضح في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، ببروز القوة العثمانية في الجزائر ، حيث أصبح الرحالة و القناصل و السفراء الأوربيين يصفون سكان الأيالة بالجزائريين ، و قدموا لنا وصفا دقيقا لطبيعة الصراع الأسباني الجزائري ، و تناول العسكريون و الباحثون الفرنسيون هزيمة الإمبراطورية الأسبانية أمام الدولة العثمانية ، حيث ذكروا لنا أسباب الصراع بالمنطقة و تأثراتها على الدول المحيطة به و التغيرات الحاصلة في العلاقات الدولية بالبحر المتوسط وأوربا[52]. و برزت إلى جانب أسبانيا المتوسعة بالشمال الإفريقي ،قوى أوربية أخرى ، كان لها نصيب قوي في العلاقات مع بايات الجزائر في هذه الفترة ، تمثلت في المملكة الفرنسية في عهد ملكها فرانسوا ألأول ،منذ عقده لمعاهدة الصداقة مع الباب العالي سنة 1535و تأثير ذلك على العلاقات مع الجزائر ، حيث كثيرا ما تدخل السفراء الفرنسيون في التدخل في شؤون الجزائر و الاحتجاج أمام الباب العالي مثلما ما وقع لحسن باشا الذي لم يكن في وفاق مع فرنسا ، و أيضا أن الدبلوماسية الفرنسية عملت جاهدة للحصول على بعض الامتيازات في الجزائر مستقلة الصراع مع إسبانيا ، حيث اثبتت معركة مزغران، أن السادة الجدد في الجزائر، أضحوا محترمين في البحر المتوسط لأنهم تمكنوا من ضبط ألأمن وفرض شروطهم على الأساطيل الأوربية[53].

تمكنت الجزائر بعد هزيمة إسبانيا ،بأن تجعل منطقة البحر المتوسط الغربي ، بحيرة إسلامية خاضعة للدولة العثمانية و فرض هيبتها الدولية و أضحت العلاقات الدولية بهذا البحر تخضع للمصالح الجزائرية ، حيث كان القناصل الأوربيين و سفرائهم يتوددون للجزائر لفرض الانضباط و الأمن بهذا البحر .

و من بين أبرز المهام التي قام بها الأسطول الجزائري في البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن السادس عشر ،التصدي لحملات طرد مسلمي الأندلس أو الموريسكيين، الذين بقوا بإسبانيا إلى غاية صدور القانونى الإسباني الخاص بمحاكم التفتيش[54]، حيث لعبت الجزائر دورا بارزا في إنقاذ مسلمي الأندلس و توفير الإقامة لهم بسواحل الجزائر ، حيث انتعشت الأحوال الاقتصادية و الاجتماعية للجزائريين من خلال النشاط الحرفي و الانخراط في البحرية الجزائرية لمقاومة النفوذ الإسباني و محاولة بايات الغرب الجزئري تحرير وهران و المرسى الكبير .

الخاتمة

نستخلص مما سبق لنا ذكره ، بأن معركة مزغران ، كانت حاسمة في تاريخ الصراع الجزائري الأسباني و أدت إلى تشكيل خريطة سياسية جديدة من أبرزها :

– تشكل الكيان الجزائري الحديث بقيادة ألأتراك و خضوع جل القبائل و مناطق الجزائر الحالية إلى الحكم العثماني .

–أضحت منطقة مستغانم من حوض الشلف و الظهرة و مينا إلى قلعة الراشدية و المقطع قلعة استراتيجية و حصنا منيعا أمام الهجمات الإسبانية و الأطماع السعدية ،و باتت تساهم في أعمال الجهاد البحري بتخليص مسلمي الأندلس و محاصرة الأسبان بالمرسى الكبير و وهران.

– حدوث تغييرات في ميزان القوى الدولي سياسيا و عسكريا باعتراف جل الدول الأوربية، بمكانة و أهمية الدولة الجزائرية بالبحر المتوسط ؛و راحت تستنجد بها ضد القراصنة أمثال الدولة الفرنسية و اضطرت دول أوربية أخرى إلى دفع الأتاوات لضمان سفنها .

– أثبتت معركة مزغران جدارة الجزائريين ،بمشاركتهم الفعالة في الجهاد و المعارك ضد المحتلين ،كيف ما كان نوعهم ،بغض النظر عن قوميتهم أو دينهم ، و هو ما لمسناه عند الجزائريين ؛ حيث أضحى مفهوم الدولة و الأمة قائما عند الجزائريين ،الذين كانوا مشتتين بين الزعامات القبلية و الدينية و بين الولاءات للأشراف بالمغرب أو دولة بني حفص في تونس و لم يشعروا بوجود دولة مركزية في عهد الزيانيين، بسبب ضعفها، إلا في عهد الحكم العثماني ، الذي نعتبره بادرة خير على هذه المنطقة ، و أضافت موقعة مزغران تماسك الجزائريين و حماية حدودهم الغربية من الاحتلال الإسباني و الأطماع التوسعية للأشراف السعديين.

الهوامش:

[1] -M.de salabery,Histoire de l’Empire Ottoman depuis sa fondation jusq’a la paix d’yassi en 1792T1ed normant,impremerai - librairie Paris 1813 pp12-20

[2] – علي حسون ،تاريخ الدولة العثمانية و علاقاتها الخارجية ، المكتب الإ’لامي ، ط 2 ، بيروت ،لبمانن 1994، صص 11–24 ، انظر خريطة التوسع العثماني ، ص 14

[3]– علي ابن أبي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط طبعة 1972 صص 145–147

[4] – حصة قعدة و قصيد بتنشيط الإعلامي نور الدين بن سليمان بمشاركة محمد بليل و العديد من الباحثين حول معركة مزاران لسنة 1558 من إعداد محطة مستغانم الجهوية بتاريخ 07–0_–2015ينظر (ينظر الأرشيف الصوتي لإذاعة مستغانم)

[5] – محمد بوشنافي :"مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الأسباني على المغرب الأوسط 1512–1518"مجلةعصور ، فصليو محكمة يصدرها مخبر البحث التاريخي ، مصادر و تراجم جامعة وهران ، الجزائر السنة الثالثة ، ع 4–5ديسمبر 2003–جوان 1424/2004–1425، صص269–278

[6] – عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر ، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، دار النهضة العربية للنشر و التوزيع بيروت ، لبنان 1989 صص 42–47

[7] – مصطفى الغاشي :" البحر المتوسط في الاستراتيجية العثمانية خلال القرن السادس عشر"موقع إلكتروني ، الدخول يوم 06–08 2015

[8] – بلجوزي بوعبد الله ،دراسة أثرية لنماذج من العمارة العثمانية بمستغانم ، رسالة لنيل شهادة الماجستير جامعة الجزائر 2005–2006 ص 26

[9] – عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق صص 60–68

[10] – بوشنافي :"مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الأسباني على المغرب الأوسط 1512–1518"مرجع سابق ، صص269–278

[11] – نفسه صص 70–75

[12]- Moulay Belhamissi; Histoire de la Marine Algérienne ENAL,2eme Edition , Alger 1986 pp 81-82

و نظر أيضا غيلاني السبتي :"دور البحرية العثمانية و الجزائرية في إنقاذ مسلمي الأندلس 1492–1610 "مجلة علوم الإنسان و المجتمع دورية تصدر بجامعة بسكرة ن العدد 14/ مارس 2015، صص 69–86

[13] – كريم بوعبد الله :"وادي ارهيو في العهد الزياني و أواخر العهد العثماني "كتاب جماعي عن تاريخ مدينة واد ارهيو من العصر القديم إلى الفترة الحديثة ، جمع و إعداد لجنة الدعوة و الإعلام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، شعبة وادي ارهيو" ،طبع بدار الكفاية ط 1 ، 2015 صص62–71

[14] –عمار بلخروف العلاقات الجزائرية المغربية ، رسالة لنيل شهادة الماجستير بإشراف الدكتورة ليليى الصباغ جامعة ديمشق 1983 صص 30–27

[15]– انظر مجموع المراجع حول هذا الموضوع :

– عمر محمد الباروني ، فرسان القديس يوحنا في طرابلس ، إهداءات محمد دياب بالمستشفى الملكي المصري 2001 صص 3–7

– هلايلي حنيفي :"الوحدة الإسبانية و بداية المأساة الموريسكية " بحث مستقل نقلا عن موقع ألكتروني 12 صفحة الدخول 15–10–2011 على الساعة الواحدة و نصف

[16] – محمد الأندلسي ، الحلل السندسية في ألأخبار التونسية،ط1، المطبعة التونسية 1287ه صص 120–125

[17] – ينظر بلخروف :"الجزائر في العهد العثماني" دراسة مستقلة، موقع وزارة التربية الجزائرية ،موقع إلكتروني ، الدخول 08–07 –2015 على الساعة الثانية و خمسة و أربعين دقيقة

[17] – محمد الأمين بوحلوفة "مكانة سيدي بو عبد الله المغوفل في منطقة واد ارهيو تاريخ "واد ارهيو ، مرجع سابق صص 115–126

[18] – بن خروف ، العلاقات الجزائرية مرجع سابق صص 30–34 و سعد الله التاريخ الثقافي :"علج علي و الدولة العثمانية "كتاب أبحاث و آراء، ج4 ، ط1 ، بيروت ، لبنان 1996 ، صص186– 191

[19] – حنيفي هلاليلي :"الوحدة الإسبانية و بداية المأساة المورسكية "دراسة مستقلة موقع إلكتروني ، مرجع سابق

20 – قصيدة عن معركة شرشال للخضر بن خلوف ، ينظر :سيدي لخضر بن خلوف حياته و قصائده ، ،ج 1،منشورات جمعية أفاق مستغانم ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، 2006ص31– و عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق ص 31

[21]– عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق صص 95–96

[22] –عمار بن خروف ، العلاقات الجزائرية المغربية ، مرجع سابق صص 35–40

[23] – نفسه صص 41–42

[24] – أنظر عدة مراجع منها :

– عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق صص 174–175

– عمار بن خروف ، العلاقات الجزائرية المغربية ، مرجع سابق صص 40 –41

[25]–هو أبو عبد الله الملقب بالمغوفل (923–828هـ)و الذي يرجع نسبه إلى عبد السلام بن مشيش وينحدر من ذرية سيدنا الحسين بن علي كرم الله وجهه ... و ضريحه يوجد في حافة وادي الشلف شرق مدينة وادي أرهيو ، نقلا عن محمد الأمين بوحلوفة :" مكانة سيدي بوعبد الله المغوفل في منطقة وادي أرهيو "تاريخ منطقة وادي أرهيو من العصر القديم إلى الفترة الحديثة /، مرجع سابق صص 116–117

[26] –هو لخضر (لكحل)بن عبد الله بن خلوف و أمه "كلة" بنت سيدي يعقوب الشريف دفين جبال سيدي موسى بنواحي عشعاشة ، و بالتالي فهو قد ولد في أواخر القرن الثامن الهجري و عاش القرن التاسع الهجري كاملا و توفي في بداية القرن العاشر الهجري عن عمر ناهز 125 سنة حسب قصيدة الوداع المعروفة بالوصية أو الوفاة و هي عبارة عن سيرة ذاتية لحياته و قد تزوج من "قنوا أبنة عم أمه سيدي عفيف الشريف دفين شمال غرب مدينة سيدي علي و درس على مجموعة من العلماء بقبيلته مغراوة و عل يد أقاربه امثال سيدي عفيف و أيضا تعلم بمدرسة زاوية العالم سيدي بلقاسم بوعسرية بمزغران ، حيث يفصل في قصائده أنه قضى شبابه ببلدة مزغران و شارك في العركة الشهيرة المعروفة بموقعة مزغران و تصوف في أخر حياته متأثرا بالعلماء الصوفيين بمنطقته بتلمسان و الجزائر العاصمة خاصة أبي مدين شعيب ، حيث ارتبطت بينهما علاقة روحية رغم تباعد الزمن الفلكي بينهما بثلاثة قرون / ينضر لمراجع عديدة منها :

– سيدي لخضر بن خلوف حياته و قصائده ، مصدر سابق صص19 –31

Marcel Bodin; Traditions indigènes de Mostaganem Oran (S.D),pp 167-175

– و حميان عبد الرحمان،المديح النبوي في شعر لخضر بن خلوف دراسة في الموضوعات و الشكل ، مذكرة لنيل شهادة المجستير في أعلام الشعر الشعبي الجزائري ، جامعة تلمسان ، 2011صص 61–69

[27] – مصادر بالأرشيف الإسباني بمدريد تناولت هذه المعركة و الصراع البحري العثماني الأسباني حيث كشفت لنا عن الكثير من حيثيات هذه الواقعة حسب وجهة نظر التقارير الإسبانية ينظر:

Haido ; les Rois D'Alger Traduite et annotée par. De Grammont(M.), Alger, 1881p97,

[28] – لخضر بن خلوف : قصيدة قصة مزغران معلومة ، نقلا عن سيدي لخضر بن خلوف حياته و قصائده ، ،ج 1،منشورات جمعية أفاق مستغانم ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، 2006 صص 167–172

[29]-F.Elie de la primaudaie ,le Commerce et la navigation de L'Algérie , Revue Algérienne et Coloniale ;Paris 1860 , cf (le même auteur) ,Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole En Afrique 1506-1574in Revue Africaine V 19 , année 1857 p p 62-77

[30] – أنظر عدة مراجع تناولت أهمية البحرية الجزائرية في التصدي للاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر :

Moulay Belhmissi la Marine Algérienne op cit pp 115-116

– F.Elie de la primaudaie ,le Commerce et la navigation de L'Algérie, op cit p 219

[31]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الحركة الوطنية ، ج2 1900–1930 ، دار الغرب الإسلامي ط2 ، 1992 صص حيث عرج إلى تشكل الدولة الجزائرية منذ عهد العثمالنيين ردا على أطروحات العسكريين الفرنسيين و مؤرخيهم خاصة شارل أندري جوليا ن، بأن مفهوم الأمة حديث العهد بالوجود الفرنسي

-Ahmed cheniki : « Etat national ,Algérie discours étatique et postures politiques »in quotidien d'Oran,le 29-09-2014

[32]– حصة إذاعية " قعدة و قصيد " من إنتاج محطة مستغانم الجهوية بتنشيط الصحفي بن سليمان نور الدين و بمشاركة العديد من ألأساتذة منهم محمد بليل يوم 7أوت 2015 على الساعة الخمسة و نصف بعد الزوال (ينظر الأرشيف الصوتي للمحطة)

[33] – عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق صص 168–180 بتصرف قارن عمار بن خروف ، العلاقات الجزائرية المغربية ، مرجع سابق 47–50

[34] – نفسه ص 180

[35]-Haido (F.D.) ; **Histoire des rois d'Alger** , Traduite et annotée par. De Grammont(M.), Alger, 1881p99

cf ,Ruff (P.) **; La domination Espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudéte (1534-1558)**,Paris ,1900,P.103.

[36] – عمار بن خروف ، العلاقات الجزائرية المغربية ، مرجع سابق ص 44

[37] – محمد بليل ، محاضرات عن تاريخ تونس في الفترة الحديثة 1500–1881، لطلبة الماستير تخصص مغرب عربي حديث و معاصر ،السداسي الأول من السنة الجامعية 2014–2015 ، قسم العلوم الإنسانية ، جامعة ابن خلدون ، تيارت الجمهورية الجزائرية

[38] – محمد بليل ، مداخلة حول أهمية معركة مزغران في الحوض الغربي للبحر المتوسط في إطار ندوة تاريخية احتفالا بذكرى معركة مزغران بقاعة المداولات للمجلس البلدي لمزغران بتاريخ 25 أوت 2014

[39]- Ruff (P.), op cit, cf , Elie de la Primaudaie, Documents Inédits sur l'Histoire de l'Occupation Espagnole En Afrique 1506-1574in Revue Africaine V 19 , année 1857 p p 77-80

العديد من هذه المراجع التي نقلت لنا أخبار الصراع بين الجزائريين و الأسبان لم تشر بشكل كبير لدور معركة مزغران و اعتبرتها حادثة عرضية في إطار هذا الصراع .

40-Marcel Bodin ,op cit pp 173-177

[41] – أبو القاسم سعد الله -،تاريخ الجزائر الثقافي مرجع سابق صص 245 –252 وأحمد توفيق المدني ،حرب الثلاثة مائة بين الجزائر و إسبانيا (1492–1792) ط2 ،المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1972،حيث تناول طبيعة هذا الصراع في عدة فصول و محطات تاريخية

42– عزيز سامح التر ، تر محمود علي عامر، مرجع سابق صص 205

[43] – تناولت مراجع عديدة مراحل هذه المعركة ونتائجها منها :

– عمار بلخروف العلاقات الجزائرية المغربية ، مرجع سابق صص 42–44

- Marcel Bodin, op cit p 173

[44] – قصيد لخضر بن خلوف عن قصة مزغران بتصرف عن سيد لخضر بن خلوف حياته و أثاره مصدر سابق صص167–172

[45]-Elie de la Primaudaie le Commerce et la navigation de L'Algérie, op cit p 231 et aussi le même écrivain a cité ces Effet sur la description de la situation de L'Algérie durant l'occupation Espagnole dans un Article « Documents inédit sur l'occupation Espagnole de l'Afrique »in Revue Africaine V 191875 pp62-77

[46] – محمد البشير الشنيتي :"لمحة عن كتاب حرب الثلاثة مائة سنة للمرحوم الشيخ أحمد توفيق المدني "مجلة التاريخ النصف الأول من سنة 1985 رقم 18تصدر عن المركز الوطني للدراسات التاريخية المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1985 صص153–158

[47] – أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثة مائة سنة، مرجع سابق ،صص

[48] – لخضر بن خلوف ، مصدر سابق صص 167–172 و:

–Haido (F.D.) ; **Histoire des rois d'Alger , op cit et Marcel Bodin op cit**

و– عبد القادر بن عيسى المستغانمي ، مستغانم و أحوازها عبر العصور تاريخيا و ثقافيا و فنيا ط 1 ، المطبعة العلاوية بمستغانم 1996صص 24–25

[49] – محمد الأندلسي ، الحلل الأندلسية في أخبار تونس ، مصدر سابق صص 10–16

[50]-Moulay Belhamissi , op cit pp 137-145

[51]-M.Salaberry ,histoire de L'Empire Ottoman depuis sa fondation jusqu'a la paix d'Yassir en 1737 ,T2, imprimerie – librairie ,paris , 1813pp 421-422

[52]- Paul Masson ,Histoire des Etablissements et du commerce Français dans L'Afrique Barbaresque 1560-1793 voir chapitre sur les Capitulations françaises en Algérie ed libraire hachette Paris 1903 pp 5-10

[53] – غيلاني السبتي :"دور البحرية العثمانية و الجزائرية في إنقاذ مسلمي الأندلس 1492–1610 "مجلة علوم الإنسان و المجتمع دورية تصدر بجامعة بسكرة ن العدد 14/ مارس 2015، صص 69–86.

الأسس الحضارية للنيوليتي الصحراوي السوداني بالصحراء الكبرى

د .محمد رشدي جراية، جامعة الشهيد حمة لخضر، الجزائر

المقدمة

يعتبر النيوليتي الصحراوي السوداني من أقدم حضارات ما قبل التاريخ المعروفة ، ينسب الى موقع شهيناب بالقرب من الخرطوم بالسودان ، وهو حضارة زنجية صعدت من الجنوب الشرقي للصحراء الكبرى متجهة الى شمالها الغربي ، بذلك غمرت المرتفعات الجنوبية الجزائرية ، (الهقار، الطاسيلي و تخومهما)[1].

غطى النيوليتي الصحراوي السوداني ، مساحة جغرافية شاسعة ، يمكن تصنيفها الى أربعة مناطق، أولهما الهقار، و ثانيهما منطقة أدرار إيفوراس و معها التلمسي، ثم منطقة التنيري ، و رابعا منطقة الصحراء الغربية[2]، وما يهمنا هنا هي المنطقة الأولى، أي أقصى الجنوب الشرقي الجزائري فقد وصل مبكرا الى هناك، حيث تم تعمير أماكن عديدة غير محدودة بالمرتفعات أو في المناطق المنبسطة المجاورة لها[3].

ويرى هنري.ج.هوجو مستنتجا من خلال حفريته بالمنية أن الانسان الذي عاش بالمنية كان زنجيا أصوله الحضارية ترجع الى شهيناب (السودان) ، ولقد تقدم من هذا المكان الأخير متجها دوما الى الشمال الغربي حتى حل الجنوب الشرقي الجزائري و أقام بها عدة مراكز حضارية[4].

كما أسفرت دراسة بقايا جماجم الانسان النيوليتي الصحراوي السوداني على أنه لاينتمي لأي من مجموعتي الانسان العاقل المعروفتين بالمنطقة خلال العصر الحجري المتأخر ، والتي إستمرت في الشمال (المنطقة التلية) حتى العصر الحجري الحديث ، فهذا الانسان ينحدر من فصيلة زنجية سودانية ، تتميز بالفك المتقدم و الأنف الأفطس العريض و بإستطالة السيقان والسواعد[5]، كما قدمت لنا حفرية أمكني فائدة كبيرة ، إذ أكدت حضور النوع السوداني (الزنجي)[6] بالصحراء في نهاية الألف السابعة قبل الميلاد.

و على هذا فالنيوليتي الصحراوي السوداني إمتد زمنيا ما بين 6100 ق.م الى 1000 ق.م على الأرجح ، بينما إنحسر مكانيا بصحرائنا الجنوبية الشرقية كما تدل على ذلك المواقع الأثرية المكتشفة، و كان أصحابه زنوج ذوي بشرة سوداء قانية.

أولا : الزراعة :

من النتائج التي خرجت بها دراسة موقع أمكني بأن هناك بالسوية التي على عمق 40□1م والعائدة لفترة 6000 ق م، وفرة غير عادية للسينات الزهر من صنف لونايا بكريس،مما حمل غ.كامبس على الإعتقاد بأن هذه الأرض قد استصلحت حينها وزرعت بهذه النبتة (شكل رقم 01)[8].

كما يرى هـ.ج.هوجو بظهور آثار زراعة الحبوب بموقع المنية في المستوى الأسفل والمتوسط ويتعلق الأمر بحبوب من نوع (سلتيس أوستراليس)،الموجودة بغزارة، و لقد لاحظ أ.ج.أركيل شبها لهذه الظاهرة،

بالخرطوم بالسودان، كما عثر ر.موني و ب.كويزيل على جرة مملؤة بمثل هذه الحبوب في قلب منطقة التنيري، مما يعطينا إنطباعا على تشابه ظروف النيوليتي الصحراوي السوداني في كامل مناطق الصحراء تقريبا[9].

وجد بأمكني إنخفاض في نسب بقايا الحبوب في كل المستويات، ولكن السوية (80□0م – 40□1م) الغنية بالبقايا، عثر بها على حبتي طلع طول كل واحدة منهما64 µ (ميكرومتر)[10]، قياس لايتعلق بأي حبوب صحراوية أخرى، وتم إستبعاد أصناف القمح و السيرغو فهي تحديدا حبوب بنيسيتوم المزروعة (pennisetum)، و حدد المجال الزمني للسوية بـ(6100ق.م– 4850ق.م)[11].

شكل رقم 02: مشهد للحصاد (جبارن).

المرجع : H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, p 173.

حتى لو إفترضنا إنعدام الزراعة فهذا لايعني الجهل التام بالمزايا التى يتم بها إنتقاء نباتات وأشجار معينة دون غيرها ، مفضلين نموها في أحسن الظروف ، فهذا العمل يعتبر شكل أولي للزراعة يسبق ظهورها[12]، و هذا ما يلاحظ بأمكني إذ أن غياب فحم[13] أو رماد شجر الصنوبر و العرعار و الجوز والسرو، وهي أنواع غالبا ما تذكر في نتائج تحاليل لقاحات التربة الصحراوية[14] ربما تدخل ضمن هذا الإطار.

كما أن مراقبة النباتات والأشجار ومعرفة أوقات نضج الثمار بغية جنيها، تدخل ضمن الطور الأول المتمثل في بدايات الزراعة[15]، و من خلال حفرية المنية التي أرخت طبقاتها بـ 3450ق.م فإن الزراعة

بهذا المعنى كانت معروفة ، إذ أن أصحاب هذا المخيم كان يدخل في غذائهم بعض الفواكه بصفة رئيسية مثل ثمار النشم الحلوة المذاق ، التي تشكل غذاء أساسيا على الأقل في طعام الأطفال وكذلك هو حال ثمار العناب ، ويكملون غذائهم بنباتات برية التي تجنى وتجلب من خارج المخيم[16].

ويرجح غ. كامبس أن النيوليتين سكان أمكني قد زرعوا نوعا من الذرة[17]، و إستصلحوا لأجلها السهول المغطاة بالرمل غير البعيدة من الموقع حسب ظنه، أما الفضاء الواقع بين الحذوة الغرانيتية والنهر ، فكان يجري به قطاف النباتات بنفضها وهزها دون قطعها ، وحتى ضربها بعصي الآكاسيا والزيتون بطريقة تسمح بسقوط الحبات والبذور في أواني أعدت سلفا لهذا الغرض[18].

وتعتبر صناعة الفخار من أهم الأدلة الأثرية التي تثبت توصل الإنسان الى الإستقرار و الزراعة و الإنتاج لأن الإنسان المستقر قد شعر بحاجة ماسة الى تخزين طعامه وشرابه ونجح في التأقلم مع بيئته[19].

ومما يلفت الإنتباه كذلك هو تلك الكويرات المثقوبة، les boules de pierre و التي تكون قد استعملت في سحق الحبوب، فقد عثر على نماذج لها في عدة مواقع جزائرية ، لاسيما في موقع أمكني بالهقار بالصحراء الجزائرية[20].

كما يستدل أيضا بهذا العدد الكبير من أدوات السحق والطحن المجهزة بقطع غرانيتية ، و الأعداد الكبيرة أيضا من مدقات الهاون التي جمعت من مناطق نفوذ النيوليتي الصحراوي السوداني بأنحاء أقاصي الجنوب الشرقي، بعض هذه الأدوات قد تكون استخدمت لطحن بذور النباتات البرية، لكن كثرتها تحملنا على الإعتقاد بأنها استخدمت لطحن حبوب كانت تزرع بعينها[21].

و رغم ذلك فإن الإستدلال على الزراعة ، بأدوات وأشياء معروفة بأنها فلاحية ، يبقى دليلا واهنا إذا لم تبرر الأحافير والحبوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على هذه الأدوات[22].

و هكذا يبقى ما نعرفه عن الزراعة النيوليتي الصحراوي السوداني بالمرتفعات الجنوبية الشرقية قليل جدا فالطبيعة الحمضية للأرض نادرا ما تسمح بالحفاظ على بقايا من هذا النوع خاصة حبوب غبار الطلع ورغم كل ذلك لدينا قناعة أنها مورست ولو في نطاق ضيق أو أن وتيرة الجفاف المتسارعة لم تسمح لها بأن تتطور[23].

ثانيا: الرعي

يبدو أن السلوقي السوداني وهو مساعد ثمين للصيادين النيوليتين كان من سلالة قديمة جدا قد أستئنس بالصحراء الى جانب الثور و الكلب اللذين أثبتا وجودهما بأوكر 2000 سنة قبل الميلاد كما تشهد على ذلك الرسوم الصخرية[24].

إن العصر الحجري الحديث الذي شهد إتساع مجال إستئناس الحيوان الى الحد الذي أصبح فيه هذا الإستئناس يشكل نمطا معيشيا لأقوام بشرية كاملة،لم تسعفها طبيعة مناطقها الجغرافية لكي تصبح مجتمعات زراعية ، فكانت مجتمعات رعوية.(شكل رقم 02)[25]. فمن المؤكد أن النيوليتيين الذين سكنوا

الطاسيلي على الأقل عاشو أساسا على رعي البقر[26] و لقد تزامنت، الحضارة الرعوية للبقارة[27] بالهقار و الطاسيلي، مع فترة النيوليتي الصحراوي السوداني في طوره الأعلى بها ، ومن أهم المواقع المنتمية لحضارة البقارة الرعوية، بالجنوب الشرقي الجزائري هي ، عين إتنين in-itinen الطبقة(2) 2910 ق.م،الطبقة (3) 2680 ق.م(+أو– 250) و جبارن jabbaren 2320ق.م (+أو–300)، و أوان طارتي Aouan-tartai 2520ق.م[28].

هذه المجتمعات الرعوية كانت تعيش وراء الحيوان وليس عليه ، أي أن جهودها كانت منصبة على تكاثر القطيع بفعل الرعاية و الرعي، لأنه كان يشكل عنوان الثروة و الجاه[29].

ولايعرف إذا ما كانت المنية قد عرفت رعي الأبقار أو قد أدخلت إليها لكن المعروف أن الرسوم الصخرية الطاسيلية ، التي تصور قطعان البقر المستأنسة تعود الى نفس الفترة التاريخية، التي تعود إليها نشاطات الحياة بالمنية[30].

و يبدو أن الحضارة الرعوية المنتمية الى حضارات النيوليتي الصحراوي السوداني ، قد أنتهت ما بين 2500 و 1500 ق.م[31]، و على هذا فالأدلة المقدمة واضحة على أن حرفة الرعي قد مورست خلال النيوليتي الصحراوي السوداني بالمرتفعات الجنوبية الشرقية ، خاصة رعي الأبقار التي شكلت على الأقل نمطا معيشيا لأقوام الرعاة البقارة.

شكل رقم 02 : قطيع بقر (جبارن)

المرجع :C.Brahimi, Initiation a la préhistoire de l'algerie , ph24

ثالثا: الحرف

يعتبر إبتكار الأدوات و صناعة الالآت من أهم عناصر حضارة الإنسان المادية التي مكنته من السيطرة على عوائق البيئة الطبيعية و التغلب على المجتمعات المجاورة المعادية له ، و على ظروف حياته اليومية و مستجداتها[32].

و لقد تنوعت هذه الصناعة خلال عصور ما قبل التاريخ من الخشب الى الأحجار المختلفة وخاصة الصوان الى العظم ، ثم الطين المشوي في صنع الأواني الخزفية[33]، و بناء على المخلفات الأثرية يمكن تقسيم الصناعة النيوليتية الصحراوية السودانية على المنوال التالي:

أ/ صناعة الحجر و العظم

تتميز بفقرها ورداءتها بسبب المادة الأولية المنتمية الى هذا المحيط المتمثل في المرتفعات البركانية لهذا فإذ أغلب المواد المستعملة عبارة عن صخور بركانية، كالبازلت والريوليت والفنوليت والكوارتز[34].

فالمحاولات التي أجراها الصناع تدل على مكابدة ومعاناة حقيقية عند صنع الأدوات تلبية لرغبات الجماعة، بسبب رداءة المواد الحجرية الخام، فغالبا ما يضطرون الى استخدام مواد حجرية غير طيعة،لا تستجيب لضربات القادح، مثلما هو الحال في منطقة إيميدير و لكن رغم ذلك فقد نجحوا في صنع الأسلحة والأدوات الأخرى المختلفة[35].

أما في جهات أخرى فاعتمدوا على قطع الصوان والمتاجرة به، ثم يجلبون مواد أخرى هم في حاجة إليها ، مثل اليشب و العقيق الأحمر و الأمازونيت[36].

و تميزت الصناعة الحجرية المنتمية للنيوليتي الصحراوي السوداني عموما بالأدوات التالية:

- وجود المطاحن و المدقات بكثرة و أدوات كروية و المصاقل و القاطعات، (شكل رقم03).
- وجود رؤوس السهام وأدوات حصوية .
- قلة المحكات و القزميات الهندسية.
- غزارة الأدوات ذات الظهر حيث تمثل حوالي ربع (4/1) الصناعة[37].

لقد كان صقل الحجارة واسع الإنتشار وكانت أدوات الحرب متعددة، وأدوات العزق والهرس المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معداتهم ، وأدوات ثقب رائعة تجمع بين الإزميل و الإبر[38].

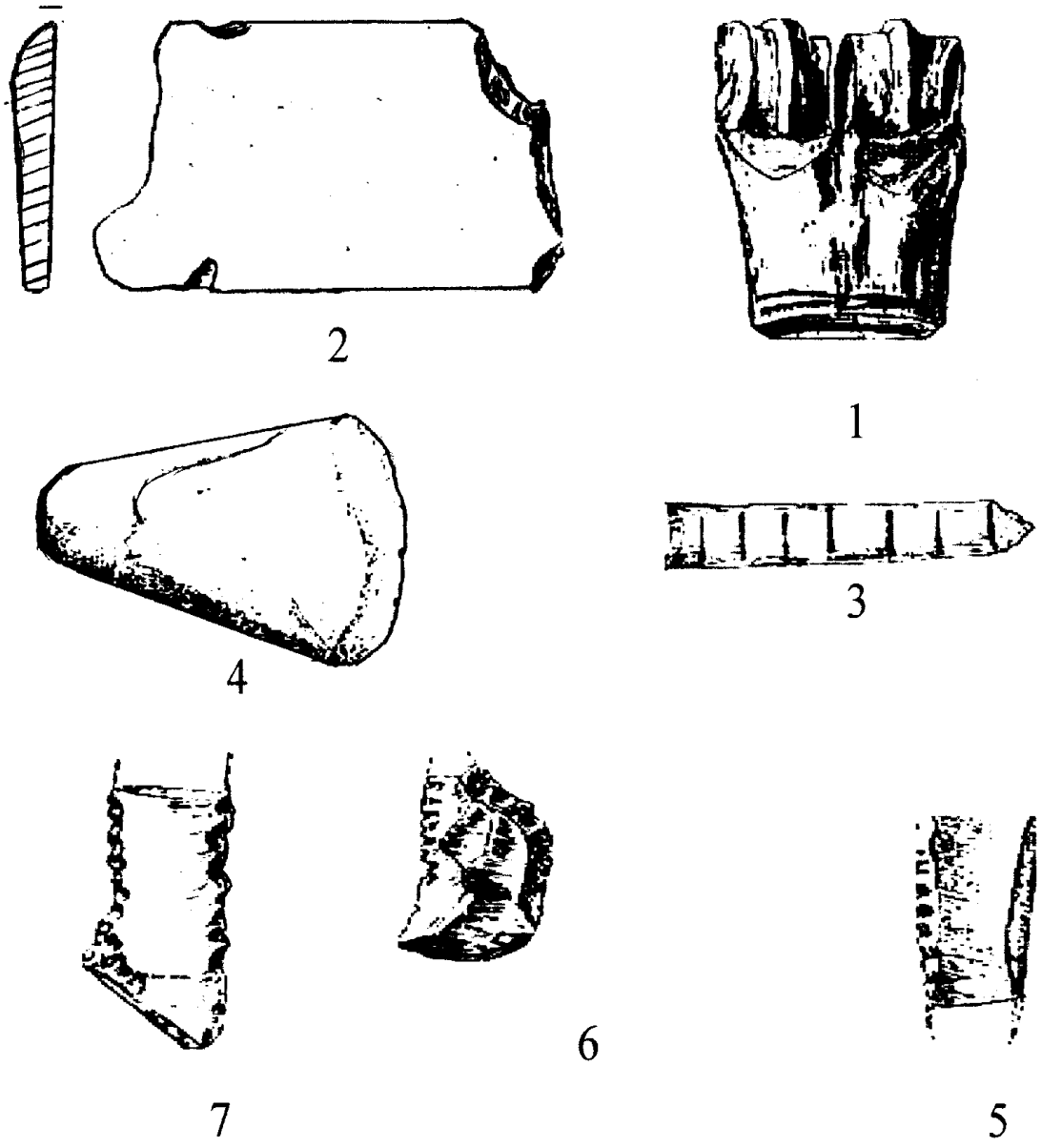

شكل رقم03 : أدوات عثر عليها بحفرية المنية.

1 – قطعة عظم فصلت بالمنشار عن الجسم. 2 – لوحة من الشيست المصقول.

3 – قطعة عظم مصقولة عليها تحزيزات. 4 – قطاعة(فرامة) مصقولة

5 ، 6 ، 7 . نصيلات للحز .

المرجع : H.j.Hugot, Recherches préhistoriques p 131, 89.

حيثما أقام النيوليتيون الصحراويون نجد خطاطيف القنص المصنوعة من العظم ، والتي كانو يقنصون بها طرائدهم المائية ، فقد إهتموا بصناعة العظم ثم إهتدوا الى صقله ، كما برعوا في تقطيعه بالمنشار وفي فصل المشاشة عن الجثة(شكل03 نموذج1)، ثم وصلوا الى تشظيته الى قطع ثم الى شظايا رقيقة حسب الهدف[39].

وربما كانت بعض الخطاطيف العظمية و إبر الصنانير العاجية التي يعثر عليها أحيانا خاصة بعين قزام، هي الأدوات الصناعية الأولى التي عرفتها الصحراء الجزائرية، ومن خلال المقارنة وجد شبه كبير بينها وبين مثيلتها التي اكتشفها الباحث أركيل في شهيناب بالسودان[40].

ومن خلال دراسة طبقات حفرية أمكني تبين غناها بالصناعات العظمية ، المختلفة ، لكن ما لفت الانتباه أكثر هو نوع من الخناجر العظمية استخدموا في صناعتها عظام الكتف والأجناب، مما يدل على معرفة الصناع الجيدة ببناء العظم، له هيئة مصقل مسطح، بينما حوافه حادة رقيقة، تستعمل في نقش وتزيين الفخار قبل شييه[41]، بالإضافة إلى صنانير ومخارز ومصاقل وقطاعات تستخدم في صنع السلال وشبكات الصيد و تحضير الجلود، و صنع الفخار و دبابيس ذات رؤوس مذنبة أحيانا و هي غالبا من العاج و من الخطأ الاعتقاد بأنهم صنعوا سم الخياط (خرم الإبرة)، إذ أنها في الحقيقة ، أشواك بعض الأسماك التي تنتهي بثقب طبيعي[42].

كذلك يمكننا تشبيه، عمل وتصنيع العظم بنظيره : العاج، سواء من فرس النهر أو الفيلة ويبدو أن مادة العاج كان يحتفظ بها في الغالب لإعداد الأساور[43].

ب/ الفخار

لقد وجدت الالآف من الكسر الفخارية منتشرة في الصحراء ولكن نادرا ما توجد الأواني الكاملة أو تلك التي يمكن إعادة تشكيلها مثل الجرار الكبيرة أو الكؤوس الصغيرة وغيرها من الوثائق الفخارية[44].

النيوليتي الصحراوي السوداني غني على العموم بالبقايا الفخارية[45] (شكل رقم 05) التي تؤكد أصالتها السودانية غالبا، خاصة في الأشكال والزخارف[46]، و يمكننا دراسته من الجوانب التالية، العجينة، الزخرفة، الشكل[47].

نعلم أن الحرق المباشر للعجينة الطينية يسبب لها شقوق ، بسبب إنقباض وتقلص المادة الطينية ولذلك عمدوا الى مزج عجينة الطين بمواد أخرى ملينة، مرنة من طبيعة أخرى مغايرة، حسب المناطق مثل مسحوق قطع الأواني الطينية المهشمة أو مسحوق أصداف بيض النعام أو يضطرون أحيانا أخرى الى زيادة سمك جدار الآنية[48]. أو يضيفون مسحوق حطام النباتات المهروسة بما فيها سيقان النباتات أو قصب المكانس أو روث البقر، أو مسحوق الكوارتز أحيانا أخرى[49].

و لقد كان هذا الفخار في البداية بشكل ثمرة الدباء، (calebasse) [50] وقي يتميز بهذا الشكل طيلة فترة امتداده[51] ، فالأواني تتميز في الغالب بقعرها النصف دائري إذ تحصلوا عليها بقولبة الطين على جسم كروي[52] ثم بطريقة الحماميات[53] يتم تشكيل بقية الإناء[54].

تشمل الزخرفة ثلاث مناطق من الآنية هي،تزيين الشفة،تزيي العنق، تزيين بطن الآنية[55] و من خلال النتائج المتوصل إليها أثبت أن الزخرفة الغالبة للفخار النيوليتي السوداني،هي نتاج تنوع ما يعرف بزخرف Dotted wavy line[56] أي الخطوط المموجة النقطية[57].

ففي طوره القديم كان المشط يجر عاديا (بحيث تكون الخطوط مستقيمة) أو بجر المشط لولبيا ، أو بجر جذور النبات مما ينجم عنه خطوط جميلة أخاذة، لاشك أن الخطوط المستقيمة كان السيمة الغالبة ، كما تطور عبر الزمن ، عكس الآخيرتين اللتان بقيتا على حالهما[58] و أحيانا أخرى يكون التزيين بنقش حسكة السمك(Aretes de poisson) و يتم هذا الرسم عادة بمساعدة بعض الأدوات مثل المشط أو المخرز أوضلع ذو حافة ملساء[59].

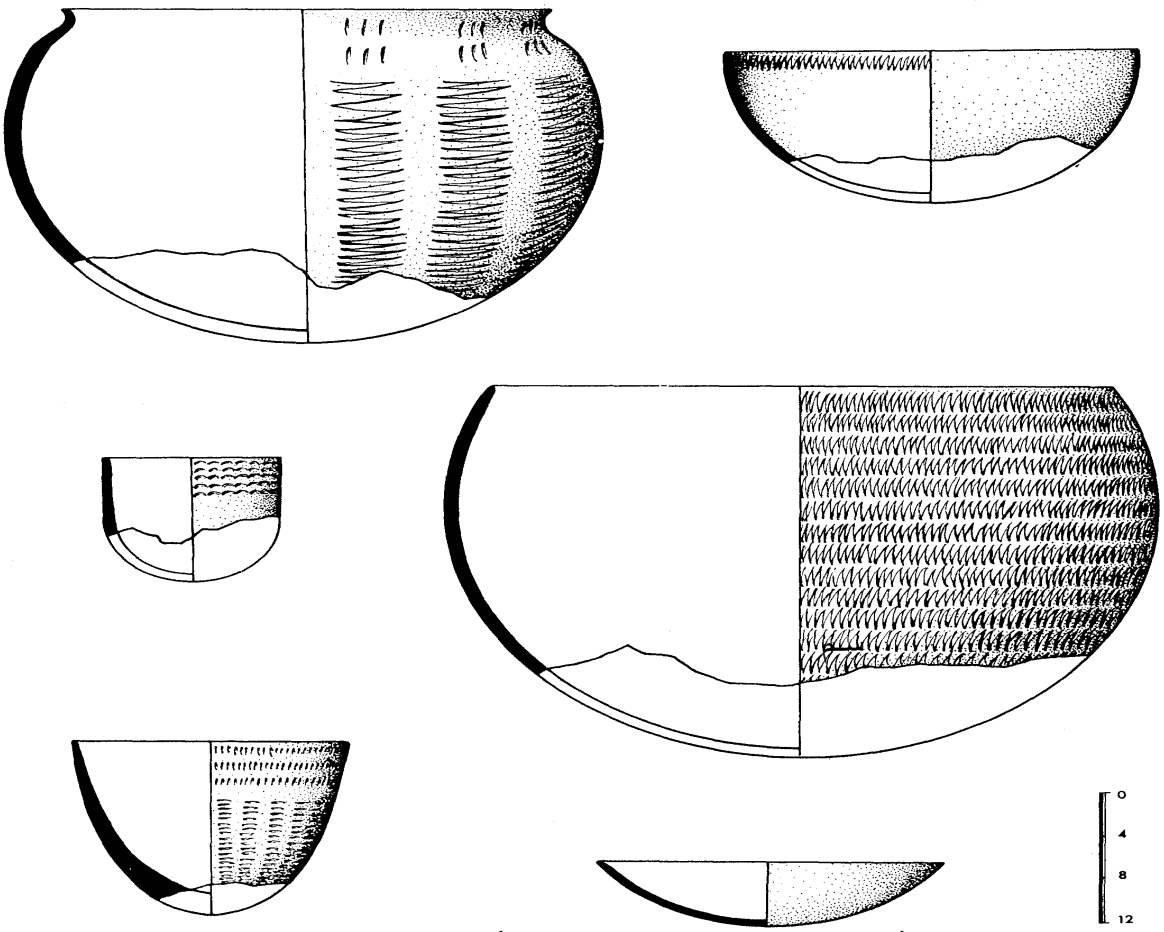

شكل رقم04: أواني متنوعة الأشكال عثر عليها بأمكني.

المرجع : . G.Camps, Amekni, p 108

ج/ صناعة الحلي و الزينة

من خلال البقايا الأثرية لإنسان ما قبل التاريخ يبدو ظاهرا ولعه بالحلي و أدوات الزينة متمثلة في عقود و أساور تزيينها الرسوم و النقوش[60].

و خلال العصر الحجري الحديث أقبل النيوليتيون أكثر على أدوات الزينة و الحلي رغم كونها من الكماليات فقد كانت دافعا أساسيا على تجارة المسافات البعيدة إذ حاولوا الحصول على المواد الثمينة لصناعة حليهم من عاج و عقيق و نحاس[61].

كانوا خبراء في صناعة الحلي، خاصة الحجرية منها ، من العقيق الأحمر(وهو حجر صلب جدا) و الأمازونيت و الهيماتيت (حجر الدم) ، وحجر اليمان مما يدل على معرفتهم المتطورة في زمانها وخبرتهم في هذا المجال[62].

فأدوات الزينة والحلي بموقع المنية كثيرة ومتنوعة مثل الشفاتير[63] من العظم ، وحلقات نظم العقود من أصداف بيض النعام ، واللؤلؤ من الأمازونيت ، والخلاخل من الحجر والنياط من العظم ذات الثقبين[64].

فمن خلال موقع أمكني تم العثور على بعض الحلي ممثلة في نياط مثقوبة أحدها عبارة عن عظمة سلامى لضأن و ناب لخنزير بري، وعظم لحيوان مجتر صغير شكله شبه منحرف واجهته الداخلية مصقولة بأكملها، والجوانب الثلاث الخارجية تحمل تحزيزات خفيفة منسقة،إضافة الى نظم العقود من قشور بيض النعام ومن أصداف الميدية[65]، بالإضافة الى الأساور و الخلاخل التي عثر عليها بأمكني (دوائر حجرية نصف قطرها الداخلي من 3.5 الى 4.5 سم لتزيين الأيدي و الأرجل) و الخلاخل من العاج والحجارة[66].

أما بموقع المنية فتم العثور على قطعة مجوهرات مصنوعة من الأمازونيت،شكل05 نموذج5، والحقيقة قلما يعثر على مثلها بالصحراء الجزائرية ،لندرة وجود هذه المادة، بالإضافة الى 114 عقد من أصداف بيض النعام المقطعة الى قطع صغيرة منضدة.(شكل05 نماذج1.2.3) أما التزين بالألوان فيمكننا الإستشهاد بما عثر عليه بحفرية باقينا 5 و يتعلق الأمر بمغرة حمراء وأخرى شهباء مائلة الى الحمرة محفوظة بلوحة صغيرة مستديرة أو بجوف قضيب خشبي و تصنع عادة من أوكسيد المنغنيز مضافا إليه مسحوق طباشيري ، و هي تستخدم كصبغة تجميلية يخضب بها الوجه[67].

كان ولع النيوليتون السودانيون واضحا بتزيين أجسامهم سواء بالحلي و أدوات الزينة على إختلاف أنواعها، من أساور وخلاخل وعقود و شفاتير أو نياط ، وقد تعدى ذلك الى تلوين أجسامهم و تخضيب وجوههم بالمغرة ذات الألوان المختلفة.

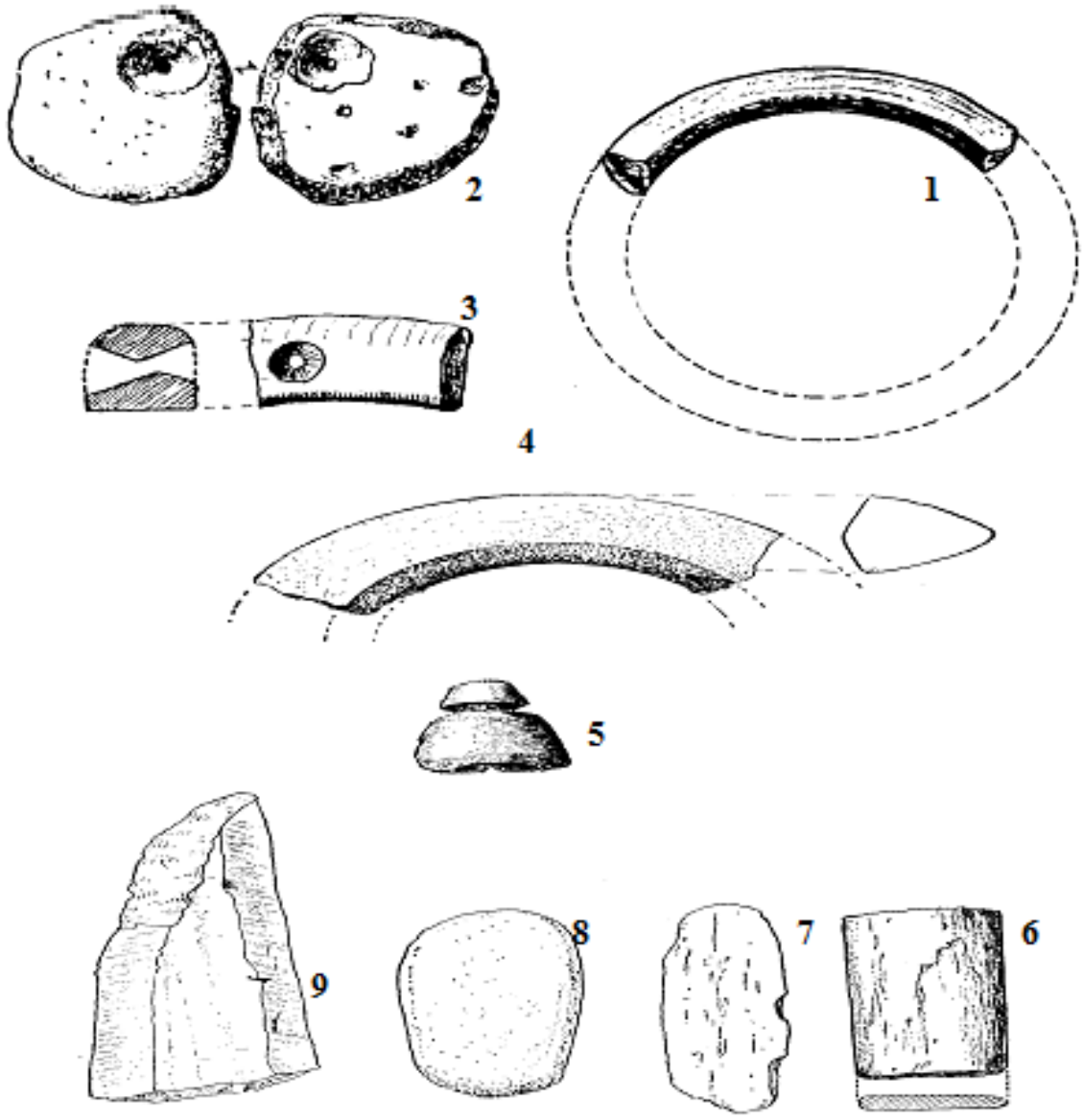

شكل رقم 05 : بعض أدوات الزينة بالمنية.

1 ،3، 4 – قطع من أسوار حجرية . 2– لوحة مصقولة من الهيماتيت عليها ثقب التعليق.

5 – أداة غريبة . 6 ، 7، 8 – عصي مصقولة من الشيست. 9 – قطعة كبيرة من الكوارتز الشفاف.

المرجع : H.j.Hugot, Recherches préhistoriques p 124,126

رابعا: الصيد و القنص

يبدو أن القنص أخذ أهمية متزايدة من خلال بقايا الأسماك المتراكمة، التي يعثر عليها بغزارة في الحفريات الواقعة على حواف البحيرات،ومجاري المياه، وللعثور على أدوات متخصصة، بحرفة القنص ،مثل الصنانير، و الخطاطيف العظمية و العاجية (شكل رقم 6)[69].

إن وفرة بقايا الأسماك المكدسة المترامية ، التي عثر عليها بالمنية أكبر دليل على ممارسة سكان هذا الموقع لحرفة القنص[69] وكذلك هو الحال بعين قزام حيث عثر الدكتور هـ.مارشان على العديد من إبر صنانير القنص[70].

وتبقى أهم بقاياهم الغذائية متكونة من بقايا سمك الجري (سمك نهري بلا حراشف)، وعظام السلاحف، وفرس النهر[71]، وكماشات السرطانات الأرضية وأنواع عديدة من الأصداف والرخويات التي تعيش في المياه العذبة[72].

لقد كان سكان أمكني على سبيل المثال، خلال الألفية السادسة قبل الميلاد يقنصون على حواف الوادي(وادي أمكني) المزدحم بالنساء والأطفال ، يقنصون سمك الجري وسمك الفرخ، إما بواسطة قفاف خاصة بصيد السمك أو عن طريق إقامة سدود صغيرة تتم غربلة مياهها بالسلال المعدة خصيصا لذلك[73].

من خلال البقايا العظمية بأمكني يمكننا وضع قائمة للحيوانات البرية التي كانوا يصطادونها وتتمثل في الخنازير البرية نوع فاكوشيروس أوتيوبيكوس ومن البقريات جاموس هموأسيروس، وحيرم أسيلافوس بسيلافوس ومن فصيلة الماعز، الأروية صنف أموتراكوس ليرفيا والظباء والغزلان خاصة صنف دركاس (شكل رقم 06)، بالإضافة الى بعض الحيات خاصة من نوع كوبرا و بيتيس أوريانتاس و الضفادع و السلاحف و من القوارض الجرابيع و الجرذان و الفئران[74].

فلقد بقي الصيد يحتل أهمية كبيرة بين رجال أمكني، ويتفننون في إختيار الطرائد المتنوعة وفضلوا إصطياد الغزلان بواسطة الفخاخ النصف دائرية أما الكب[75] من صنف ريدونكا REDUNCA و الخنزير أبو قرنين، و الجاموس القديم فكانوا يفاجئونها عند قدومها للشرب عند ضفاف الوديان أو يحفرون لها حفر مغطاة بالأغصان فيقبضون عليها بعد سقوطها فيها[76] كما كان الصيد بواسطة القوس والرمح واسع الإنتشار بينهم[77].

شكل رقم06 :-1- صنارة و قطعة خطاف (المنية). -2- كلب الصيد (السلوقي)، جبارن. -3- صياد يصطاد ظبيا بالقوس و الرمح (جبارن). المرجع : H.j.Hugot ,le sahara avant le désert,p p 113, 117.

إن البقايا التي يعثر عليها بمقرات النيوليتيين السودانيون غنية دوما ببقايا الثديات والكائنات المائية من سرطانات ورخويات و أسماك، مما يدل على أن نظامهم الغذائي اللحمي، متنوع للغاية و لا يعرف المحرمات في بعض الأحيان إذ عثر في إحدى الطبقات العائدة لهذا النيوليتي على قطع جمجمة بشرية محطمة بضربة من حجرة و عليها آثار الطبخ[78] و ندرة هذا النوع من البقايا يوحي بأن ممارسة أكل اللحوم البشرية ربما تكون قد وقعت في حالات نادرة ،لم تعرف ملابساتها.

وعلى هذا النحو بقيت حرفتي الصيد و القنص في مياه البحيرات العذبة بجنوب شرق صحرائنا الجزائرية متواصلة بين النيوليتيين السودانيون ، كما أثبتت ذلك بقايا ركام العظام المصطادة البرية و المائية بمواقع أمكني و المنية ، رغم ممارستهم للرعي وكثرة رؤوس مواشيهم.

خامسا: الفن

تتركز الرسوم الصخرية بالصحراء في منطقتي الهقار والطاسيلي حتى أنه لكثرتها إعتبرها البعض متحفا كبيرا في الهواء الطلق ، إذ تجاوزت رسومها الخمسة عشر ألف رسم[79].

وكان للألماني هـ. بارت H.Barth [80] السبق في إكتشاف رسوم منطقة الطاسيلي سنة 1850، لتتوالى الإكتشافات بعد ذلك و المعاينة بطرق غير منظمة حتى سنة 1956 ، إذ تم تعيين الباحث الفرنسي هنري.لوت H.Lhote على رأس بعثة علمية للقيام بدراسة الرسوم الصخرية بالصحراء الوسطى[81].

ومن المناطق التي حضيت بدراسة وافية على يده كانت منطقة وادي جرات و الطاسيلي ناجر، بالإضافة الى بعض المواقع الأخرى بمرتفعات الهقار[82].

ففي الطاسيلي ناجر توجد محطات الرسوم الكبرى في أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جانت و نذكر منها صفار ، جبارن ، تامريت، تان زوميتان، بينما يعد مرتفع تفيديست بالهقار من أغنى الأماكن بالرسوم و النقوش بالإضافة الى مواقع أخرى بالقرب من مدينة تمنراست (الأشكال07، 08)[83].

وحسب ج.ماتر J.Maitre فإن هذه الرسوم بالمرتفعات الجنوبية الشرقية، ترجع في قسمها الأول حسب الترتيب الكرونولوجي الى الفترة النيوليتية السودانية، و قسم منها الى الفترة التاريخية، حيث أن ظهورها الأول كان مع موجة النازحين الصيادين السودانيين الى المنطقة (الذين سكنوا جنوب غرب الهقار) حوالي ما بين الألف السابعة و الخامسة قبل الميلاد[84].

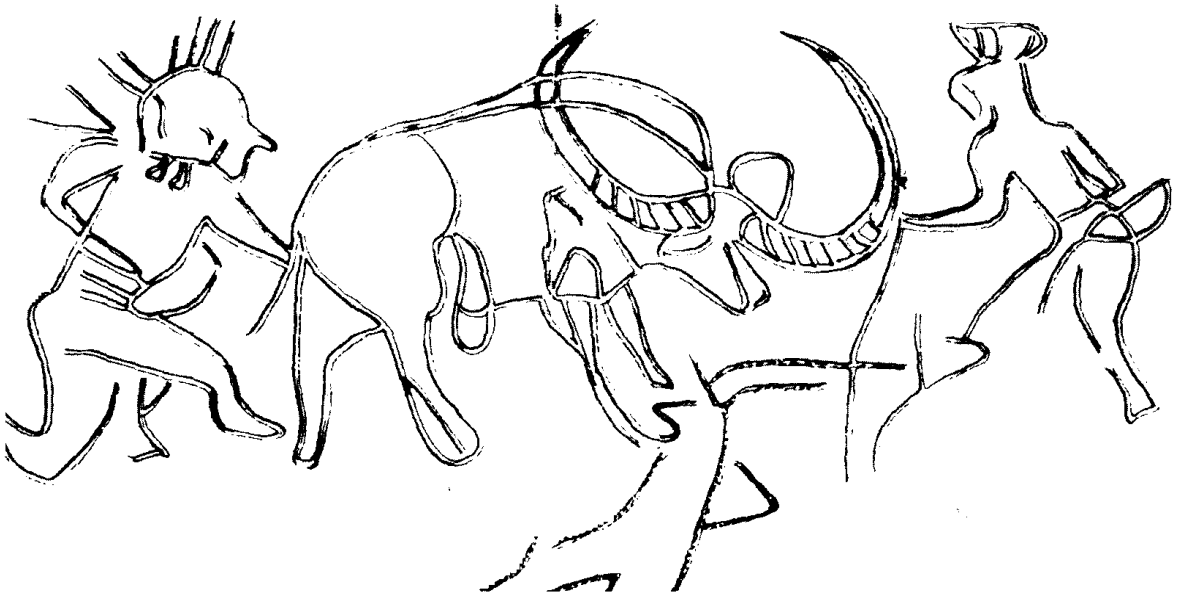

شكل رقم 07 : مرحلة الحيرم.

المرجع : A,ferrah, L'algerie civilisations anciennes du sahara, p 166.

شكل رقم 08: مشهد من الحياة اليومية (مرحلة الرعاة).

المرجع : A,ferrah, L'algerie civilisations anciennes du sahara, p200.

لا توجد رسوم صخرية بالصحراء سابقة للفترة النيوليتية على الأطلاق ، إذ يبدو أن أول هذه الرسوم ترجع بالتقريب الى الفترة ما بين 5000 و 4000 قبل الميلاد، إذ تم وضع أطرها الزمانية، عن طريق ربطها بتواريخ الصناعات الحجرية المتوضعة بقربها[85].

أما المراحل التي تم بها فن الرسم الصخري فيمكن تقسيمها كالتالي[86]:

1 – مرحلة الحيرم، و تسمى بفترة عصر الصيادين، تميزت بنقوش جميلة و بأسلوبها الواقعي، أما أغلب الحيوانات التي مثلت فكانت من الفصيلة الأثيوبية ، على رأسها الحيرم (شكل07)و الفيل ، وحيد القرن، الزرافة، وحتى التمساح، أشكالها متناهية في الكبر والصغر، فزرافة من وادي جرات تزيد قامتها عن ستة أمتار ، أما وحيد القرن من تين أفلفين لايتجاوز سبعين سنتمترا[87].

2 _ مرحلة البقارة (الرعاة) ، ربما أدى الإكثار من رسم الثيران منفردة أو في قطعان الى إطلاق هذه التسمية عليها ، كذلك رسمت حيوانات أخرى هي في مجملها حيوانات إستوائية مثل وحيد القرن فرس النهر الزرافة الضباء الحمار الوحشي النعامة والأسماك ، الى جانب هذا رسمت النساء رفقة أطفالهن وقدور الطبخ أمامهن ، ومشاهد الحوار العائلي بينهن وبين أزواجهن (الشكل 09) ، هؤلاء الرعاة مسلحين في بعض الأحيان بالفؤوس ، يبدو أن أصولهم من أعالي النيل بناء على رسومات ذات تأثيات مصرية[88] (الشكل،09).

ولقد شغلت المرحلة الأولى (الحيرم) الفترة الممتدة ما بين 5000 الى 4000 قبل الميلاد تقريبا ، بينما الثانية شغلت جوهر الفترة النيوليتية حوالي 4000 الى 1000 قبل الميلاد على أكثر تقدير[89] .

ما يمكن الجزم به أن الرسوم الصخرية كانت لهدف ما ، وأنها لم ترسم من باب العبث، إنها عمل بديع ترجمت إرادة لخلق رسوم دائمة تسجل أحداث تنطق عبر الزمن [90]، لاشك أن هناك دوافـع حفزت النيوليتين الصحراويين على رسم هذه الصور و النقوش الجميلة، وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الإقرار أنها ستكون من باب التخمين و الإستنتاج لا أكثر:

1 . كانت بقصد التمتع والتلذذ ، أي بمعنى الفن لأجل الفن .

2 . دوافع سحرية أو دينية.

3 . تخليد مشاهير الصيادين ، حيث يتلقون منهم مكافآت إضافية من اللحم[91] .

4 . الحاجة الى التواصل مع الآخرين أفرادا كانوا أو جماعات[92].

ما يمكن إستنتاجه من هذه النقوش و إستخلاصه من هذه الرسوم يمكن إجماله فيما يلي:

– تبين مدى التقدم و الإزدهار الحضاري الذي بلغه النيوليتين ، نظرا لتناسق الرسومات و قوتها التعبيرية و روحها الجمالية.

– كما تعتبر الرسومات دليلا ماديا واضحا على ما كانت تعج به الصحراء الجزائرية من حياة و سكان وحيوانات مختلفة الأنواع ، و تضيف لنا دليلا ماديا عن مراحل تقلب المناخ من الممطر الى شبه الجاف ،ثم الى الصحراوى القاحل.

– تصور جوانب من النشاطات الحياتية للنيوليتين الإجتماعية، و الإقتصادية ، و الثقافية.

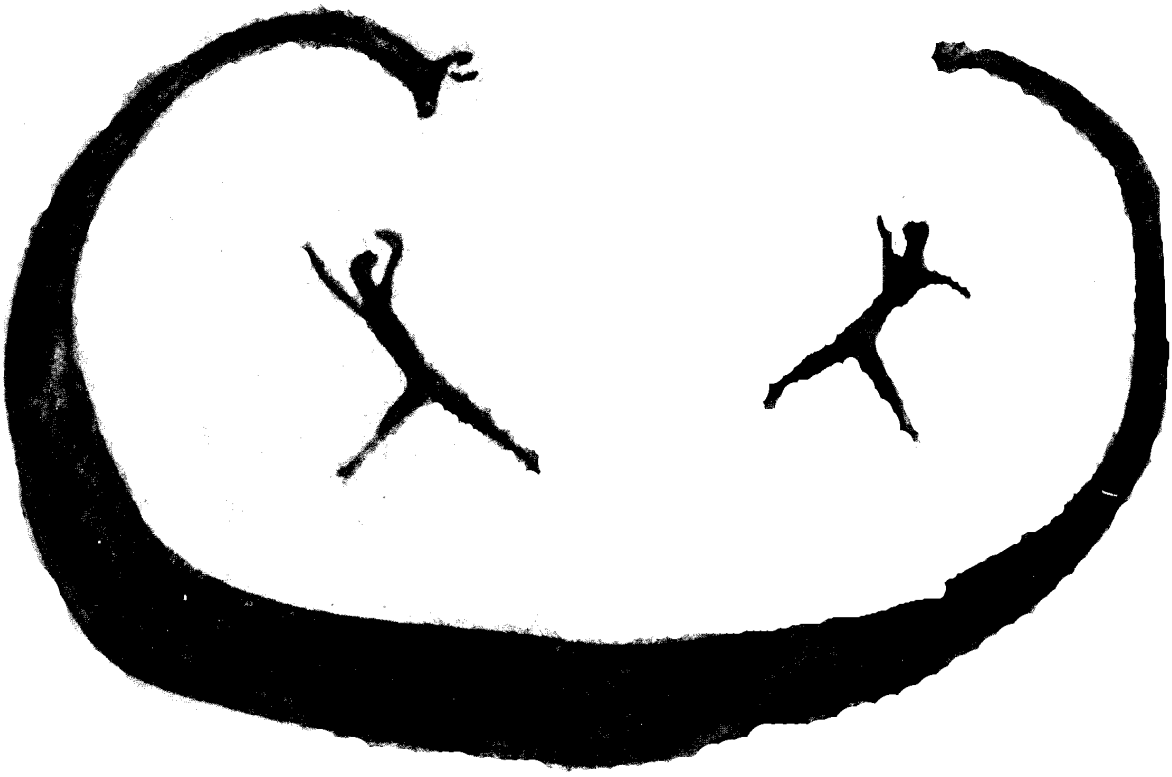

شكل رقم 09: قارب شبيه بالقوارب المصرية

المرجع : H.Lhote, A la découvert des fresques du tassili, pp 24, 56.

الخاتمة

لقد مرت الصحراء مثل غيرها من مناطق العالم العديدة بفترة نيوليتية خلال مراحل تطورها الحضاري في عصور ما قبل التاريخ حيث تفاعل الإنسان النيوليتي الصحراوي بأقصى الجنوب الشرقي مع البيئة الصحراوية الشاسعة المحيطة به من خلال نموذج النيوليتي (الصحراوي– السوداني).

و لابد من الأخذ في الحسبان بأن النيوليتي مصطلح عام يغطي ظواهر متنوعة عديدة ، حيث أن التزامن في نفس المنطقة لايعني بالضرورة تبرير التخصص في هذا المجال أو ذاك،و هذا يعني إمكانية وجود عصر حجري حديث دون وجود حجارة مصقولة مثلا، أو دون فخار، أو دون أسلحة حجرية، أو دون إحتراف الرعي أو حتى تدجين الزراعة أحيانا أخرى.

و على هذا فالأدلة المقدمة واضحة على أن حرفة الرعي قد مورست خلال هذا النيوليتي الصحراوي السوداني خاصة رعي الأبقار التي شكلت على الأقل نمطا معيشيا لأقوام الرعاة البقارة.

بينما تبقى الزراعة النيوليتية بهذا النيوليتي فرضية لغياب أدلة مادية واضحة مثل حبوب غبار الطلع ، و بذور الحبوب المتكربنة، بسبب الطبيعة الحمضية للتربة الصحراوية التي عملت على إندثارها،وإستمرت ممارسة نشاط الصيد و القنص لوفرة الطرائد البرية و الأسماك في المياه الحلوة ، وإستمر في ذلك النشاط المكمل رغم دخوله عصر الإنتاجية.

وفرة الصناعة الحجرية عدديا و غناها وتنوعها ، إذ شملت تقريبا كافة الأدوات التي تتطلبها شؤون حياة الإنسان النيوليتي منها المصنوعة من العظم و العاج و الأحجار الكريمة و صنع الفخار.

أما الفن فهو متميزا بلمساته في الرسوم الصخرية التي تنوعت مواضيعها الحياتية و رسوماتها الرائعة، و هو فن على قدر عالي من جودة التعبير و رهافة الحس.

تبدو العلاقات الحضارية بين الصحراء والشرق قائمة منذ عصور ما قبل التاريخ ، وخير ما مثل ذلك التواصل إبان فترة العصر الحجري الحديث بالصحراء عموما النيوليتي الصحراوي السوداني، في إشارة للعلاقات الحضارية بين ما يعرف اليوم بالسودان و أقصى الجنوب الشرقي الجزائري، بينما الكثير من مشاهد الرسوم الصخرية جسدت التأثير و التأثر المصري.

الهوامش:

[1] _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, (1)Téfedest centrale ,Mém, du c.r.a.p.e.17,France, 1971, p55.

[2] _ محمد سحنوني ، ما قبل التاريخ ، الجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999، ص 132.

[3] _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, p55.

[4] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques dans l'ahggar nord-occidental,Mém du c.r.a.p.e.1, paris,1963.p 185.

[5] _ C.Brahimi, Initiation a la préhistoire de l'algerie , s.n.e.d. alger ,1978 , p 74.

[6] _ ولقد تم العثور بحفرية تمنراست التي أجراها ،(J.P. Maitre) ،سنة 1965 عن قبر مزدوج تحت كهف غرانيتي يضم جثتين ، صنفتهما M.C.Chamila بأنهما من النوع السوداني (الزنجي)،أنظر: M.C.Chamla,Les Populations anciennes du sahara, p97.

[7] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques de l'Afrique du nord et du sahara ,éd doin , paris,1974p 232.

[8] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 226.

[9] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 157.

[10] _ 1µ = أي واحد ميكرومتر ويساوي حاصل قسمة 1 متر على مليون.

[11] _ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, Mém du c.r.a.p.e. 10 , paris ,1969, p188.

[12] _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert, Editions des hespèrides, Paris , France , 1974,p 175.

[13] _ إذ أن حضور الفحم بالسوية له علاقة بالإنسان لأنه هو الذي أنتجه.(الباحث)

[14] _ G.Camps, Amekni, p 184.

[15] _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, p 70.

[16] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 157.

[17] _ يبقى رأي كامبس هذا حول زراعة سكان أمكني للذرة من باب التخمين ، لأنه لم يقدم أدلة مادية على ذلك.(الباحث)

[18] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 234.

[19] _ رشيد الناضوري ، المغرب الكبير ، ج1 ، العصور القديمة ،بيروت ، دار النهضة العربية ،1981 ، ص 125.

[20] _ محمد الصغير غانم ، الملامح الباكرة لنشأة الزراعة و تطورها في بلاد المغرب القديم ، مجلة العلوم الإنسانية ، قسنطينة ، العدد 17، جوان 2002 ، ص ص 165- 166.

[21] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 226.

[22] _ هـ .ج.هوغو ، الصحراء فيما قبل التاريخ ، (الفصل الثالث والعشرون) ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلدالأول، جين أفريك ، اليونسكو ،1980 ،ص 610.

[23] _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert.p 171.

[24] _ هـ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 612.

[25] _ محمد الطاهر العدواني ، الحروب و الأسلحة في عصر ما قبل التاريخ و فجر التاريخ الى 1000ق.م، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، 1985. ص 24.

[26] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 177.

[27] _ وأصل هذه الحضارة من الطاسيلي ناجر بالصحراء الجزائرية ، وهناك إحتمال بأنها وردت من الشرق ، و لقد أطلق عليها تسمية البقارة (le bovédien) الباحث هنري لوت ، الذي قام بإجراء ربط بين رسوم الأبقار بالكهوف الصخرية ن وبقايا العظام المكتشفة ، ببعض المواقع العائدة لهذه الفترة.

[28] _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, p 57.

[29] _ محمد الطاهر العدواني ، الحروب و الأسلحة في عصر ما قبل التاريخ و فجر التاريخ .ص 24.

[30] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 236.

[31] _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, p 59.

[32] _ فؤاد محمد الصقار ، دراسات في الجغرافية البشرية ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، 1965 ط1، ص 105.

[33] _ كميل أرامبور ، نشأة البشرية ، ترجمة خليل الجر ، سلسلة ماذا أعرف ، المنشورات العربية ، ص ص 22 ، 23 .

[34] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 231.

[35] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 146.

[36] _ Ibid , p 147.

[37] _ محمد سحنوني ، المرجع السابق ، ص 133.

[38] _ هـ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 605.

[39] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.pp 155,156.

[40] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 120.

[41] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 232.

[42] _ G.Camps, Amekni, p p 27-30.

[43] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, pp 157.

[44] _ ليونال بالو ، الجزائر في ماقبل التاريخ ، ترجمة ، محمد الصغير غانم ، عين مليلة، دار الهدى ، 2005 ،ص 144.

[45] _ محمد سحنوني ، المرجع السابق ، ص133.

[46] _ ك. إبراهيمي ، تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة ، محمد البشير شنيتي و رشيد بورببة ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 ،ص 119.

[47] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 135.

[48] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 162.

[49] _ G.Camps, Amekni, p 105.

[50] _ و هي (القرع) تسمى أيضا كرنيب و هي نبات معترش من الفصيلة القرعية وثمره يصلح للتزيين ويستعمل كالقناني والأواني.

[51] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 225.

[52] _ قد تكون ثمرة الدباء أو بيض النعام ، أو قالب مصنوع من نسيج الحلفاء ،حيث يملط بعجينة الطين ، وبهذا تأخذ الآنية القالب الذي صنعت به بينما يرى آخرون أن القالب يؤخذ نصفي أي أن القالب على شكل نصف دائرة ، مما يمكن من خروج القالب بعد جفاف عجينة الطين، لذلك أنظر : H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 163.

[53]_ طريقة الحماميات : هي أن يشكل الصانع إسطوانة رقيقة من الطين ، ثم يملطها ويعطي لها شكلا حلزونيا كي تكون جسم الإناء.

[54]_ C.Brahimi,Op cit, p 73.

[55]_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 137.

[56] _ وهي على شكل نقاط متتابعة متتالية ، التي يرجع الفضل في تسميتها بهذا الإسم الى الباحث الكبير أركيل، خلال أبحاثه الأثرية بالخرطوم.

[57]_ H.C.Fabrer,Matière et art mobilier dans la préhistoire nord - africaine et saharienne, Mém du c.r.a.p.e.5, paris ,1966, p 465. Matière et art mobilier : سأرمز له لاحقا بـ

[58]_ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, p 59.

[59]_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques,p 138.

[60] _ كميل أرامبور ، المرجع السابق ، ص 28.

[61] _ ج.هاوكس و ل. وولى ، أضواء على العصر الحجري الحديث ، ترجمة ، يسري عبد القادر الجوهري ، بيروت ،مكتبة الجامعة العربية ، 1967، ص 14، 15.

[62]_ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 155.

[63]_ شفتورة : لولب أو إسطوانة مصنوعة من الخشب أو العاج إعتادت بعض الشعوب البدائية أن تعلقها في شفاهها العليا أو السفلى.(الباحث)

[64]_ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 237.

[65]_ الميدية : (Moules) وتسمى أيضا بلح البحر وهي نوع من الأصداف ، تقطع أصدافها الى قطع صغيرة وتنظم ففي عقود كنوع من الحلي وجدت نماذج لها في أمكني وفي المنية، أنظر : سهيل أدريس ، المنهل قاموس فرنسي – عربي ،بيروت ،دار الآداب ، 2003 ، ص 803.

[66] _ G.Camps, Amekni, p p 151-153.

[67]_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques,p120.

[68] _ ليونال بالو ، المرجع السابق ،ص 169.

[69] _ إن هذا التنامي في القنص ذو صلة وثيقة بالفترة النيوليتية الرطبة التي عرفتها الصحراء في الفترة مابين الألف الرابعة و الألف الثالثة قبل الميلاد ويتفق هذا مع تواريخ أمكني العليا 3550ق م، المنية 3450ق م ، أدرار تووين3200ق م.

[70] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques,p152.

[71] _ هـ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 605.

[72] _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert.pp 170, 171.

[73] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 232.

[74] _ G.Camps, Amekni, p 173.

[75] _ الكب : جواد قصير القوائم.

[76] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 234.

[77] _ هـ .ج.هوغو ، المرجع السابق ،ص 605.

[78] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, P 171.

[79] _ محمد الصغير غانم ،مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم ، عين مليلة ، دار الهدى، 2003،القديم ، ص 156.

[80] _ هنريخ بارت، رحالة وجغرافي الماني ولد في 16فيفري 1821 بمدينة همبورغ و توفي يوم 25نوفمبر1865ببرلين، أنظر:
wikipedia,Heinrich barth[En ligne], http://fr.wikipedia.org/wiki/Heinrich_Barth (23.07.2007).

[81] _ محمد الصغير غانم ، الملامح الفكرية للعصر الحجري الحديث في بلاد المغرب القديم (من خلال الرسوم الصخرية) ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة ، العدد الثامن ، 1997،ص 119.

[82] _ H.Lhote, Les gravures rupestres de l'oued djerat (tassili –n-ajjers) , Mém du c.r.a.p.e.25, alger, t1 (1975) et t 2 (1976).

[83] _ ك.ابراهيمي ، المرجع السابق ، ص 124.

[84] _ محمد الصالح بوعناقة ، فن الرسوم الصخرية في الجزائر بين الدافع ، التقنية، المراحل، رسالة ماجستير في التاريخ القديم ، إشراف عبد العزيز بن لحرش ،كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، جامعة قسنطينة ، 2001، ص 38.(لم تطبع بعد).

[85] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert. P 244.

[86] _ قصدنا هنا المراحل التي تدخل ضمن الإطار الزماني لموضوع دراستنا إذ أنه توجد مراحل أخرى تدخل ضمن فترة فجر التاريخ مثل (مرحلة الحصان) و الفترة التاريخية مثل (مرحلة الجمل)، (الباحث).

[87] _ عبد الصادوق صالح ، الفن الصخري في شمال إفريقيا ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص 15.

[88] _ H.Lhote, A la découvert des fresques du tassili, Arthaut, Paris,1973 , pp 66 , 217, 218.

[89] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert. P 248.

[90] _ SaharaNéolithique, L'art rupestre du sahara[En ligne]. http://ennedi.free.fr/, (30/12/07).

[91] _ عبد اللطيف محمد البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي ، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الأولى 1971، ص 27 ،28 .

[92] _ SaharaNéolithique, L'art rupestre du sahara[En ligne]. http://ennedi.free.fr/, (30/12/07).

قراءة تاريخية لمكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1950م

أ. عبو نجاة، جامعة البويرة، الجزائر

أسفرت نتائج التحولات التي واكبت الحرب العالمية الثانية في المغرب العربي بروز مطلب الاستقلال وعدم الاكتفاء بمطلب الإصلاحات، وكما شكلت مرحلة تأسيس جامعة الدول العربية في مارس 1945م مرحلة تاريخية هامة بالنسبة للنضال المغاربي، خاصة مع بروز مفهوم القومية والوحدة العربية في مختلف الخطابات السياسية، فكان لها تأثير بالغ على النضال السياسي للدول المغاربية، حيث نضجت الحركة الوطنية وأصبح زعماؤها ينادون بالاستقلال والتحرر، وشكلت مرحلة الأربعينيات حدا فاصلا بين مرحلة المطالب الإصلاحية ومرحلة المطالبة بالتحرر، والاستقلال واسترداد سيادة الدولة الوطنية[1]، وكما مثلت القاهرة نقطة التقاء لمناضلي الأقطار المغاربية (تونس والجزائر والمغرب الأقصى) خاصة بعد تأسيس مكتب المغرب العربي وقد عمل مناضلوه على بعث فكرة العمل الوحدوي المغاربي، وهذا بالقيام بثورة موحدة في أقطاره الثلاث لتحقيق الاستقلال الموحد[2]، وسنحاول التركيز على توضيح محطات النضال المغاربي ما بين سنتي 1947- 1956م وهذا من خلال استعراض النشاط السياسي والعسكري لمناضلي المغرب العربي لتجسيد وحدة الكفاح أمثال **عبد الكريم الخطابي** و**علال الفاسي** و**يوسف الرويسي**...، فكيف كانت جهود الوطنيين المغاربة بعد تكتلهم في القاهرة لتحقيق الاستقلال الكامل لمنطقة المغرب العربي؟ وما هي مميزات النشاط الوحدوي بالقاهرة؟ وإلى أي مدى ساهم مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي في بعث المشاريع الوحدوية والاستقلالية للمغرب العربي؟.

1: تأسيس مكتب المغرب العربي

حظيت أجهزة التنسيق والعمل المشترك المحدثة في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية، وتأسيس جامعة الدول العربية بمكانة خاصة من حيث فعالياتها النضالية وخصوبة تجربتها السياسية، إلى حد النظر إليها كمرحلة متطورة في مسيرة نضال الحركات الوطنية المغاربية، وكلحظة متقدمة في مجال التنسيق السياسي التعبوي والإعلامي[3]، وقد صممت الحركات الوطنية المغاربية على المطالبة بالاستقلال، كما مثلت هذه الحقبة أيضا بداية الحديث عن مسألة تنسيق العمل الوطني المغاربي[4] لتحقيق الاستقلال الموحد، وعدم تفاوض أي قطر من الأقطار المغاربية مع أي قوة محتلة (فرنسا أو إسبانيا)، وأن كل مبادرة عمل يجب أن تكون عامة مع استبعاد كل عمل ثوري يسلك مسلكا قطريا، ولذلك أرسل حزب الشعب وفدا إلى تونس بداية من شهر ماي 1945م للتحاور حول وحدة العمل مع أعضاء الحزب الدستوري الجديد وأعضاء الدستوري القديم، وظلت الاتصالات جارية خلال سنتي (1945 - 1946)م، وفي نفس الوقت كانت الاتصالات مع حزب الاستقلال[5] في المغرب الأقصى، والملاحظ أن هذه الاتصالات كانت قصد التنسيق على مستوى المغرب العربي من أجل وحدة النضال،

وترجمت هذه الاتصالات في الأخير بمبادرة الحركات المغاربية الثلاث بتأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة[6].

وفي بداية 1947م بدأت التحضيرات من طرف المناضلين المغاربة لتهيئة الظروف لعقد مؤتمر المغرب العربي، وانعقد خلال الفترة الممتدة من 17 إلى 22 فيفري 1947م بالقاهرة وحضره ممثلو الحركات الوطنية[7]، ومن مقررات المؤتمر إعادة تأسيس مكتب المغرب العربي[8]، واعتبر "**حسين التريكي**" تأسيس المكتب نقلة حاسمة في تاريخ الحركة التونسية، إذ أصبح الناطق باسم الحركات التحررية الثلاثة في المغرب العربي ويحرص على توحيد صفوفها ونضالها في سبيل الاستقلال[9]، وبالتالي

فإن فكرة تأسيس المكتب تعود إلى جهود المناضلين التونسيين بأوروبا، وليس إلى "**عبد الرحمن عزام باشا**"[10] الأمين العام لجامعة الدول العربية[11]، إذ ترأس هذا الأخير الجلسة الأولى للمؤتمر في 15 فيفري 1947م، وألقى كلمته أمام جمع غفير من رجال العرب وزعماء المشرق ثم تلاه الأستاذ "**عبد الكريم غلاب**"[12] من المغرب الأقصى[13].

وعالج المؤتمرون عدة مواضيع منها: الاستعمار الفرنسي والإسباني– تنسيق العمل بين الحركات الوطنية في المغرب العربي والجامعة العربية– عرض قضية المغرب العربي على الهيئات الدولية –توحيد جهود المكاتب المغاربية في مصر، وخرج المؤتمرون بقرارات في غاية الأهمية، ومنها:

1- بطلان معاهدة الحماية المفروضة على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر.

2- مطالبة الحكومات المغاربية والهيئات الوطنية بإعلان استقلال البلاد.

3- المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب العربي كلها.

4- رفض الانضمام للاتحاد الفرنسي بأي شكل من الأشكال.

5- اعتبار أيام احتلال الجزائر (05 جويلية)، وفرض الحماية على تونس(12 ماي)، وفرض الحماية على مراكش(30مارس) أيام حداد في جميع أقطار المغرب العربي.

6- تعزيز الكفاح في الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والوحدة[14].

كانت هذه المطالب المشتركة للمؤتمرين، أما على صعيد مسألة التنسيق بين الحركات المغاربية وما هو مطلوب منها في المرحلة القادمة فقد قرر المؤتمر:

ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر، إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة، وقد أوصى المؤتمر بضرورة الاتفاق على مبدأ الاستقلال التام وجلاء القوات الاستعمارية وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية المغاربية مهمتها توحيد الخطط، وتنسيق العمل للكفاح

المشترك، بالإضافة إلى توحيد المنظمات العمالية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية في الأقطار الثلاث، مع التضامن فيما بينها عن حدوث أزمات في أي قطر منها[15].

ومن قراءتنا لهذا الشق من مقررات مؤتمر المغرب العربي نلامس لأول مرة طرحا متقدما لقضية التنسيق، والعمل المشترك بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاث، كما نعاين وعيا متطورا بأهمية استثمار فكرة المغرب العربي، واعتمادها أرضية لمواجهة الاستعمار ومقاومة أساليبه، وذلك قياسا لما كان سائدا سلفان وهو تحول غير منفصل عن طبيعة التغيرات التي شهدها الفكر القومي العربي ومناخه السياسي العام[16].

وكما تناول المؤتمرون موضوع المغرب العربي والجامعة العربية، وفي هذا الشأن قرروا مطالبة الجامعة بإعلان بطلان معاهدتي الحماية على تونس ومراكش، وعدم شرعية احتلال الجزائر وتقرير استقلال هذه الأقطار مع تعيين ممثلين عنها في مجلس الجامعة، واستعمال كل وسائلها لمساعدة الأقطار الثلاث لتحقيق استقلالها الكامل،[17] كما أكد المؤتمرون على ضرورة عرض القضية المغاربية على الهيئات الدولية بإرسال مذكرات "لهيئة الأمم المتحدة" و"المجلس الاقتصادي والاجتماعي" لشرح اعتداءات فرنسا وإسبانيا على كيان المغرب الاقتصادي، والاجتماعي[18]

وفي الأخير تدارس المؤتمرون كيفية تنسيق الأعمال التي تقوم بها مختلف المكاتب المغاربية في مصر وتوحيد نشاطها وهيئاتها لتشكيل هيئة واحدة تمثل الأقطار الثلاثة، فأصدر المؤتمر القرار التالي: **"تكون رابطة الدفاع عن مراكش والوفد المراكشي في لجان الجامعة العربية ومكتب حزب الشعب الجزائري ومكتب الحزب الحر الدستوري التونسي مكتبا يسمى مكتب المغرب العربي"**[19].

ومباشرة بعد إنتهاء أشغال المؤتمر شرع ممثلو الحركات الوطنية المغاربية في تنفيذ أهم قرار والمتعلق بإنشاء "مكتب المغرب العربي"، وفي هذا الشأن تم فتح دار لتوحيد مكاتب الحركات الوطنية بالقاهرة تحت راية الهيئة الجديدة، وقد اشتمل نظام المكتب على ثلاثة أقسام وهي:

- القسم المراكشي ويضم كل من حزب الاستقلال وحزب الإصلاح
- القسم التونسي ويضم الحزب الدستوري الجديد
- القسم الجزائري ويضم حزب الشعب الجزائري[20].

2 جهود المكتب النضالية ضد الاستعمار:

وتتصدر تجربة مكتب المغرب العربي بالقاهرة مقدمة هذه الأهمية وصدارة مكانتها في حقل النضال الوطني المغاربي المشترك، وهي تجربة لم تتكون عناصرها بمصر حيث مقر المكتب وحسب، بل تراكمت في أكثر من عاصمة عربية (دمشق، بيروت) وأجنبية (برلين، نيويورك) وما نريد التركيز عليه هو المجهودات التي قام بها المكتب للتعريف بقضية الاستعمار بالمغرب، والتعبئة من أجل استقلال أقطارها[21].

عمل مكتب المغرب العربي على إنضاج نشاط الحركات الوطنية المغاربية الثلاث، وتأطير وتوجيه ممارسة نخباتها السياسية، وقد حل المكتب محل مكاتب الأحزاب الخاصة بكل قطر من الأقطار المغاربية، وأصبح الهدف الرئيسي للمكتب هو تنسيق المجهود المغاربي ضد الاستعمار، وقد عمل المكتب على توسيع نطاق الدعاية لقضايا المغرب العربي على اختلافها وبكل الوسائل الممكنة، ومنذ البداية الاولى عمل المكتب على إصدار نشرة أخبار دورية موحدة لتزويد الصحف وشركات الأخبار والأنباء بالمعلومات الصحيحة عن الظروف العامة للمغرب العربي، كما أصدر المكتب بانتظام سلسلة رسائل عرض فيها قضايا الأقطار المغاربية وأحوالها وأهدافها الوطنية وحركة المقاومة، دون أن ننسى التقارير التي يعدها ثم يقوم بتقديمها في مختلف المناسبات للحكومات العربية وغيرها[22] فأصبح المكتب الهيئة الرسمية للحركات التحررية الثلاثة الموحدة ولسان حالها، فكان له دور في فضح تصرفات الاستعمار عن طريق نشرة منتظمة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع فأغنت عن المصادر الأجنبية التي كانت المصدر الوحيد في المغرب العربي، فأصبح العالم العربي يتتبع حركة النضال في الأقطار الثلاثة، بالاطلاع على مختلف الأوضاع الداخلية، كالمجاعة التي عرفتها تونس مابين سنتي (1947-1948)م ومذبحة الدار البيضاء أفريل 1948م،... وقد أصدر المكتب عدة مؤلفات منها: "**مركز الأجانب في مراكش**" و**لأمحمد بن عبود**، وكتاب"**هذه تونس**" للمناضل **الحبيب ثامر**، و"**تونس الثائر**" لـ **علي البلهوان** ....[23]

وقد شكل النشاط الدبلوماسي الذي قام به أعضاء مكتب المغرب العربي في القاهرة عملا مشتركا، ومنسقا تنسيقا محكما سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ، وكان هذا النشاط موجها بالدرجة الأولى نحو البعثات الدبلوماسية العربية القائمة عبر الجامعة العربية بواسطة عضوين في المكتب هما: "**امحمد أحمد بن عبود**" و"**محمد الفاسي الحلفاوي التطواني**" ، وكان هذا الوفد أول وفد مغربي يلتحق بالجامعة العربية سنة 1946م منذ تأسيسها ،وقد نجح أعضاء المكتب في ربط الاتصالات بالأحزاب السياسية المصرية مهما كانت توجهاتها وبالحكومة المصرية، وحتى مع "**الملك فاروق**" حيث كانت مواقفه مؤيدة لاستقلال المغرب العربي، ولم ينحصر نشاط المكتب في القاهرة بل تجاوزت حدودها إلى مختلف العواصم العربية والإسلامية من جهة،وإلى نيويورك بصفتها مقر جمعية الأمم المتحدة من جهة أخرى.

ومن أهم المؤتمرات التي شارك فيها ممثلو مكتب المغرب العربي في القاهرة المؤتمر الثقافي العربي الأول الذي انعقد في بيروت في سبتمبر 1947م، فقدم **امحمد أحمد بن عبود** تدخلا حول أوضاع المغرب وأكد على ضرورة دعم استقلال بلدان المغرب العربي، وثم قام **الحبيب بورقيبة** بجولات في الدول العربية وأمريكا في إطار الحملات الدعائية المناهضة للاستعمار وذلك منذ بداية سنة 1948م [24].

وكما شارك وفد من مكتب المغرب العربي في المؤتمر الاسلامي الاقتصادي الأول في باكستان ديسمبر 1948م، وأدلى رئيس الوفد المغربي بتصريح سياسي للصحف الدولية وصف فيه الأوضاع

الاستعمارية في الأقطار المغاربية، ومن المعروف أن الوفد كان مكون من: "**علي الحمامي**" والدكتور "**الحبيب ثامر**" من تونس و"**امحمد أحمد بن عبود**"، والذين وافتهم المنية بعد مشاركتهم في المؤتمر إثر حادث طائرة في باكستان يوم 12 ديسمبر 1949م. إلا أن قضية استشهادهم استغلت استغلالا واسعا من طرف وسائل الإعلام في نطاق الدعاية من أجل استقلال المغرب العربي فخصصت كل من الصحف المصرية والتونسية والجزائرية والمغربية مقالات بارزة ترثي فيها الزعماء الثلاثة، [25]وقد أصبح المكتب مركز للحركة التي قامت بالتعريف بالقضية الاستقلالية والمطالبة بتحرير المعتقلين، وكما كان المكتب قبلة ومحج للوافدين من أبناء المغرب العربي، ومثل مركزا للإشعاع الفكري والإعلامي والسياسي،"[26] واعتبر عمله مرحلة متطورة في مسيرة النضال والتنسيق المغاربي المشترك،خاصة بعد استقطابه للكثير من الزعماء والسياسيين المغاربة أمثال "**محمد بن عبد الكريم الخطابي**"[27].

3 لجنة تحرير المغرب العربي

نجح مكتب المغرب العربي بالقاهرة في توحيد صفوف المناضلين المغاربة، وعمل على إنضاج الوعي السياسي والقومي لدى الحركات الوطنية المغاربية وزعمائها أمثال: "**عبد الخالق الطريس**"، و"**علال الفاسي**"[28] و"**الحبيب بورقيبة**"... وقد تعزز دور المكتب أكثر بعودة "**الأمير عبد الكريم الخطابي**" من منفاه إلى مصر[29] في 31 ماي 1947م، والتحاقه بالمكتب، حيث أعطاه نفسا جديدا ودفعا وطنيا قويا، خاصة وأنه يسعى لتحقيق فكرتين أساسيتين هما: فكرة وحدة المغرب العربي، وفكرة التحرير التام عن طريق الكفاح المسلح الشامل الموحد المستمر لكامل الأقطار المغاربية بلا تجزئة ولا مراحل[30].

وبتحرير "**الأمير عبد الكريم الخطابي**" واستقراره بمصر، كبُر الأمل لدى الحركات الوطنية المغاربية في ترجمة ما جاء في ميثاق مؤتمر المغرب العربي، خاصة ما يتعلق بالتنسيق بين الحركات الوطنية، وتنسيق العمل للكفاح المشترك، وتجسد هذا القرار فعليا على يد "**الأمير عبد الكريم الخطابي**"[31]، خاصة وأنه كان من مؤمني الكفاح المغاربي الموحد فدعا الحركات المغاربية لتوحيد وتأسيس "**لجنة تحرير المغرب العربي**"، ولتطبيق هذه الرغبة على أرض الواقع تم عقد اجتماع في سبتمبر 1947م تمت المصادقة فيه على القانون الأساسي للجنة.

وبعد الإعلان عن ظهور اللجنة أرسل رئيسها "**محمد بن عبد الكريم الخطابي**" رسالة إلى كل الأحزاب المغاربية يعلمهم بإنشاء اللجنة، ويطلب مصادقتهم الرسمية وتعيين ممثليهم فيها، وفي يوم 05 جانفي 1948م أعلن رسميا عن إنشاء لجنة تحرير المغرب العربي[32].

4 أهم المحطات التضالية للجنة تحرير المغرب العربي:

وقد كان "**للأمير عبد الكريم الخطابي**" دور هام في بعث لجنة تحرير المغرب العربي، حيث مثلت خطوة هامة وكبرى في تمثيلها لتشكيلة واسعة من القوى الوطنية المغاربية هذا من جهة، ومن جهة

أخرى من حيث القرارات والمواقف التي اتخذتها في سبيل تحقيق وحدة النضال والكفاح الوطني والمغاربي، وهذا من خلال إجماع مختلف الحركات الوطنية المغاربية على رفض نظام الاستعمار والدعوة لمقاومته بمختلف الأساليب الممكنة،[33]وبالرغم من تداخل نشاط اللجنة مع نشاط مكتب المغرب العربي، إلا أن هذا الأخير اقتصر نشاطه كثيرا علا العمل الاعلامي، في حين أن اللجنة كان من أعمالها العمل السياسي والدبلوماسي، وكانت تهدف الى أعمال أكثر ثورية في المجال السياسي، وهي العقيدة التي كان الأمير "**الخطابي**" مقتنعا بها، وهي العمل على تحقيق استقلال المغرب العربي وهو ما لمسناه من خلال تصريحه لمراسل جريدة "كونكورد الفرنسية" حيث قال: "**يجب انجاز استقلال المغرب العربي في سنة واحدة وإن امتنعت فرنسا فإننا سنلجأ الى الأمم المتحدة، و اذا لم ينصف الشعب المغاربي فسوف نحتكم الى القوة**"[34]

وقد اهتم اعضاء اللجنة بتنسيق العمل لكفاح مشترك وتوحيد الخطط،لتحقيق الاستقلال التام لجميع أقطار المغرب العربي، ومن خلال قراءتنا لميثاق اللجنة نلاحظ أنها ركزت على المفهوم القومي للمغرب العربي، إذ أدخلت عنصر الدين الاسلامي على المفاهيم القومية للمغرب العربي، وقد سعت لتوحيد الجهود ودعوة مختلف الأحزاب المغاربية للانضمام اليها، فانضمت كل من: "جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية بدمشق "، و"جمعية الدفاع عن المغرب العربي ببيروت" وانضم فيما بعد "حزب البيان الجزائري "[35].

وعليه فإن شعار الاستقلال التام قبل أي التفاوض مكن القضية المغاربية من جلب اهتمام الرأي العام العالمي، وقد شكل النشاط الدبلوماسي للأعضاء اللجنة في القاهرة عملا مشتركا ومنسقا، سواء على مستوى التخطيط أو التنديد حيث تم استغلال مختلف الهيئات والمنظمات الدولية المدافعة عن حقوق الشعوب المستعمرة ، وإثر انعقاد الدورة الثالثة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في 26 نوفمبر 1946م سارعت لجنة تحرير المغرب العربي للتعريف بالقضية المغاربية في المحافل الدولية، وقد شاركت بوفد مكون من: "**جلول فارس** " و"**أحمد مزغنة**" و" **المهدي بن بركة**" بهدف توضيح خطورة الأوضاع والممارسات الاستعمارية في المغرب العربي. وقد تضمنت العريضة المطالب التالية:

- إلغاء الأنظمة الاستعمارية الكائنة بشمال إفريقيا والإعتراف باستقلال المغرب الأقصى، تونس، والجزائر.
- إنتخاب مجلس تأسيسي في البلدان الثلاث، وضع دستور ديمقراطي بها، وتحديد المصالح المشروعة للأجانب المقمين بشمال إفريقيا ضمن السيادة الوطنية.[36]

وبالتالي فإن لجنة تحرير المغرب العربي هي صورة ثانية وموسعة لمكتب المغرب العربي، نظرا لأنها ضمت ممثلي الأحزاب المكونة لمكتب المغرب العربي، خاصة وأن زعيمها الخطابي اعطى دفعا قويا لبعث اللجنة وتركيزها النشاط الجبهوي الموحد للعمل المغاربي المسلح.

5 الخلافات الداخلية وانعكاساتها على المكتب واللجنة بالقاهرة:

وبالرغم من مكتب المغرب العربي بالقاهرة شكل مثالا حيا وطلائعيا لتحقيق أول نواة واقعية وتطبيقية للوحدة بين أبرز العناصر الوطنية، وقد انطلق نشاطه بحماس مذهل ومكثف منذ تأسيسه عام 1947م إلى نهاية عام 1949م ثم تهمش بعد ذلك، وبسب عدة عراقيل انقطع تطوره وحصر حركيته، ومنها الظروف الدولية بعد 1949م إذ قلبت التطورات التى حصلت خلال الخمسينات المعطيات السائدة في الأربعينات رأسا على عقب، فيمكننا القول أن العجلات المؤدية الى استقلال دول المغرب العربي أصبحت تدور خلال الخمسينات بسرعة مذهلة،[37]وخاصة بعد أن قرار "**الحبيب بورقيبة** " العودة الى تونس واتصاله بالسفارة التونسية بالقاهرة التى أبدى لها استعداد التفاوض مع فرنسا على أساس منح تونس الإصلاحات مقابل عقد معاهدة تخول عدة امتيازات استراتيجية واقتصادية لفرنسا،[38]والتى جاء تتويجها في مارس 1956م

بحصول كل من المغرب الأقصى على الاستقلال.

وكما كانت الخلافات الحزبية داخل المكتب من أهم اسباب ليس فقط فيما يخص العلاقات بين أعضاء المكتب من مختلف أقطار المغرب العربي، بل وحتى فيما يخص الأعضاء من نفس القطر، ويعود سبب الاصطدامات الحزبية الى مشكلة التوفيق بين مبادئ وخطة وأهداف ومصالح كل الأحزاب التي ينتمي اليها أعضاء المكتب ومبادئ وخطة وأهداف ومصالح المكتب نفسه، وعلى المستوى الاديولوجي يتجلى المشكل في الاختيار بين إعطاء الأولوية للوطن (تونس بالنسبة للتونسيين، والجزائر بالنسبة للجزائريين، والمغرب الأقصى بالنسبة للمغربيين) من جهة، أو إعطاء الأولوية للمغرب العربي ولو على حساب المصالح الوطنية، خاصة وأن بعض الظروف كانت تفرض على أعضاء المكتب الخيار بين الوطن والمغرب العربي، فتعددت الخلافات والمشاكل الحزبية والشخصية داخل المكتب.[39]

وبالنسبة للجنة تحرير المغرب العربي هي الأخرى لم تتمكن من تحقيق الأهداف التي سطرتها لنفسها، ومرجع ذلك للخلافات الشخصية والتباينات السياسية العميقة الموجودة بين أعضائها ففي حين كان الأمير الخطابي يعتبر أن تحقيق المطامح القومية للمغرب العربي تمر بالطريق الثوري وبالكفاح المسلح كأسلوب وحيد للقيادة، كان الزعماء الأخرون يتمسكون بالنضال السياسي وكانوا يقتنعون ان العمل المسلح هو وسيلة ضغط اضافية لدعم النشاط السياسي الذي هو الاساس الجوهري،[40]كما أن زعماء الحركات الوطنية المغاربية كانوا يخشون بريق الزعامة "**للخطابي**" والتفاف المناضلين الثوريين حول توجهاته الثورية، ولهذا لم يكن الزعماء المغاربة ملتزمين التزاما حقيقيا بأهداف اللجنة والمتمثلة في الاعتماد على أسلوب الكفاح المسلح.[41]

وبهذا فإن فكرة النضال المغاربي المسلح والتوجهات الوحدوية عندما وضعت على محك الممارسات الميدانية خاصة في جانبها الثوري، فإن الزعامات السياسية لم تقبل بهذا الواقع الثوري الذى دعى له "**الخطابي**"، ومنه فإن خلافات الأعضاء بالمكتب والتي عرقلت سيره الحسن على درب الوحدة، فهي نفسها التي كانت بلجنة تحرير المغرب العربي، فقد وجهت عدة تهم من طرف التونسيين (**الرشيد**

ادريس والطيب سليم) الى المراكشيين بدعوى "لهضمهم لحق لتونس داخل المكتب"، وازداد هذا الخلاف تعمقا بين الحبيب بورقيبة و"**الأمير الخطابي**"، حيت اتهم بورقيبة باستلام أموال باسم اللجنة وتصرفه فيها،[42] وقد كان ايضا مشكل الخلاف ايضا بين التونسيين أنفسهم داخل المكتب بين "**بورقيبة**" و"**الحبيب ثامر**" بسب تصرفاته التي لم ترق "**للحبيب ثامر**" خاصة وأن بورقيبة كان يريد ادارة شؤون الحزب دون رقابة وتوجيه ودون محاسب، كما اتهمه "**الخطابي**" بالانحراف والتواطؤ مع الفرنسيين ضد حركة التحرير المغاربي، فازدادت حدة الخلاف مما دفع بعض الدستوريين للاتصال "**بصالح بن يوسف**" الأمين العام للحزب الدستوري الجديد، فسافر هذا الأخير للقاهرة لتسوية الأزمة وتمكن بالفعل من المصالحة بين المجموعة التونسية والمغربية في المكتب.[43]

ومما يظهر فإن بورقيبة كان يعمل وفق وجهته القطرية الضيقة من جهة، وكان على علاقة مع المخابرات الفرنسية من جهة ثانية، كما أن المخابرات الفرنسية كانت تعمل على تقويض أركان مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة، فكانت تبعث ببعض عملائها الى القاهرة لإثارة المشاكل بين أعضاء المكتب واللجنة، وقامت ايضا بتكوين شبكة استخبارات لمراقبة نشاط مناضلي المكتب وعرقلة جهودهم الوحدوية.[44]

وهكذا فقد كانت تجربة مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي محطة هامة في مجال التنسيق السياسي والإعلامي بين دوله، ورغم كل هذا إلا أن تجربة المكتب ولجنة التحرير المغربيين لم تعمر طويلا، ولم تنجح في تحقيق هدفها الأسمى وهو الاستقلال التام لكل أقطاره عن طريق الثورة المغاربية، وهذا راجع لعدة عوامل وخلافات ايديولوجية وسياسية بين أعضاء المكتب، إلا أننا يمكننا القول بأن هذه التجربة كان لها دفع قوي في تجسيد التفاعلات النضالية للمغاربة بالمشرق العربي.

الهوامش:

[1] – مالكي أمحمد: الحركات الوطنية والاستعمار في الوطن العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، يناير 1993م وأغسطس 1994م ، ص، 328.

[2] – محمد بلقاسم: **وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا 1954 – 1975**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: شاوش حباسي، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص، 63.

[3] – أمحمد مالكي: المرجع نفسه، ص،450.

[4] – حيث تأسست جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية بالقاهرة في 18 فيفري 1944م ترأسها محمد الخضير حسين وهو جزائري الأصل تونسي الجنسية رفقة الأمير مختار الجزائري كنائب له والشيخ الفضيل الورتلاني أمين عام، اهتمت الجبهة بالتعريف بالقضية المغاربية لاطلاع الرأي العام= =الدولي والعربي على أوضاع المغرب، مستغلة فرص المناسبات الدينية وهذا من خلال المرسلات والمذكرات التي كانت توجهها للجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة سنة 1945م. للمزيد ينظر– محمد بلقاسم: **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي 1910–1950**، رسالة ماجستير، تحت إشراف أبو القاسم سعد الله، نوقشت بمعهد التاريخ الجزائر، 1996، ص–ص، 322–323.

[5] – حزب الاستقلال: تأسس في ديسمبر 1943م بزعامة أحمد بلا فريج وقد تشكل الحزب أساسا من أعضاء الحزب الوطني السابق (الذي تأسس في جانفي 1937م حين انفصل محمد حسن الوزاني عن كتلة العمل الوطني وتم تعويضه بأحمد بلا فريج) من رؤساء وأعضاء المجالس الإدارية لجمعيات قدماء تلاميذ مدن الرباط وفاس... إضافة إلى العديد من الشخصيات البارزة كالمثقفين والقضاة...، وطالب الحزب بالاستقلال ووحدة التراب... للمزيد ينظر– محمد ضريف: **الأحزاب السياسية المغربية1934 – 1975**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، المغرب، فبراير 1993، ص، ص، 63، 40، 69.

[6] – محمد بلقاسم: وحدة المغرب العربي، المرجع السابق، ص، 62.

[7] – حضره ممثلون عن رابطة الدفاع عن مراكش وعن حزب الشعب الجزائري وعن الدستوري الجديد والقديم، وهم كما قدمهم رشيد إدريس في كتابه ذكريات عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة: 1– عبد الكريم بن ثابت، 2– عبد الكريم غلاب، 3– إدريس السنوسي، 4– عبد المجيد بن جلول، 5– محمد بن عبد الله، 6 – المهدي بن صابر، 7– أحمد الوزاني، 8– أحمد مليح، 9– محمد الفاسي، 10– أمحمد بن عبود، 11– الطيب سليم، 12– الهادي السعيدي، 13– يوسف الرويسي 14 حسين التريكي 15– الحبيب ثامر 16– علالة العويتي 17–خليفة حواس 18– الشاذلي المكي 19– رشيد إدريس 20– الطاهر بن صالح، 21– أحمد المدني، 22– الأمين المدني، 23– الطيب بن أحمد. ينظر– الرشيد إدريس: **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، الدار العربية للكتاب، تونس، ص، 71.

[8]– يعود الفضل في تأسيس مكتب المغرب العربي بأروبا حسب شهادة يوسف الرويسي إلى مجموعة من المناضلين الوطنيين التونسيين المتواجدين بأوروبا ما بين سنتي (1943–1942)م، ومن بينهم يوسف الرويسي، الحبيب ثامر، الرشيد إدريس وحسين التريكي، وكان ذلك بتشجيع من الحاج أمين الحسني مفتي فلسطين الذي احتضن هذا المسعى منذ بدايته ووفر المكتب للمكتب فضاء بالمعهد الإسلامي الذي كان يديره بمدينة برلين، ثم ظهرت فروعه بباريس. ينظر– بوعلام بلقاسمي: مكتب المغرب العربي 1942–1947 – تطويرنا العمل المغاربي الموحد بين برلين والقاهرة، **الندوة المغاربية** "وحدة المغرب العربي" في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير، الرباط، 24 /26 يناير 2002 الموافق لـ 12/10 ذو القعدة 1422هـ، منشورات مجلة الذاكرة الوطنية، 2002، ص، 55.

[9]– حسين التريكي: سنمار الذاكرة، **المجلة التاريخية المغاربية**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان، تونس، العدد، 121، 2006، ص، 168.

[10]– عبد الرحمن عزام باشا: ولد في 08 مارس 1893م بالجيزة درس الطب في مصر ثم سافر إلى بريطانيا، تطوع في الجيش العثماني وحارب البلقان عام 1913م، تطوع في حركة أحمد السنوسي التي عرفت بحرب طرابلس، في عام 1923م عاد إلى مصر وبدأ نشاطه الساسي وأصبح وزيرا للأوقاف في عام 1939م، وعين أمين عام للجامعة العربية في 22 مارس 1945م إلى غاية 1952م، توفي في 02 جوان 1976م.ينظر– أحمد بشري:**الثورة الجزائرية والجامعة العربية**، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2009، ص– ص، 19 – 20.

[11]– بوعلام بلقاسمي: مكتب المغرب العربي 1942 – 1947 – تطويرنا العمل المغاربي الموحد بين برلين والقاهرة، الندوة المغاربية "وحدة المغرب العربي" في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير، الرباط، 24 /26 يناير 2002 الموافق ل– 12/10 ذو القعدة 1422هـ–، منشورات مجلة الذاكرة الوطنية، 2002.ص، 55.

[12]– عبد الكريم غلاب: ولد في فاس 1922م درس في جامع القرويين ثم التحق بكلية الأدب في القاهرة وتحصل على الإجازة في الأدب، كان له دور هام في مكتب المغرب العربي، بعد الاستقلال سنة 1956م عاد لوطنه واشتغل بالصحافة، والكتابات الروائية والأدبية، شارك في انتخابات 1977م وعين وزيرا، لكنه لم يهمل عمله الثقافي ومن أهم مؤلفاته: سبعة أبواب، دفنا الماضي، هذا الوجه أعرفه... للمزيد ينظر– مومن العمري: شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء

الكفاح الوطني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2009-2010.ص، 172.

[13] – علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط6، الدار البيضاء، 2003، ص، 376.

[14] – الرشيد إدريس: المصدر السابق، ص- ص، 81 – 82.

[15]–الرشيد إدريس: المصدر السابق، ص- ص، 87- 88.

[16]– أمحمد مالكي: المرجع السابق، ص، 454.

[17]– المصدر نفسه: ، ص، 91.

[18]– المصدر نفسه: ص، ص، 95، 99.

[19]– المصدر نفسه: ص، 101.

[20] – الهاشمي الطود: **جيش التحرير المغرب العربي 1948-1955م أعمال ملتقى مؤسسة بوضياف**، الجزائر، 11-12 ماي 2001،ص، 24.

[21] – أمحمد مالكي: المرجع السابق، ص-ص، 450-451.

[22]– الرشيد إدريس: المصدر السابق، ص- ص، 101-103

[23]– محمد بلقاسم: الإتجاه الوحدوي، المرجع السابق، ص، 376.

[24]– أمحمد بن عبود: **مكتب المغرب العربي في القاهرة ـ دراسات ووثائق ـ**،منشورات عكاظ، الرباط، 1992، ص ص، 10 .11.

[25]. المصدر نفسه: ص، 11.

[26]– نوال المتزكي: الأحزاب الوطنية المغربية ومكتب المغرب بالقاهرة، أعمال ملتقى مؤسسة بوضياف، المرجع السابق، ص- ص، 151- 152.

[27]– عبد الله مقلاتي : **العلاقات الجزائرية المغاربية إبّان الثورة الجزائرية**،ج1، دار بوسعادة للنشر، الجزائر، 2012، ص، 33.

[28]– علال الفاسي: ولد سنة 1910م بفاس درس بجامع القرويين، فتزعم النواة الأولى للعمل الوطني بفاس فاحتج على الظهير البربري سنة 1930م تعرض للاعتقال، وبعد تحريره قام بجولة إلى أوروبا سنة 1933م، أنتخب سنة 1936م رئيسا لكتلة العمل الوطني، نفي إلى الغابون سنة 1937م إلى غاية 1946م، ثم عاد إلى المغرب ليغادره إلى القاهرة سنة 1947م ليواصل منها الدعوة للقضية المغربية وتنسيق النضال المغاربي في إطار مكتب المغرب العربي، في سنة 1958م بادر بالدعوة لمؤتمر طنجة، وواصل مهامه في رئاسة حزب الاستقلال ونشاطه في التدريس الجامعي والفكري إلى أن توفي في ماي 1974م، ومن أهم آثاره الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دفاعا عن الوحدة... للمزيد ينظر- أسيم القرقري: **علال الفاسي استراتيجية المقاومة والاستعمار**، إفريقيا الشرق، المغرب الأقصى، 2010، ص، 16 وما بعدها.

[29] – أمحمد بن عبود: الجذور التاريخية لوحدة المغرب العربي – مكتب المغرب العربي في القاهرة نموذجا، الندوة المغاربية، المرجع السابق، ص، 47.

[30] – منور مروش: المناضلون المغاربة في القاهرة والكفاح المسلح في الجزائر، جيش التحرير المغاربي، المرجع نفسه، ص، 157.

[31]– عبد الكريم الخطابي: هو محمد بن عبد الكريم الخطابي من أسرة عريقة في العلم والوطنية كان والده قاضيا في إقليم الريف، ولد بأغادير سنة 1888م، أتم تعليمه بمسقط رأسه ثم قصد تيطوان، حيث واصل تعليمه الثانوي، ثم انتقل إلى مدينة فاس بجامع القرويين، قاوم الأسبان وانتصر عليهم في معركة الأنوال في ماي 1921م، ثم قاد حرب الريف ضد

الاستعمار الفرنسي، فتحالفت ضده القوات الفرنسية والإسبانية فاستسلم سنة 1926م ليتم نفيه إلى جزيرة لاروينون بالمحيط الهادي، وفي عام 1947م التحق بمصر لمواصلة نشاطه التحرري لكامل دول المغرب العربي، توفي يوم 06 فيفري 1963م بالقاهرة ودفن هناك. ينظر – علي الإدريسي: معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1985، ص، ص، 186، 191.

[32] – علال الفاسي: المصدر السابق، ص– ص، 407 – 408.

[33] – مومن العمري: المرجع السابق، ص، 188.

[34]– محمد بلقاسم: الاتجاه الوحدوي، المرجع السابق، ص، 381.

[35]– علال الفاسي: المصدر السابق، ص، ص، 412، 37.

[36]– الرشيد ادرس: المصدر السابق، ص، 141.

[37]– أمحمد بن عبود: المصدر نفسه، ص، 14.

[38]– الطاهر عبد الله: الحركة الوطنية التونسية– رؤية شعبية قومية جديدة– 1830– 1956، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ص،76.

[39]– أمحمد بن عبود: المصدر السابق، ص ـ ص، 16. 17.

[40]– محمد بلقاسم: الاتجاه الوحدوي، المرجع السابق، ص، 398.

[41]– زكي مبارك: **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي ـ اشكالية استقلال المغرب ـ** ،ط1، منشورات قيد بيرانت، الرباط، 2003، ص، 45.

[42]– محمد بلقاسم: المرجع نفسه، ص، 399.

[43]– عمار السوفي: **رؤية في الخلاف اليوسفي البورقيبي جذوره وتداعياته**، تونس، جانفي 2006، ص، ص، 25، 37.

[44]– محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص، 401.

قائمة المصادر والمراجع

1. إدريس الرشيد: ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.
2. بشري أحمد: الثورة الجزائرية والجامعة العربية، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2009.
3. بلقاسمي بوعلام: مكتب المغرب العربي 1942 – 1947 – تطويرنا العمل المغاربي الموحد بين برلين والقاهرة، الندوة المغاربية "وحدة المغرب العربي" في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير، الرباط، 24 /26 يناير 2002 الموافق لـ– 12/10 ذو القعدة 1422هـ–، منشورات مجلة الذاكرة الوطنية، 2002.
4. بن عبود أمحمد: **مكتب المغرب العربي في القاهرة ـ دراسات ووثائق ـ**،منشورات عكاظ، الرباط، 1992
5. بن عبود أمحمد: الجذور التاريخية لوحدة المغرب العربي – مكتب المغرب العربي في القاهرة نموذجا، الندوة المغاربية، المرجع السابق.
6. الطود الهاشمي: **جيش التحرير المغرب العربي 1948–1955م أعمال ملتقى مؤسسة بوضياف**، الجزائر، 11–12 ماي 2001.
7. ضريف محمد: الأحزاب السياسية المغربية 1934 – 1975، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع.
8. عمار السوفي: **رؤية في الخلاف اليوسفي البورقيبي جذوره وتداعياته**، تونس، جانفي 2006.
9. الشيخ أبو عمران وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1985.
10. الفاسي علال: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط6، الدار البيضاء، 200.

11. القرقري أسيم: **علال الفاسي استراتيجية المقاومة والاستعمار**، إفريقيا الشرق، المغرب الأقصى، 2010
12. العمري مومن: شعار الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء الكفاح الوطني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2009-2010.
13. عبد الله الطاهر: الحركة الوطنية التونسية- رؤية شعبية قومية جديدة- 1830- 1956، ط2، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس.
14. مالكي أمحمد: الحركات الوطنية والاستعمار في الوطن العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، يناير 1993م وأغسطس 1994م.
15. مبارك زكي: **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي - اشكالية استقلال المغرب** ،ط1، منشورات قيد بيرانت، الرباط، 2003.
16. المتزكي نوال: الأحزاب الوطنية المغربية ومكتب المغرب بالقاهرة، أعمال ملتقى مؤسسة بوضياف،المرجع السابق.
17. مقلاتي عبد الله: **العلاقات الجزائرية المغاربية إبّان الثورة الجزائرية**،ج1، دار بوسعادة للنشر، الجزائر، 2012.
18. مروش منور: المناضلون المغاربة في القاهرة والكفاح المسلح في الجزائر، جيش التحرير المغاربي،المرجع نفسه
19. **المجلة التاريخية المغاربية**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان، تونس، العدد، 121، 2006.

التعريف بمخطوط:" خبر قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خير الدين "

لمؤلفه خير الدين بربروس

د.لعباسي محمد، جامعة وهران 1، الجزائر

تمهيد:

يعتمد المؤرخ في أبحاثه على جملة من المصادر المتنوعة والمختلفة، فتعد الآثار الراسخة في الموقع الأثري، والظاهرة للعيان أو المغمورة تحت التراب واحدة منها، إذ تُعرف بالسجلات، أو الدفاتر الصامتة، التي تحكي للمؤرخ . إذا استنطقها . جوانبا مهمة من حياة البشر، الذي استوطن هذا الموقع، ولاستخلاص المعلومات التاريخية من هذه الشواهد توجد مناهج ووسائل خاصة لذلك.

وهناك وسيلة أخرى يستعملها المؤرخ في الوصول إلى الحقيقة التي يبحث عنها، هي الرواية الشفوية التي تعتبر رافدا مهما للمعلومات التي يحتاجها الباحث في التاريخ، في ظل غيّاب الوثائق المختلفة التي تتكلم عن موضوعبحثه.

أما النوع الأخير من المصادر التي يستعملها الباحث في انجاز عمله، هي الوثائق المختلفة، من تقارير بوليسية وغيرها، ووثائق إدارية، وكتبا سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة، وأحيانا تكون بعض الكتب في حكم المفقود، لا يعلم الباحث مكان وجوده، وأحيانا أخرى تختلط عليه عناوين المؤلفات، فيذكر الكتاب بغير عنوانه، أو ينسبه إلى غير مؤلفه، مثلما هو الحال مع كتاب " **خبر قدوم عروج إلى الجزائر وأخيه خير الدين** " الذي كثرت مسمياته، وجهُلت نسبته،فأحيانا يُنسب إلى خير الدين بربروس، وأحيانا أخرى إلى مؤلف مجهول، لذا جاءت هذه المقالة، للتعريف لهذا الكتاب مع بيان أهميته، ونسبته إلى مؤلفه خير الدين بربروس، بعد استظهار بعض القرائن والدلائل على ذلك.

أ- نسبة المخطوط إلى مؤلفه:

لا توجد في المخطوط أيّة إشارة، تدلّ على اسم مؤلفه، وكل ما يوجد في آخر ورقة منه، هو أنّ مفتي مدينة الجزائر ابن علي[1] هو الذي أمر بترجمته من اللغة التركية إلى العربية في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي. وهناك عدة دراسات اعتمدت على هذا المخطوط، ولكنها لم تحدد مؤلفه، فيذكرونه على أساس أنّه مجهول، مثل دراسات الأستاذ أبي القاسم سعد الله[2] ، والأستاذ ناصر الدين سعيدوني[3] ، وغيرهما.

أمّا محمود علي عامر فيذكر: أنّ هناك نسخا موجودة في تركيا مكتوبة بخط يد خير الدين، لأنّه هو الذي " دوّن معاركه البحرية والبرية... كما أنّ الخط يؤكد أنّه خط خيرالدين"[4]. وهناك قول آخر يذكر أن خير الدين هو الذي أملى كتاب " غزوات عروج وخير الدين " على كاتبه سنان[5]

ولكن ألفاظ هذا المخطوط لا تدل على أن خير الدين هو الذي كتبه أو أملاه، فالضمير المستعمل فيه هو ضمير الغائب، ولو كتبه خير الدين بنفسه أو أملاه لأستعمل لفظ المتكلم، فعوضا أن نجد في المخطوط: " عزم خير الدين" أو" أراد خير الدين" وغيرها من الألفاظ، نجد: " عزمت" أو "أردت".غير أن الكاتب لم يذكر المصادر التي اعتمد عليها في ذكر أخباره، بل يتحدث عن الوقائع، وكأنّه كان حاضرا فيها.

وبالمقابلة للنسخة المترجمة من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية من طرف الدكتور محمد دراج[6]، مع النسخ المتوفرة في المكتبة الوطنية للحامة بالجزائر العاصمة، يجد الباحث أن هناك تطابق في موضوع الكتاب، مع وجود اختلاف كبير في ألفاظ النص، فبداية النسخ المكتوبة بالعربية تختلف عنها في النسخ المكتوبة باللغة العثمانية، ففي هذه الأخيرة توجد فقرة تشير إلى أن صاحب هذا الكتاب هو خير الدين بربروس، أملى نصه على كاتب يدعى " المرادي " استجابة لطلب السلطان سليم خان بن سليم خان الذي دعاه لرحلتهم من جزيرة مدلي[7] إلى الجزائر، مع ذكر الغزوات التي قام بها رفقة أخيه عروج[8].

ومن هذا كله، فإنّه إذا اجتمعت النسخ العربية مع النسخالمكتوبة بالعثمانية، وبالمقارنة بينها، يُستنتج ان هذا الكتاب هو لخير الدين بربروس، بخط كاتب له.

ب . التعريف بالمؤلف:

استنادا إلى النسخ المكتوبة باللغة العثمانية فإن كاتب هذا التأليف هو خير الدين بربروس، الذي يتحدث عن أصله في هذا الكتاب، فيذكر أنّ والده يُدعى " يعقوب " كان ضمن الجيش العثماني في جزيرة مدلي التي افتتحها العثمانيون، كما يذكر أيضا أسماء إخوته، ولكنه لا يذكر شيئا عن أمّه.

والدارس للمصادر العربية والأجنبية يجد اختلافا كبيرا في تحديد أصله، فمنهممن يرى أن أصله يوناني، ثمّ اعتنق الإسلام مثل إخوته :عروج و إلياس و إسحاق، وهذا ما ذهب إليه "الكتاب الأوربيون[9] المهتمون بإبراز الأصل الأوربي سواء أكان يونانيا أو إيطاليا أو إسبانيا، لمعظم الذين اشتهروا فيالبحرية الإسلامية بشمال إفريقيا"[10]مظهرين تفوق العنصر الأوربي على غيره، وقد تبعهم بعض الكتاب العرب[11] الذين نقلوا عنهم.

وهناك من المؤرخين العرب[12] من يذهب إلى القول :أن أصل خيرالدين من الأتراك المسلمين، كان والده يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين، الذين استقروا في جزيرة مدلي إحدى جزر الأرخبيل، "وذلك بناء على نقش موجود على رخامة كانت موضوعة على باب حصن شرشال[13] مكتوب عليها:"هذا برج شرشال أنشأه المجاهد محمود بن فارس التركي[14] في خلافة الأميرالحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بإذنهبتاريخ أربعة وعشرين وتسعمائة (1518م) " ونقش آخر على رخامة أخرى كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية : اسم أروج بن أبي يوسف يعقوب التركي"[15] . هذا أصله من جهة أبيه.

أما من جهة أمّه، فالغموض نفسه يحيط بأصله، فبعض المصادر تقول :" أن أمه كانت بنتا لأحد الرهبان الإغريق، من مدينة مدلي التي كانت بها حامية من الترك، تزوجها يعقوب بن يوسف الذي كان بهذه الحامية، بعد إذن السلطان محمد الفاتح، فأنجبت له عروجا وخيرالدين وإسحاق وإلياس .."[16] وهناك من يرى" أن أمه كانت أرملة راهب ثمّ أسلمت واسمها:كاطالنبة"[17]، ويذهب آخرون إلى أن والدة خير الدين ،" كانت امرأة أندلسية أسّرها يعقوب بن يوسف ثمّ تزوجها"[18]. والذي يستخلص من هذا كله أن خير الدين أصله تركي مسلم .

وُلد خيرالدين بمدينة مدلي، إلاّأن القليل منهم فيذكرون:" أن وفاته كانت في شهر ماي سنة1547م الموافق لسنة 954هـ، وهو في سن الثمانين"[19]، أي أن ميلاده كان في حوالي سنة871هـ-1467م، وهو نفس التاريخ بالتقريب الذي ذكرته الموسوعة العلمية أن خيرالدين ولد سنة870هـ-1466م[20].

3 - نشأته:

لقد كان يعقوب بن يوسف منخرطا في الجيش العثماني المرابط بمدينة مدلي التي تزوج فيها، وأنجب أولادا منهم خيرالدين، الذي ولد بها، ونشأ فيها نشأة إسلامية صلبة، في وقت كان الصراع فيه على أشدّه بين المسلمين والنصارى في الشرق والغرب، حيث الأندلس تتهاوى في أيدي النصارى(898هـ-1492م) فيالغرب، والقسطنطينية في يد المسلمين(857هـ- 1453م) في المشرق.فإذا كان أخوه محمد إلياس قد أختار طريق العلم ودراسة القرآن والفقه، فإن الآخرين قد اندفعوا في طريق الجهاد، واختاروا البحر ميدانا لهم في بداية أمرهما، حيث كان خيرالدين وعروج يعملان في البحر لحسابهما الخاص، فكانا يمارسان التجارة،"ولكن إسلامهما المتين هو الذي حتّم عليهم الجهاد البحري لإنقاذ المضطهدين في

الأندلس ولافتكاك بعض الموانئ التي سقطت في قبضة الإسبانيين"[21]، لقد كان خيرالدين في بداية جهاده تحت إمرة أخيه عروج، ثمّ اكتسب شهرة واسعة لمهارته وشجاعته .

4- صفاته :

امتاز خيرالدين بصفات ، لعل أهمّها:

ا- الشجاعة:تكاد تتفق معظم المصادر التاريخية على أن خيرالدين كان شجاعا لا يهاب أحدا ، وما تذكره (المصادر) على سبيل المثال لا الحصر: أنّه لما قتل إسحاق وعروج في قلعة بني راشد[22] وضواحي تلمسان على التوالي سنة 924هـ- 1518م، توجه الإسبان في جيش كبير إلى مدينة الجزائر، لمحاصرتها مستغلين الظروف التي كان يمرّ بها خير الدين، جرّاء وفاة أخويه، فوجّهوا إليه كتابا يهددونه فيه،فذكروا له ما آل إليه أخواه، فكان جواب خيرالدين :"... نحن راغبون في جهادكم،فإما الظّفر بكم، أو نحصل ما حصل إخواننا من كرامة الله سبحانه ورضوانه، فأجهدوا علينا جهدكم،.... فإنّكم لا تظفرون من الجزائر بحجر من أحجارها، وليس بيننا وبينكم إلاّ السّيف، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ...واستعد خيرالدين للقائهم غايةالاستعداد"[23]. كان هذا جواب خيرالدين للنصارى، وهو في جيش صغير مقارنة بجيش العدو، إضافة إلى ظروفه النفسية السّيئة، ورغم هذا كله إلاّ أنه كان شجاعا في محاربة الأعداء، وكان النصر في الأخير حليفا له، كما تشهد كل أعماله العسكرية سواء في الجزائر أو في البحر أو في أوربا على قوته وشجاعته[24] .

ب . ملازمة العلماء والأخذ برأيهم،فتذكر لنا بعض المصادر العربية أن خيرالدين كان يلازم العلماء، ويأخذ عنهم[25]، وكان يشاورهم في أمور كثيرة، فينفذ أحكامهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه و سلّم – دون أن يستبدّ برأيه، وهو الحاكم، ولو اختلف معهم، مثلما وقع مع الأسرى الذين أوجب القّتل في حقهم، من طرف العلماء بعد محاولتهم التمرّد، فعرض على خيرالدين مائتين ألف دينار مقابل العفو عنهم، فأخذته الشفقة عليهم، فطلب من العلماء العفو عنهم فأبوا، فنفّذ خيرالدين حكم الجماعة ولم يخالف[26].

ج – الزهد والتقوى:إن ترعرع خير الدين في حضن الجهاد، وملازمة للعلماء كما أسلفت الذكر، هي عوامل جعلت من خير الدين رجلا ذا عقيدة إسلامية متينة،باع نفسه إلى الله،فنجده مقداما في المعارك، لا يتوانى في نجدة المستنجدين به من المسلمين المستضعفين[27]، ولوعا بالجهاد لا يتقاعس لحظة في محاربة الأعداء أو المتعاونين معهم، وقبل أي عمل يقوم به، كان يبيت ليله راكعا ساجدا مبتهلا إلى الله سبحانه وتعالى مستخيرا له[28]، راغبا منه التوفيق.

د- الحلم والرأفة: فعلى الرغم من أنه كان شديدا على الكفار، يمثل مصدر رعبهم وهلعهم،إلا أنه تأخذه الشفقة على الذين يسقطون عنده من الأسرى، فيعاملهم معاملة إنسانية، فيوفر لهم المأكل والمشرب والملبس، وأحيانا يطلب من مجلس العلماء لهم العفو مثلما سبق ذكره،ونضيف إلى ذلك أن أحمد بن القاضي حينما رأى أنه لا حيلة له بعد فشله في محاولة التمرد إلا في مصالحة خيرالدين، بعث له أكابر قومه ومشايخهم يطلبون منه العفو والصفح، وكان خيرالدين رجلا حليما،وقبل ذلك منهم[29].

و – الحنكة السياسية: لقد عرف خيرالدين بحنكته السياسية، وحسن التصرف في الأمور، و"...كان يمتاز بهدوء أعصابه تجاه الأزمات التي كانت تواجهه، فهو لم يكن يعرض نفسه للخطر إلا بشكل نسبي، وبالحدود التي ترهب أعداءه، وترفعه لدى أصدقائه، وقبل القيام بتنفيذ أي عمل كان يقوم بدراسته، وفهم أبعاده، ومحصلة نتائجه، فكان يبتعد عن زج نفسه في أي خطر لا لزوم له، وبنفس الوقت إذا اتخذ قرارا ما، كان يعمل على تنفيذه تنفيذا كاملا"[30]، فبعدما قُتل أخواه، وخروج ابن القاضي عليه، وقلّة عدد جيشه، رأىأنه من الأحسن الدخول تحت حماية دولة، تمدّه بالعون، للوقوف في وجه الدولة الإسبانية من جهة، والقضاء على المتمردين من جهة أخرى، فأجمع علماء الأمة، وطلب منهم أن يدخلوا في طاعة الدولة العثمانية مقابل أن يستقر هو بينهم. هذه بعض صفاته، وما يستنتج منها أن الرّجل ذو عقيدة إسلامية متينة ظهرت في سلوكاتهوأخلاقه وأعماله.

5- أعماله :من أهم ما قام به خيرالدين ما يلي :

أ- التجارة :

تذكر بعض المصادر أن خيرالدين كان في بداية أمره تاجرا –كما ذكر آنفا –فكان غالبا ما يسافر إلى بعض المدن اليونانية والشام، فيبيع ما تحصل عليه من الغنائم[31].

ب – الوظائف الإدارية:

لقد تدرج خيرالدين في المسؤوليات الإدارية ، فبعد ما استقر بالجزائر رفقة أخيه عروج سنة 922هـ- 1516م، وفتحا ما يمكن فتحه من هذه البلاد في تلك الظروف القاسية، حيث الزّحف الإسباني على الموانئ الجزائرية، والفوضى في البلاد عارمة، فقسّم هو وأخوه الجزائر،فكانت الناحية الغربية لعروج، والشرقية لخيرالدين، فاستوطن هذا الأخير مدينة دلس[32]، وجعل معه عسكرا من جماعته، وأقرّ لهم المرتّب، ليستعين بهم على فتح ما بقي من تلك الناحية، وجعل في كل موضع من تلك الناحية نائبا من قبله[33].

ثمّ انتقل خيرالدين من مسؤول على الناحية الشرقية للبلاد، إلى أن أصبح نائبا عن عروج في حكم الجزائر، بعد توجه هذا الأخير إلى الناحية الغربية للقضاء على المتمردين، هناك أمثال أبي حمو التلمساني[34]، فقبل خروجه من الجزائر أستقدم أخاه خيرالدين من مدينة دلس، واستنابه بها[35]. ليصبح بعد وفاة أخيه عروج، قائدا أعلى للبلاد[36]، ويُمنح لقب " بيلرباي " أي باي البايات، من قبل السلطان العثماني سليم الأول[37].

وفي سنة 940هـ- 1533م أستدعي خيرالدين إلى إسطنبول من طرف السلطان سليمان الأول ليمنح لقب قبطان باشا أي أمير البحرية العثمانية، وذلك اعترافا بالمجهودات التي قام بها خيرالدين بالمغرب من جهة ولشجاعته وإقدامه ومعرفته لبلاد أوربا من جهة أخرى[38].

وخلاصة القول أن خيرالدين كان فيالبداية مسؤولا جهويا بمدينة دلس، ثمّ نائبا عن عروج في حكم الجزائر، ثمّ قائدا عاما للبلاد بعد وفاة هذا الأخير، ثمّ يصبح بيلرباي بعد انضمام الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية، ليكرم بإسطنبول ويمنح إمارة البحرية العثمانية.

6- أثاره: ترك خيرالدين في الجزائر أثارا بقيت شاهدة على أهم اعمتاله، منها:

إنشاءه مصنعا للبارود سنة 936هـ- 1529م، ليضمن مصدرا محليا للأسلحة[39]، ومن منجزاته كذلك:بناء الجسر الذي يوصل الجزيرة التي كان عليها حصن البنيون بمدينة الجزائر[40]، وأقام ضريحا على قبر الشيخ إبراهيم السلامي[41] أحد العلماء الشهداء الذين سقطوا إبّان هذا الفتح.واهتّمأيضا بتشييد المساجد، حيث قام ببناء جامع سفير في مدينة الجزائر في حي الجبل سنة 941هـ[42].

7- وفاته :

لقد اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة خيرالدين ، فمنهم من يقول أن خيرالدين توفي في شهر جمادى الأولى سنة 953هـ الموافق ل16 يوليو سنة 1546م[43] ، ومنهم من يقول أن خيرالدين توفي في شهر ماي سنة 1547م[44] الموافق لسنة 954هـ، ومنهم أيضا من يذكر تاريخ 965هـ[45] الموافق لسنة 1557م، لكنهم يتفقون حول مكان وفاته، فيذكرون أنه مات في اسطنبول، تاركا وراءه ولده الوحيد حسن، وقد ترك أموالا وفيرة، أوقفها لأعمال الخير، ودفن في المسجد الذي بناه في بيوك دره.

وعلى العموم فإن خيرالدين رجل ذو أصول ونشأة إسلامية، كان لها التأثير الحسن في شخصيته، التي ارتبط اسمها بالوجود العثماني بالمغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة بها.

ج- عنوان المخطوط:

المتصفح للنسخ المخطوطة المترجمة إلى اللغة العربية من هذا الكتاب، يجد أن عنوانها مصرح به الصفحة الأولى منها، ففي النسخالثلاث الموجودة بالمكتبة الوطنية ورد العنوان بهذه الصيغة " الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين "،أمّا معظم المؤرخين الذين اعتمدوا عليه في أبحاثهم، من أمثال الدكتور أبي القاسم سعد الله[46]، وناصر الدين سعيدوني [47]، وغيرهم، فيذكرونه بعنوان " غزوات عروج وخيرالدين" وذلك لاعتمادهم على النسخة المنشورة بالجزائر سنة 1357هـ – 1934م، من طرف المؤرخ الجزائري نورالدين عبد القادر .

وأمّا في النسخة المترجمة من طرف الدكتور دراج سوف لن يجد القارئ عنوانا صريحا لهذا الكتاب، وإنما استخلص العنوان منالعبارة التي بدأ بها وهي: "بدأت إملاء مذكرتي بأمر من السلطان سليمان القانوني.."[48]،كما تكرر لفظ " مذكرتي "في ختام هذا الكتاب ، بهذاالشكل: " وهنا يمكنني أن أضع نهاية لمذكراتي، وأختمها بحمد الله عزّ وجلّ الذي أتاح لي . أنا العبد الضعيف . فرصا عديدة مكنتني من خدمة ديني ودولتي وسلطاني"[49]، فأخذ العنوان استنادا إلى كلمة " ...مذكراتي..." من بداية الكتاب ونهايته.

أما بعض الباحثين الذين اعتمدوا على بعض النسخ المكتوبة باللغة العثمانية والموجود بتركيا، فيذكرونه بعنوان : " مذكرات خير الدين بربروس " منهم الدكتور: محمد دراج، كما نشر الكاتب التركي أرتوغرولدوزداغ هذا المخطوط سنة 1975م، تحت عنوان: " مذكرات بربروس خير الدين باشا " ثم حوّله إلى رواية بهذا الاسم[50].

د . وصف المخطوط:

لهذا الكتاب العديد من النسخ في مكتبات العالم، فالنسخ المكتوبة باللغة العثمانية منتشرة في مكتبات تركيا، وفي خزائنها المختلفة، مثل مكتبة جامعة اسطنبول، التي توجد ثلاث نسخ لهذا المخطوط، تحمل الأرقام التالية: 94، 2490، 2459 [12]، ومتحف طوب كاب سراي به نسخة ولكنها مبتورة في الأخير[51]، وفي مكتبة الفاتيكان، وبرلين ومدريد وباريس، ولندن، وفي القاهرة، وأقدم هذه النسخ المنتثرة عبر مكتبات العالم، تُعدّ النسخة الموجودة بالفاتيكان هي أقدم نسخة[52].

وتوجد في المكتبة الوطنية – الحامة – بالجزائر أربعة نسخ مخطوطة مترجمة من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية، مسجلة تحت الأرقام التالية: 1622، 2603،1623، 5035 وهذه الأخيرة موجودة في علبة المكروفيلم، وهي عبارة عن نسخة مصورة عن نسخة موجودة في رفوف المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

فالنسخة ذات رقم: 1622، بدايتها " باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم، الخبر عن قدوم عروج ريس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين بعده، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما نهاية هذه النسخة: "... وكتبه بهذا المحل الفقير على الله تعالى محمد بن أحمد بن قاسم غفر له الله تعالى ذنبه وستر بفضله عيبه وكان الفراغ منه ليلة الأحد السابعة من ربيع الثاني من عام سبعة وسبعين ومائة وألف من هجرته صلى الله عليه وسلم". وهناك عبارة قبل هذه العبارة تدل على أن هذه النسخة منسوخة عن نسخة أخرى ناسخها هو محمد بن رمضان الدلسي.

هذه النسخة في حالة جيدة، إلاّ بعض الخروم غير مؤثرة موجودة فيها. مسطرتها X201 140مم، وعدد أوراقها هو 57 ورقة، وفي كل صفحة 25 سطرا، مكتوبة بخط مغربي واضح ومقروء، بالحبر الأسود، ويستعمل اللون الأحمر في كتابة عبارة: " رجعنا إلى خبر ..." مثلما هو في ظهر ورقة 06. أو كتابة بعض العناوين، مثل: "ذكر سبب سفر خير الدين إلى خضرة السلطان.." في ظهر ورقة 35.

أما النسخة ذات الرقم: 1623 بدايتها: " باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خيرالدين نصرهم الله بعده، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما في نهاية هذه النسخة لم يكتب اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ، وزاد قولا لأحد الشعراء حين قال:"... ولله در بعض الشعراء حيث قال فيمدح عسكر الجزائر من أول قصيدة طويلة سلم على الجند الموييد بالنصر ضراغم خلق الله في البر والبحر جيش بها الإسلام قال مراده فأصبح دين الله مبتسم الثغر في ما شغلهم إلا الجهاد جزاهم الودق خيرا يهون على الحصر انتهت بحمد الله الذي لا إله إلا هو ولا ربا غيره ولا معبود سواه " .

هذه النسخة في حالة جيدة، مسطرتها X201 140مم، وعدد أوراقها هو 63 ورقة، وفي كل صفحة 21 سطرا، مكتوبة بخط مغربي واضح ومقروء، بالحبر الأسود، ويستعمل اللون الأحمر في كتابة بعض الألفاظ، منها أسماء الأعلام مثل: " خير الدين " و" السلطان.." في كل أوراق هذه النسخة.

والنسخة الثالثة ذات الرقم: 2603، بدايتها: " باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم الخبر عن قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين، وذكر أخبارهما وغزواتهما البحرية وكيفية ذلك على التفصيل". ثم يذكر أصل عروج وخير الدين، أما في نهاية هذه

النسخة زاد عبارة عن نهاية النسخة ذات الرقم:1622، وهي: "... وكان الفراغ من نسخه الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي المدعو بن طبار غفر الله ولواديه ولأشياخه ولجميع المسلمين والمسلمات والمومنينوالمومنات الأحياء منهم والأموات". هذا ما يدل على أن هذه النسخة منسوخة عن الأولى.

هذه النسخة موجودة ضمن مجموع به مخطوط: " الزهرة النائرة .." لمحمد بن رقية التلمساني، بها 63 ورقة عليها أرقام على صفحاتها ابتداء من الرقم 49 حتى الرقم 175، وكل صفحة بها 17 سطرا، مزخرفة في بداية النسخة، مكتوبة على دفتر مخطط باللون الأزرق، بخط مغربي مقروء وواضح. يستعمل اللون الأحمر في كتابة بعض الأسماء، وبعض العبارات مثل: " الحمد لله" ، " اللهم" .

ويذكر محمود علي عامر– في ترجمته لكتاب: " الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية" لمؤلفه سامح ألتر– أنّه اعتمد في هذه الترجمة على ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها: " غزوات خير الدين"، نسخة واحدة في مكتبة الطوب قابي بتركيا، ولكن هذه النسخة ناقصة، والثانية في مكتبة دار الفنون في البلد نفسه، ولكن تحت عنوان: "تاريخ الجزائر"، والثالثة موجودة في هذه المكتبة، ولكنها منظومة[53].

ومن خلال ترجمته لهذا الكتاب، والمعلومات التي قدمها فيه، لاحظت أنّ هذه النسخ التي اعتمد عليها هي نفسها مخطوط: " خبر قدوم عروج...". ويبدو أنّ هذه النسخ الأخيرة الموجودة في تركيا، هي أصل مخطوط: " خبر قدوم عروج..." .

هـ – أهميته:

لهذا المخطوط قيمة علمية كبيرة، إذ يُعتبر من أهم المصادر التي تؤرخ لبداية التواجد التركي بالجزائر، فالمصادر التي تناولت هذه الفترة لم تفصّل لنا المعلومات المذكورة في هذا المصدر، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "... قليلة هي الأخبار التي تتحدث عن سير حكام الجزائر خلال العهد العثماني، وقليل هم أولئك الحكام الذين ظفروا بعناية الكتاب المعاصرين لهم، فخلّدوهم في كتاب أو في قصيدة، ولولا الأخبار التي وردت عن خير الدين وأخيه عروج في كتاب الغزوات لما عرفنا عنهما إلا أسماءهما.."[54].

ولأهميته في تاريخ منطقة شمال افريقية خلال بداية القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي، ترجمه جون ميشال دو بردي في ما بين سنتي:1192هـ – 1778م و1194هـ –1780م، من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان:" Fondation de la Regence d'Alger,Histoire des Barberousse "، وفي كل حادثة من هذا الكتاب يقدم لها ببعض الكلمات، كما أنه يختمها بتعليق من عنده، وكثيرا ما كان يقارن بين ما جاء في المخطوط وبين ما كتبه المؤرخ هايدو عن الحدث نفسه.

ونشر هذه الترجمة السيدان: ساندر انج وفرديناند دنيس في جزئين، سنة 1253هـ - 1837م بباريس[55].

وترجم كذلك إلى اللغة المجرية من طرف جوزيف توري (JosephThurry) ، ونُشر في بودابست سنة 1896م، وإلى اللغة الإيطالية ترجمه الباحث التركي ألدوغلّوطة (Aldo Galotta) ، ونشر عمله هذا سنة 1970م،ثم الإسبانية من طرف لوبيز غومارا(F .Lopez Gomara)، وهو مترجم باللغة الإسبانية الحديثة[56].

وقد اعتمده المؤرخون العرب وغيرهم في دراساتهم التاريخية، المتعلقة بحياة عروج وأخيه خير الدين، مثل جلبي في كتابه: " تحفة الكبار في أخبار البحار" أو بالتواجد العثماني بالجزائر أو علاقة أوربا مع الجزائر، مثل محمد بن رقيه التلمساني[57] في مخطوطه: " الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكفرة ".

كما نشره الأستاذ: نور الدين عبد القادر، بالجزائر سنة 1357هـ - 1934، في كتاب من 124 صفحة، وأضاف إليه جزءا خصّه بتعليقه وإيضاحه في 20 صفحة، وقد غيّر عنوانه إلى:" كتاب غزوات عروج وخير الدين"، واعتمد على نسخة واحدة، التي تحمل رقم: 1622.

ومن الملاحظات أيضا على هذا النشر، أن الناشر أعاد كتابة المخطوط مع الإبقاء على الكثير من الأخطاء المتنوعة، الإملائية منها، و النحوية وغيرها، كما أنه أهمل علامات الوقف تماما، إلى جانب تخريج بعض الأعلام والأماكن، وشرحه لبعض الكلمات، لم يذكر مصادرها التي اعتمد عليها في ذلك، وهنا كان الغرض المطلوب ناقصا.

و - موضوعاته:

ويُعتبر مخطوط: "خبر قدوم عروج رايس إلى الجزائر وقدوم أخيه خيرالدين"، واحدا من المصادر العربية القليلة التي تتناول فترة بداية دخول الأتراك إلى الجزائر، فموضوع هذا المخطوط تاريخي بحث، ينقل مسيرة الإخوة عروج وخيرالدين من جزيرة مدلي، ووصولهما إلى تونس واستقرارهما بها، ثم دخولهما إلى الجزائر، التي ينقل لنا عنها هذا المخطوط تلك المعارك التي خاضها الإخوة إلى غاية حملة شارلكان على الجزائر سنة948هـ - 1541م، مع إهماله لبعض الأعمال التي قام بها خير الدين، فيما بين سنتي:927هـ - 1520م و931هـ - 1524م المتعلقة بفتح مدينة القل، وعنابة وقسنطينة.

فأحيانا يذكر الأحداث التي عاشها عروج وخيرالدين بالجزائر بالتفصيل، خصوصا حملات الاسبانيين على الجزائر، وكذا بعض المواجهات مع المتمردين، وسرعان ما نجده يختصر في بعض الأحيان الأخرى. معتمدا على التسلسل الزمني للأحداث مع إهماله لضبط تواريخها.

ويشير هذا المخطوط إلى الحالة السياسية للبلاد خلال هذه الفترة، فهو ينقل تنافس أبناء الأسرة الحاكمة في الدولة الزيّانية حول الحكم، ودخولهم في طاعة ملوك إسبانيا تارة، قصد أن يضمنوا لهم البقاء في السلطة، وتارة في طاعة خير الدين.

ويُبيّن كذلك الحالة الاقتصادية للبلاد، فيذكر مثلا: أن قلعة بني راشد كانت تصدّر المنتجات الزراعية إلى المدن المجاورة مثل وهران. كما يبيّن أنّ المجتمع الجزائري كان يتكون من ثلاث عناصر هم: أهل البلد، الأتراك، والأندلسيون، الذين هاجروا إلى الجزائر، حينما يذكر المشاركين في معركة من المعارك التي خاضها خير الدين في الجزائر.

ز– لغته وأسلوبه:

وتمتاز لغته بالسهولة، تميل إلى العامية، يستعمل بعض الألفاظ مثل: "الطاغية"، ويقصد بها ملك اسبانيا، وكذا كلمة: " الملاعن "، و" الكفار" ويقصد بهما النصارى، ويسمي جيش خيرالدين بـ: "جماعة الغزاة "، كما يستعمل ألفاظا عامية مثل: " تفاول " أي تفاءل، و"سقط في يد النصارى"، والصحيح هو: فسقط في أيدي النصارى، ويورد في كتابته ألفاظا تركية مثل: "صمصوم" وهو: نوع من كلاب الصيد، " الإسقالة "، ومعناها السلم[58].

أما أسلوبه فهو سردي بسيط، يمدح فيه خير الدين وجيشه، ويذّم فيه الاسبانيين، يستعمل المقابلة كثيرا، حيث يقابل صورة جيش خير الدين مع صورة جيش النصارى، قبل بدء المعركة بينهما.

وفي هذا المخطوط أخطاء نحوية وإملائية وأسلوبية كثيرة. ويكتب دون وضع عناوين ترشد القارئ، ولكنه عندما يربط حدث مع آخر قد مضى يقول:"...رجعنا إلى خبر..." ويذكر الخبر، وأحيانا لا يحدد الأشخاص الذين يذكرهم بأسمائهم، بل يكتفي بوظيفتهم فقط، كأن يقول السلطان الحفصي مثلا، دون أن يذكر اسمه، أو يذكر صاحب تلمسان، دون تحديد من هو؟

الخاتمة:

من خلال المقابلة بين النسخة المترجمة من طرف الدكتور دراج محمد، وباقي النسخ المخطوطة والموجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية، يتبّن لنا أنّ خير الدين بربروس هو صاحب هذا الكتاب، الذي أعملاه على أحد كتابه المدعو " المرادي " ، بعد أن طلب منه السلطاني سليمان القانوني بذلك، أما

عنوانه فيصح أن يكون " مذكرات خير الدين بربروس " أو " خبر قدوم عروج إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين " فالعنوان الأول باعتباره مذكرة أو تقريرا رفعه خيرالدين إلى قائده الأعلى المتمثل في شخصية السلطان سليمان القانوني، فيمكن تسمية هذا الكتاب : بـ"مذكرة" وننسبها إلى صاحبها وهو " خير الدين " أو نبقي على العنوان المذكور والمصرح به في النسخ المخطوطة، وهو العنوان الثاني لهذا الكتاب.

الهوامش:

1- محمد بن محمد بن محمد بن المهدي بن رمضان بن يوسف العلج: ولد حوالي سنة 1090هـ- 1679م، وتوفي على الأرجح سنة 1169هـ- 1755م، وهو من أسرة ذات صلة بالوظائف الرسمية تولى الفتوى الحنفية بمدينة الجزائرسنة 1150هـ-1736م، واستمر بها إلى سنة 1169هـ-1755م. وكان على صداقة متينة مع الأديب أحمد بن عمار الجزائري، وقد تبادل معه القصائد. ينظر، أبو القاسم سعد الله – تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر(16م – 20م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981،ج2، ص، ص: 300- 310.

2- مثل :كتاب" تاريخ الجزائر الثقافي – ج:02" ، وكتاب: "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر- ج: 04".

3- مثل:كتاب:" الجزائر في التاريخ- العهد العثماني" ، وكتاب: "الجزائر منطلقات وأفاق- مقاربة للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخي"، وكتاب: "ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني" .

4- سامحألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط:01، ص: 29.

5- ينظر، ابن أشنهو، دخول الأتراك إلى الجزائر، الطباعة الشعبيةللجيش، الجزائر، ص:07.

6 . محمد دراج: أستاذ دكتور بقسم التاريخ، بجامعة الجزائر2، حائز على شهادة دكتوراه من جامعة مرمرة بإسطنبول (تركيا). له العديد من المقالات المنشورة في الدوريات الجامعية بالجزائر وتركيا. شارك في العديد من الملتقيات الدولية والوطنية بالجزائر وخارجها، . قام بترجمة مذكرات خير الدين بربروس من التركية إلى العربية. كُتبت هذه الترجمة بعد لقاء خاص مع أحد أصدقاء هذه الشخصية، وهو الأستاذ: مبروك محمد، بقسم العلوم الإسلامية، جامعة وهران1، يوم 2016/01/26 في الساعة 11,00.

7-مدلي : جزيرة يونانية فتحها السلطان محمد الفاتح سنة 1457م ، وأمر بإبقاء حامية عسكرية فيها . ينظر، عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص : 27.

8. مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 01، ص:20.

9- كورين شوفالي، الثلاثون سنة الأولى لقيامدولة مدينة الجزائر1510-1541، ترجمة :جمال حمادنة، ديان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص:24.

10صلاح العقاد،المغرب العربي في التاريخ الحديث و المعاصر، مكتبة الأنجلوالمصرية،ط6، 1993، ص:19.

11- ينظر،محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991، م8، ط3، ص:106.

12 – محمد يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق:المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979، ص : 183.

13 . شرشال: مدينة كبيرة جدا وقديمة، شيّدها الرومان على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها أراضي فلاحية

ينظر، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة : محمد حجي ، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ص : 34.

14محمود بن فارس التركي: ولاه عروج على شرشال لما دخلها وجعلها تحت سلطته سنة922 هـ-1516م.

ينظر، نورالدين عبدالقادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص : 45.

15- أحمد توفيق المدني،حربالثلاثمائة، ص: 160.

16. الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى آخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1، 1990م، ص ، ص:251،252 .

17 - عبدالحميد بن أبي زياد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، ص : 38.

18-علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار النشر الإسلامية، مصر، ط1، 2001، ص: 207.

19- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة،ص :317.

20. الموسوعة العربية العلمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1999، الرياض، ط2، م4، ص: 297.

21- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعليق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص :107.

22 . قلعة بني راشد : تعرف بهذا الاسم نسبة إلى أولاد راشد بن محمد من بطون مغراوة الذين استوطنوا الجبل المطل على تلمسان، وبنوا هذه القلعة في القرن السادس . ينظر،محمد بوركبة، جوانب من مخطوط:" قلعة بني راشد للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد:01 ، 1424هـ/ 2003م ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، الجزائر، ص: 106.

23 . محمد بن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص: 78.

24 . بوشنافي محمد، الجيش الإنكشاري، رسالة ماجستير، إشراف :أ.د/بوعلام بلقاسمي، ص : 15.

25 . خبر قدوم عروج و خيرالدين، ظ و: 11.

26 . خبر قدوم عروج وخيرالدين، ظ و :11.

27 . عبدالجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م، المجلة التاريخية المغربية، العدد :03، تونس، جويلية1975، ص ص : 45،46.

28 . خبر قدوم عروج، ظ و:28.

29 . أحمد توفيق المدني،حرب الثلاثمائة، ص: 204.

30 . سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص : 71.

31 . خبر قدوم عروج وأخيه خيرالدين، ظ و: 01.

32 . دلس: مدينة بحرية بين بجاية والجزائر، بها سور حصين وآثار ومتنزهات، وبها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما لا يوجد في غيرها فهي أرض فلاحية . ينظر، أبو راس محمد الناصري المعسكري، الحلل السندسية في شأن وهران والأندلس، تحقيق :أ/سليمة بنعمر، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، دار حنين للطباعة والنشر، ص :246.

33 . ينظر، خبر قدوم عروج وأخيه خيرالدين، ظ و: 12.

34 – أبو حمو التلمساني: هو أبو حمو موسى الملقب بأبي قلمون بن محمد الرابع، انتصب على عرش تلمسان قهرا سنة 909 هـ– 1503م، فعزل ابن أخيه محمد السابع، وفي عهده عمت الفوضى في البلاد واضطرابها مما سهل على احتلال اسبانيا للموانئ الجزائرية. ينظر، عبدالرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج: 02 ، ص: 202.

35– ينظر، خبر قدوم عروج وأخيه خيرالدين، ص و: 13.

36– حنيفي هلايلي،المرسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16م و 17 م، رسالة ماجستير، إشراف :د/ عبدالحميد حاجيات، قسم التاريخ وعلم الأثار، جامعة وهران، 1999 /2000، ص : 21.

37–بوشنافي محمد، الجيش الانكشاري، ص : 19.

38– أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا ، داي الجزائر 1766– 1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص : 26.

39. درياس لخضر، المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، إشراف :د/ مولاي بلحميسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية : 89/ 1990، ص : 104.

40 . ينظر، خبر قدوم عروج، ص و : 29.

41 . الشيخ إبراهيم السلامي: أصله من مدينة بوسعادة استشهد بالجزائر في حصار قلعة البنيون الذي فرضه جيش خيرالدين على نصارى هذه القلعة في شهر رمضان سنة 936هـ/ ماي 1530.وضريحه ما زال إلى يومنا هذا المكان الذي استشهد فيه تحت قبة بناها عليه خيرالدين . ينظر، أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ج :1، موفم للنشر، الجزائر،1991، ، ص : 264.

42– نورالدين عبدالقادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص : 159.

43 .الموسوعة العربية العالمية،ص : 298.وينظر، ناصرالدين سعيدوني، ورقات جزائرية ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط :1، 2000، ص : 203.

44 . احمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة ...، ص : 317.

45 . محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران...، ص: 183.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج: 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 01 ، 1996، ص: 28.

46. ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:01، 2000، ص:81.

47. مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، ص: 214.

48. المصدر نفسه، ص: 05.

49. المصدر نفسه، ص: 20.

50. المصدر نفسه، صص: 216، 217.

51. سامح ألتر، المرجع السابق، ص: 29.

52 . مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، ص: 05.

53. ينظر في هامش، عزيز سامحألتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ص : 29.

54- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج: 02، ص: 321.

55. SANER RANG . FERDINAND DENIS , Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barberousse, Edition Bous lama , Tunis, 1984.T1 ,T2.

56- مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، ص: 06.

57 . محمد بن رقية بن عبد الرحمان الجلالي التلمساني ، توفي بعد سنة 1194هـ/ 1780م، كان من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية، قام بتصنيف في تاريخ غارات النصارى على الجزائر في كتاب " الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة". ينظر، ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1999، ص: 425.

58- ينظر، ترجمة الألفاظ التركية إلى ملحق، مجهول، غزوات عروج وخيرالدين، تصحيح وتعليق: نورالدين عبدالقادر ، الجزائر، 1934، ص: 17.

الحدائق والمنتزهات في مدينة حائل وأهميتها السياحية

د. ميمونة بنت الإمام، أستاذ مساعد في الجغرافيا، جامعة حائل

المحور الأول: الإطار النظري للدراسة:

المقدمة:

الحدائق والمنتزهات داخل المدن تعتبر من أهم مرافق السياحة التي عرفها الإنسان منذ القدم واستخدمها كوسيلة للترويج والتنزه وغالبا ما تكون قريبة من مكان سكن سكان المدن، أي أنها عبارة عن مساحة خضراء داخل المدينة. و تزايد الاهتمام بإنشاء الحدائق مع الإنسان وتطور رغباته في مجال الترويح والتنزه والتطور المدن والتحضر والتوسع الحضري وزيادة عدد سكان المدن مما أدى إلى توسع المدن في جميع الاتجاهات التي كانت تستخدم كمكان للتنزه والترويح، الأمر الذي أدى إلى تزايد الطلب على الأراضي للاستخدامات التجارية والصناعية والسكنية على حساب المساحات الخضراء[1]، مما أدى أن قضية المساحات الخضراء وقلة أماكن الترويح داخل المدن الشغل الشاغل لدى المخططين والمهتمين بالمجال. الأمر الذي جعل القائمين على تخطيط المدن يبحثون عن وسائل تمكن من توفير أماكن للتنزه والترويح مثل الحدائق والمساحات الخضراء عند تخطيط المدن وجعلها من أولويات التخطيط

لاشك أن المساحات الخضراء تعتبر من أهم وسائل حماية البيئة من التلوث مما له بالغ الأثر على الحالة الصحية للسكان و توفير الظل وزيادة في الرطوبة وتلطيف الحرارة كما تساهم في تحديد الوظائف التخطيطية للمدن حيث تعمل على تحديد أهمية الاحتياجات الترويحية للسكان جنبا إلى جنب مع الاحتياجات السكنية والخدمية..... الخ. **ومن هنا تتبلور مشكلة الدراسة المتمثلة في عدة أسئلة:**

- ✓ ماهي العوامل المؤثرة في إنشاء الحدائق العامة؟
- ✓ هل تنطبق عليها المواصفات العامة لإنشاء الحدائق؟
- ✓ هل للتزايد السكاني والانتشار العمراني اثر على نمط توزيع الحدائق العامة؟
- ✓ هل للحدائق والمنتزهات العامة دور في تنمية سياحة البيئية في مدينة حائل؟
- ✓ ما هي المشاكل والمعوقات التي تعاني منها هذه الحدائق؟

أهداف البحث: تتمثل أهداف هذا البحث في التعرف على :

- ✓ التوزيع الجغرافي للحدائق في مدينة حائل؛
- ✓ مدى الإقبال من طرف السكان على الحدائق العامة؛

- ✓ مدى تناسب مساحتها مع حجم السكان؛
- ✓ الدور الذي تلعبه الحدائق في تنمية السياحة البيئية في حائل؛

فرضيات البحث: يسعى هذا البحث لتحقيق الفرضيات التالية انطلاقا من معاجلة مشكلة الدراسة:

- ✓ أن هناك إقبال كبير من طرف السكان على الحدائق العامة
- ✓ توزيع الحدائق تبعا لمساحة الأحياء والكثافة العامة للسكان
- ✓ أن الحدائق العامة ساهمت بشكل كبير في تنمية السياحة البيئية في مدينة حائل

منهج الدراسة: بما أن كل دراسة لابد لها من منهج علمي يعتبر السبيل أو الطريق الذي يسلكه الباحث في إطار إعداد بحثه ويحدد خطواته حتى يصل إلى نتيجة معلومة لدراسته، فقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في وصف وتحليل مختلف جوانب الموضوع.

وفقا للمنهجية المتعبة وللإجابة على إشكالية البحث وتحقيق فرضيات الدراسة تم تقسيم البحث إلى عدة محاور:

المحور الأول: الإطار لنطرى للدراسة

المحور الثاني: العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية المؤثرة على إنشاء الحدائق

المحور الثالث: توزيع الحدائق على إحياء المدينة

المحور الرابع: دور السياحي الذي تلعبه الحدائق العامة

المحور الخامس: النتائج والتوصيات

الدراسات السابقة: تعتبر دراسة الحدائق العامة ومالها من دور في السياحية من الدراسات التي لم يتطرق لها الباحثين بالدراسة والتحليل إلى في السنوات الأخيرة خاصة في مدينة حائل. ومن أهم الدراسات التي تناولت جانب من جوانب الموضوع دراسة **د. صفاء صح (التوزيع الجغرافي للحدائق في مدينة حائل، 2012)** والتي تناولت التوزيع الجغرافي للحدائق في مدينة حائل وعلاقة ذالك التوزيع بالتوزيع الجغرافي للكثافات السكانية في أحياء المدينة وتعتبر أول دراسة تتناول الحدائق العامة في مدينة حائل. وهناك دراسة **(آمال الشيخ حول النشاطات الترويحية لمرتادات الحدائق من السعوديات في مدينة الرياض دراسة جغرافية1994)** وقد تناولت هذه الدراسة الأنشطة الترويحية التي توفرها الحدائق العامة للنساء السعوديات بصفة خاصة.

من أهم كذالك الدراسات التي تناولت موضوع الحدائق دراسة د. آمال بنت يحي الشيخ **(تحليل نمط توزيع الحدائق العامة النموذجية في مدينة جدة باستخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية، 2008)**والتي تناولت التوزيع الجغرافي للحدائق العامة بتطبيق نظم المعلومات الجغرافية وتحليل نمط توزيعها الجغرافي

توطين منطقة الدراسة:

تقع شمال وسط المملكة تحيط بها مناطق (القصيم – الحدود الشمالية – الجوف – تبوك – المدينة المنورة) , و تقع بين خطي طول °29غرباً ، °43.30 شرقاً. وخطي عرض °25جنوباً ، °28.45 شمالاً، ومساحتها 118.332كم بنسبة 6 % من مساحة المملكة.تقدر أعداد السكان في المنطقة أكثر من 600 ألف نسمه تقريبا[2].

تتميز منطقة حائل بجو جميل ونقي صيفاً وشتاء . وتتجاوز درجة الحرارة صيفاً 40 درجة مئوية وشتاء من 10- 15 درجة مئوية. وتنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر في بعض الأوقات، وترتفع مدينة حائل عن سطح البحر بحوالي 915 مترا، وتشتهر باعتدال الجو ونقاء الهواء[3].

خريطة رقم (1): موقع منطقة حائل

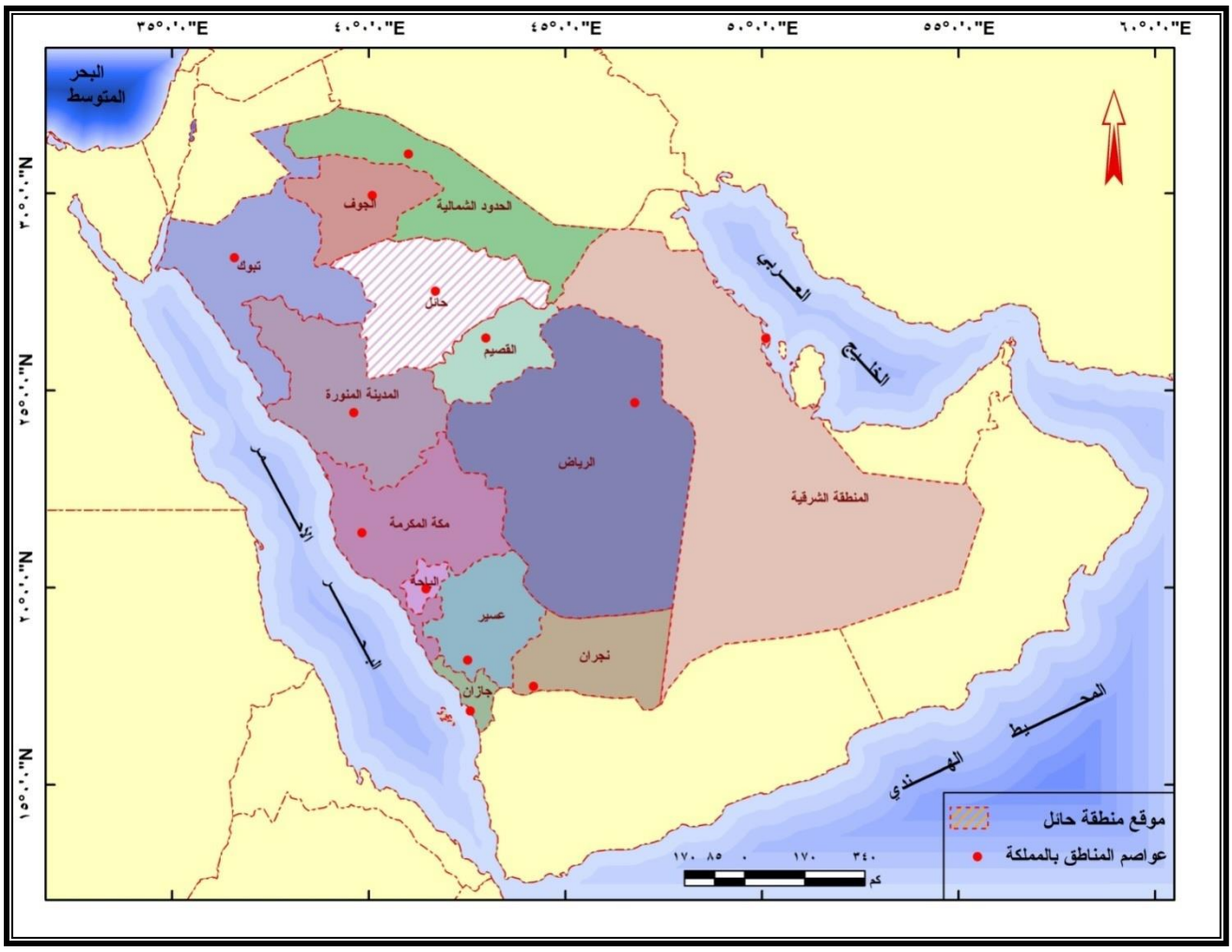

المحور الثاني: العوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية المؤثرة على إنشاء الحدائق العامة

إن الهدف من إقامة الحدائق داخل المدن يعتبر من أهم عوامل تحديد طبيعية تلك الحدائق إذ تختلف الحدائق العامة الترفيهية والرياضية عن الحديقة المنزلية و الحدائق المخصصة للألعاب الأطفال و الحدائق المدرسية و الحدائق التي تقام في المستشفيات إذ لكل منها مجموعة من المواصفات التي تتصف بها وتميزها عن غيرها من الحدائق وتؤثر على إقامة وإنشاء تلك الحدائق بمختلف أصنافها مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التي تتحكم في إنشائها، ومن أهم هذه العوامل:

1. المناخ والتضاريس :

يعتبر عاملا المناخ والتضاريس من أهم العوامل الطبيعية المحددة والمتحكمة والمؤثرة بشكل كبير إن لم تكن المحدد الأساسي لإقامة وإنشاء الحدائق والمنتزهات داخل المدن وخارجها، وذلك لأن الحدائق معرضة بشكل مباشر لتأثيرات العوامل التضاريسية و المناخية المختلفة[4]، و تتمثل العوامل المناخية في درجات الحرارة والإشعاع الشمسي والرياح التي تؤثر على إقامة الحدائق من حيث التصميم وطبيعية المباني والنباتات.....الخ. كما تعبر طبيعة سطح الأرض من العوامل الهامة المؤثرة على إنشاء الحدائق لما لها من دور في تحديد المكان المناسب من غيره، إذ يتجنب إقامة المنتزهات في الأماكن المرتفعة شديدة الانحدار والمواضع ذات التربة الهشة والمعرضة للانجراف.

2. عامل المياه والغطاء النباتي والتربة: تعتبر هذه العوامل من أهم العوامل المؤثرة في إقامة الحدائق، الماء عنصر أساسي إذ لا يمكن الاستغلاء عنه وبالتالي لابد من توفر الماء كشرط الإقامة الحديقة ، كذالك تعتبر التربة عنصر هام لما لها من دور في تحديد طبيعة نباتات الحدائق، إذ تتحكم خصائص التربة في نوعية النباتات التي ستزرع في الحديقة، كما يعتبر النبات الطبيعي ذا أهمية كبيرة جدا فكثير من الحدائق العامة عند إقامتها على موقع به نباتات طبيعية لابد من اخذ ذالك بعين الاعتبار من اجل المحافظة على تلك النباتات وتصميم الحديقة على ذالك الأساس.

3. عامل السكان : لطبيعة الساكنة دور كبير جدا ومؤثر على إنشاء وتصميم الحدائق فكل مجتمع سكاني مهما كانت نوعيته له مميزات وخصائص اجتماعية ينفرد بها عن أي مجتمع أخر من العالم، المجتمع الحائلى ككل المجتمعات له خصائص ومميزات اجتماعية كالقيم والعادات والتقاليد التي تنبعث من أصول وتعاليم العقيدة الإسلامية. ومن أهم هذه الخصائص الاجتماعية التي يتميز بها المجتمع الحائلي ولها تأثير كبير في تصميم الحدائق العامة ما يلى:

1. الخصوصية والفصل بين الجنسين .
2. الطرق المتبعة لتنزه الأسر السعودية .

3. أهمية النواحي الاجتماعية في تصميم الحدائق من حيث تحديد الاحتياجات الفعلية لمستخدمي الحدائق .

4. **القدرة المالية على إنشاء الحدائق:** لاشك أن الحدائق العامة والمنتزهات أصبحت من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها او إغفالها عند إقامة المدن أو التخطيط للتوسع العمراني بها. لذالك تتحكم دائما العوامل المادية بشكل كبير في إقامة الحدائق وإنشاءها سواء داخل المدن أو خارجا، إذ أن تصميم الحديقة، وإقامة المنشآت، وزراعة النباتات، وعمليات الصيانة، كلها عمليات تعتبر الإمكانات المادية هي المتحكمة بها. لذالك لابد من توفر القدرة المالية لكي تقام الحدائق والمنتزهات من اجل الترويح عن سكان المدن

المحور الثالث: توزيع الحدائق العامة في مدينة حائل وتطورها

بما أن الحدائق والمنتزهات العامة أصبحت من ضروريات تخطيط المدن فقد تنبهت سلطات المدينة المتمثلة في أمانة حائل لذالك مبكرا، وذالك من اجل النهوض بقطاع الحدائق وجعل المدينة من أكثر المدن السعودية اهتماما بإنشاء الحدائق والمنتزهات وصيانتها. إذ أنه في وقت وجيز وصل حدائق ومتنزهات حائل إلى ما يصل 50 حديقة ومتنزه[5]. وكان الهدف من هذه القفزة النوعية في عدد الحدائق في المدينة دليلا على الجهود الجبارة المبذولة من اجل أن تكون مدينة حائل وجهة سياحية متميزة داخل المملكة يقصدها الزوار، والسائحين والمصطافين من الداخل والخارج، وذالك لمراعاة تصميم هذه الحدائق لمختلف الجوانب الفنية وتكامل المرافق في العديد منها.

إن هذه الجهود التي أفرزت هذا التوسع الكبير في إنشاء الحدائق وزيادة أعدادها، مرت بعدة بمراحل إذ تم التخطيط لانجاز هذه الحدائق بشكل يضمن لساكنة المدينة أماكن للراحة والترويح والترفيه ومن أهم إنشاءات إدارة الحدائق العامة بالتعاون مع أمانة حائل إقامة:

1. **متنزه الأمير سعود بن عبد المحسن الجديد:** الذي يقع على الدائري الشمالي بحي المنتزه وتبلغ مساحته الإجمالية 350000 متر مربع[6]. إذ تم إنشائه على مواصفات حديثة أخذت بعين الاعتبار توفر كافة الخدمات التي يجب أن تتوفر في المنتزهات، من نباتات شكلت مسطحات خضراء، وملاعب للأطفال، وشلالات، وبحيرات، وأرصفة للمشاة من اجل ممارسة رياضة المشي، كما تم توفير جميع الخدمات والاحتياجات المطلوبة في المنتزه، مما انعكس على الطاقة الاستيعابية للمنتزه وجعله وجهة لسكان المدينة يجدون فيه الراحة والترفيه.

2. **الحديقة الرياضية:** من أهم الحدائق في مدينة حائل الحديقة الرياضية التي تقدر مساحتها ب 140000 متر مربع وتشتمل على خدمات عامة تقدمها للزوار كرصيف للمشاة وآخر

للدراجات وعدة ملاعب لكرة القدم كما تتميز بغطائها النباتي المتنوع بأشجار النخيل والزهور والنباتات المختلفة.

3. منتزه عقدة: تقدر مساحة منتزه عقدة ب 60000متر مربع، وهو منتزه جديد تم إنهاء الأشغال به في وقت قريب جدا، ويتوفر على جل خدمات المنتزهات إن لم يكن كلها. إذ يتوفر على ملاعب للأطفال وممرات للمشاة وأماكن للاستراحة وأعمال فنية على الصخور ونباتات متنوعة شكلت لوحة فنية فريدة، كل هذه الخدمات جعلت منتزه عقدة من أهم الأماكن السياحية في مدينة حائل.

بالإضافة لهذه المنتزهات الكبيرة التي تشكل معالم سياحية متميزة في منطقة حائل، هناك العديد من حدائق الأحياء السكنية داخل المدينة وموزعة على معظم أحيائها، والتي شملتها عمليات الترميم وإعادة التأهيل داخل المدينة وخارجها والتي توفر خدمة الترفيه والترويح لساكنة المدينة. من أهم هذه الحدائق حديقة الادريع الواقعة على وادي الادريع، وحديقة الأمل في حي المنتزه الشرقي، وحديقة البهجة في حي الوسيطاء وحديقة الزهور في حي الزهور، كما تم ترميم وتوسعة حديقة البادية في حي البادية، بالإضافة لحدائق حي المطار والعزيزية وحي شرف وحديقة عيرف، كل هذه الحدائق تم ترميمها وتأهيلها وتوسيعها وإقامة المنشآت والخدمات التي كانت بحاجة لها

بالإضافة لترميم وتوسيع وإعادة تأهيل الحدائق السابقة الذكر، قامت أمانة حائل بإقامة العديد من الساحات الخضراء، التي تحتوى على الملاعب الرياضية للشباب والأطفال، كالساحة الرياضية في حي أجا، وحي الزهرة وتوفير الخدمات التت تحتاجها من اجل تلبية رغبات الشباب الرياضية[7].

الحدائق والمنتزهات المنشأة والقائمة بمدينة حائل وتوزيعها الجغرافي 2015

اسم الحديقة أو المنتزه	موقعها	مساحتها م2	اسم الحديقة أو المنتزه	موقعها	مساحتهام 2
منتزه الأمير سلطان	طريق المدينة	325000	**منتزه الزيتون**	المنتزه الغربي	720000
منتزه السمراء	عامة	212556	**منتزه السلام**	عامة	159422
منتزه المغواة	شمال غرب حال	5000000	**منتزه مشار**	مشار	750000
منتزه القاعد	القاعد	100000	**حديقة صبابة**	صبابة	6850

ح. شارع الملك فيصل	شارع اللمك فيصل	826775	**ح . الحوازم الغربية**	الحوازم	8000
ح. الحوازم الشرقية	الحوازم	8000	**ح. الدفاع المدنى**	الجامعيين	5000
ح. الساعة	ش. العام	7400	**ح. الخماشية**	الخماشية	5000
ح. سديس	طريق المدينة	6000	**ح. الزبارة**	الزبارة	9900
ح. المنطقة التجارية	التجارية	5200	**ح. الراية**	المطار	1500
ح. القلعة	عامة	40000	**ح. مستشفى الولادة**	عامة	9500
ح. الاولى	عامة	3500	**ح. سماح**	عامة	10500
ح. المركز الثقافي	عامة	15600	**ح. البرج**	عامة	6000
ح. المطار 3	حي المطار	860	**ح. البريد**	الجامعيين	5000
ح. الجبلين	عامة	6000	**ح. الجامعيين**	الجامعين	8550
حديقة الحيوان	طريق المطار	3029760	**ح. الرواد**	طريق المطار	140000
ح. مستشفى حائل	عامة	4650	**ح. شراف**	عامة	2375
ح. مركز الاحتفالات	عامة	6180	**ح. شارع أبو نمر**	عامة	2265
حدائق وادي الاديرع	دائري السمراء	9500	**مسطح شلال المنتزه الشرقي**	عامة	14268
ح. المنتزه الشرقي	عامة	19534	**ح. شلال المنتزه الغربي**	عامة	3067
ح. المنتزه الغربي	المنتزه الغربي	10000	**ح. الطائي**	الطائي	15000
ح. القصور الملكية	عامة	12360	**ح. شلال الخطة**	عامة	9555
ح. المطار القديم 5	حي المطار	14145	**ح. عمارة 1**	حارة عمارة	20772

ح. حارة عمار	حارة عمار	8058	**ح. العزيزية**	العزيزية	4187
ح. البادية 1	البادية	8625	**ح. الوسيطاء**	الوسيطاء	1560
ح. هيقص	هيقص	64050	**ح. عيرف**	الزبارة	2469
ح. الخماسية	الخماشية	29155	**ح. شراف الشرقي**	الخماشية	1116
ح. كوبليت	كوبليت	3795	**ح. المطار 4**	المطار	151875
مجموع الحدائق والمنتزهات			**56 حديقة ومنتزه**		
المساحة الإجمالية			**77638،086 كلم 2**		

المصدر: إدارة الحدائق العامة في حائل 2015/11/3

رابعا: دور الحدائق والمنتزهات العامة في تنمية السياحة البيئية في مدينة حائل

1. السياحة البيئية وأهميتها:

السياحة البيئية هي عملية تعلم وثقافة وتربية بمكونات البيئة، أما السياحة المستدامة فهي الاستغلال الأمثل للمواقع السياحية من حيث دخول السياح بأعداد متوازنة لها على أن يكونوا على علم مسبق ومعرفة بأهمية المناطق السياحية والتعامل معها بشكل ودي، وذلك للحيلولة دون وقوع الأضرار على الطرفين، وتلبي السياحة المستدامة احتياجات السياح مثلما تعمل على الحفاظ على المناطق السياحية و زيادة فرص العمل للمجتمع المحلي[8].

إذن السياحة المستدامة هي نقطة التلاقي ما بين احتياجات الزوار والمنطقة المضيفة لهم، مما يؤدي إلى حماية ودعم فرص التطوير المستقبلي بحيث يتم إدارة جميع المصادر بطريقة توفر الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية، ولكنها في الوقت ذاته تحافظ على الواقع الحضاري والنمط البيئي الضروري والتنوع الحيوي وجميع مستلزمات الحياة وأنظمتها[9].

2. أنواع الحدائق في مدينة حائل وأهميتها السياحية .

من الجدول رقم (1) نجد انه لا يكاد يخلوا حي من أحياء حائل إلا وبه حديقة أو أكثر تستقبل ساكنة ذالك الحي أو الأحياء المجاورة، وتشكل هذه الحدائق قبلة للباحثين عن الراحة والترفيه ، إذ تشكل متنفس بيئي لساكنة المدينة. ويعتبر حي أجا المنتزه الغربي وحي المطار من أكثر الأحياء التي توجد بها حدائق عامة في المدينة ويرجع ذالك إلى توسع المدينة ورغبة الساكنة في إقامة الحدائق العامة التي أصبحت وجهة لا يمكن الاستغناء عنها للسكان الباحثين عن الترويح

وتختلف الحدائق العامة والمنتزهات من حيث المساحة والعناصر وأسلوب التصميم تبعا لاختلاف الوظيفة التي تؤديها الحديقة وفئات مستخدميها ولذلك تصنف الحدائق العامة إلى عدة أنواع منها:

1.2 **حدائق الإحياء السكنية:** يقام هذا النوع من الحدائق من اجل إشباع رغبة سكان الحياء السكنية في الترفيه والترويح والتنزه ويقصدها سكان الأحياء السكنية بمختلف أعمارهم، خصوصا الأطفال، وهي تتوسط الأحياء السكنية وغالبا ما يكون من السهل الوصول إليها على الأقدام من جميع أنحاء الحي[10] ومن أهم أمثلتها في مدينة حائل حديقة سماح وحديقة شارع الملك فيصل وحديقة حي البادية وحديقة حارة عمارة.....

2.2 . حدائق ومنتزهات المدن : يتميز هذا النوع من الحدائق بكبر مساحته مقارنة بحدائق الأحياء السكنية ، ونظرا لكبر مساحتها فهي توفر حرية كبيرة جدا للزوار من اجل التجوال والتمتع بالمناظر والخدمات التي تتوفر بها، إذ أن هذا النوع من الحدائق يتطلب إقامة جميع الخدمات، مما يضمن الراحة للزور كأماكن للراحة والجلوس، والوسائل الخاصة بالتسلية، وأماكن لبيع المشروبات والوجبات الخفيفة، وغالبا ما تكون يتم فيها قضاء اليوم كاملا من طرف الزوار، ومن أمثلتها حديقة الزهور وحدائق طريق المطار وحديقة الحيوان والحديقة مول.

3.2 . حديقة متنزه وطني إن هذا النوع من المنتزهات يتميز بكبر مساحته، وتوفر معظم الخدمات، واتساع المساحة المزروعة بالنباتات وتنوع الغطاء النباتي كالأشجار والزهور والمساحات الخضراء، وتتوافر هذه المنتزهات على أماكن خاصة للجلوس والراحة وأماكن لألعاب الأطفال وعدة أماكن للترفيه كما توجد بها المطاعم والكافيتريات وغيرها من وسائل الترويح المختلفة[11]. ومن أمثلتها منتزه الأمير سلطان ومنتزه مشار ومنتزه السمراء ومنتزه الزيتون، ومنتزه المغوات ومنتزه القاعد.

خريطة رقم (2): توزيع المناطق الترفيهية في مدينة حائل

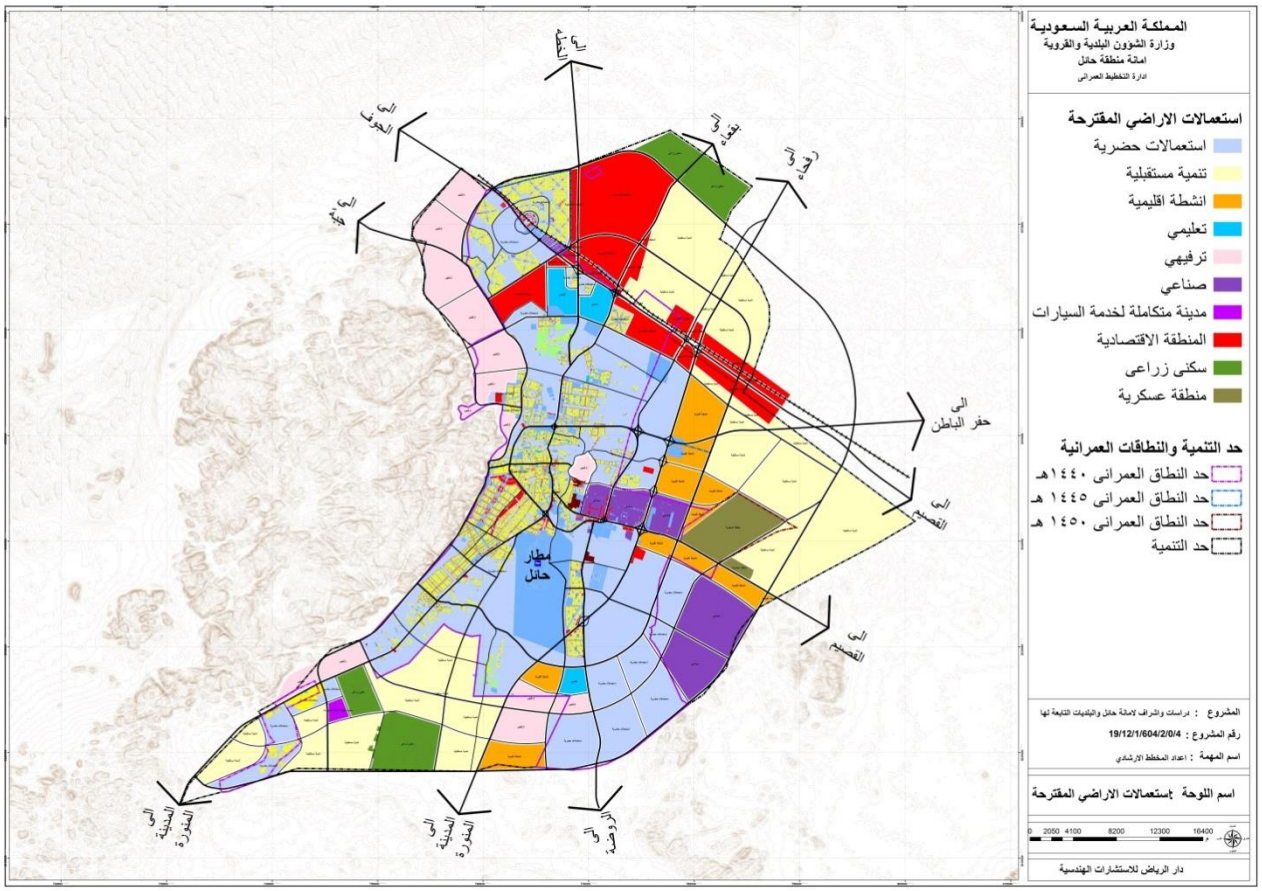

3. الحدائق العامة في مدينة حائل ودورها السياحي

إن الحائق العامة تعتبر من أهم عناصر جذب السياح وذالك من اجل إشباع رغباتهم الخاصة بالترويح والترفيه، كما أنها تشكل واجهة سياحية لأهالي وللزائرين إلى المدينة، إذ يعتبر وجهة للعديد من العائلات من اجل الراحة والترفيه، كما يتمتع الأطفال في هذه الحدائق إذ لا تخلو واحدة منها من وجود العاب خاصة بالأطفال، وتتوفر معظم الحدائق على الخدمات العامة.

ويعد الترويح ضمن الحدائق العامة نشاط من أهم الأنشطة السياحية، فالسياحة تشمل نمطين من الأنشطة، يقع الأول خارج نطاق وقت الفراغ ويشتمل على السفر للعمل ولغايات شخصية كانجاز الأعمال والاشتراك في المؤتمرات والندوات العلمية، بينما يتضمن الثاني السفر لعمل والترويح كزيارة الأصدقاء والأقارب، أو ممارسة الأنشطة الترويحية غير المحلية أو البعيدة عن المنزل[12].

مع التزايد المستمر في عدد السكان في مدينة حائل وكثرة وسائل النقل والمواصلات وكثرة والتوسع الرأسي والأفقي في الإسكان أصبحت الحاجة ملحة إلى التوسع في المساحات الخضراء.

فالحدائق بأشجارها وشجيراتها وأزهارها ومسطحاتها الخضراء مع توفر أماكن اللعب للأطفال والكبار مع السلالم والأسوار والنافورات تمثل وجه شخصية لأي منطقة سكنية.

إن المساحات الخضراء تعتبر من أهم وسائل حماية البيئة من التلوث مما له بالغ الأثر على الحالة الصحية للسكان و توفير الظل وزيادة في الرطوبة وتلطيف الحرارة كما تساهم في تحديد الوظائف التخطيطية للمدن حيث تعمل على تحديد أهمية الاحتياجات الترويحية للسكان جنبا إلى جنب مع الاحتياجات السكنية والخدمية.

ويوجد في مدينة حائل العديد من الحدائق والمنتزهات العامة المميزة التي يرتادها الجمهور ويحصلون فيها على قسط كبير من الراحة والمتعة المفيدة لقضاء أوقات فراغهم.وهذه المجموعة من المنتزهات والحدائق بذل الكثير من المال والجهد في إنشائها لكي تصل للصورة اللائقة من حيث التنسيق والتنظيم وتعدد المنافع والخدمات بها، مما يضفي عليها طابع متميز من الإبداع والجمال.. الأمر الذي يستوجب معه المحافظة عليها من حيث الإبقاء على رونقها وجمالها وحسن مظهرها والعمل على استمرار تقديم خدماتها. والسعي وراء زيادة الاستفادة منها.

المحور الخامس:الخاتمة والنتائج و التوصيات

من خلال ما تم تناوله في هذا البحث يتضح أن مدينة حائل تشهد اهتماما كبيرا بالحدائق والمنتزهات العامة لما تمثله للسكان من مجال للترويج والترفيه، والتي ساهمت إلى حد كبير في تنمية السياحة البيئية في المدينة لما تحويه من مساحات خضراء وشلالات وهواء نقي... إلا انه من الملاحظ من توزيع تلك الحدائق أن هناك نوع من عدم التساوي في التوزيع، إذ تعانى بعض الأحياء ذات الكثافة العالية من قلة الحدائق إن لم يكن عدمها في حين تنتشر الحدائق في أحياء أخرى حديثة ذات كثافة سكانية منخفضة. الأمر الذي يجعها قبلة لسكان الأحياء الأخرى.

توصل هذا البحث لجملة من التوصيات الضرورية من اجل النهوض بالحدائق العامة وما تقدمه من دور سياحي لسكان مدينة حائل

1. توزيع الحدائق العامة بشكل منظم مع مراعاة حاجة الأحياء ذات الكثافة السكانية المرتفعة؛
2. إنشاء حدائق تتناسب ومساحة الأحياء بمواصفات ومعايير أفضل من ما هي عليه الآن؛
3. المحافظة على نظافة الحدائق وتوفير معظم وسائل الترفيه والراحة داخلها؛
4. توعية رواد الحدائق بضرورة المحافظة على تجهيزات الحدائق ؛

الهوامش:

[1] . د آمال بنت يحي عمر الشيخ، تحليل نمط توزيع الحدائق العامة النموذجية في مدينة جدة باستخدام نظم المعلومات الجغرافية، الملتقى الوطني الثالث لنظم المعلومات الجغرافية بالمملكة، 7-9 ابريل 2008

[2]. أمانة منطقة حائل، وثائق عامة، بتاريخ 2015/10/25

[3].http://www.amanathail.gov.sa/Hail/HailHistory.aspx#.Vj3oe9KrTIU.

[4]. http://zr3h.mosw3a.com/arabq1074/

[5]. إدارة الحدائق العامة، إحصاءات عن الحدائق العامة، 2015/11/3

[6]. أمانة منطقة حائل، وثائق خاصة بالحدائق في مدينة حائل، بتاريخ 2015/10/25

[7]. إدارة الحدائق، وثائق خاصة بالحدائق، 2015/10/25

[8]. رايس مبروك، لحسن دردوري، خاطر طارق: دور السياحة البيئية في السياحة المستدامة ، ورقة بحثية في الملتقى الدولي حول اقتصاديات السياحة و دورها في التنمية المستدامة ،بسكرة يومي 09–10مارس 2010.ص، 6.

[9] .عصام حسن السعيدي: الدلالة و الإرشاد السياحي: الطبعة الأولى، دار الراية للنشر و التوزيع، عمان– الأردن ،2008 ،ص127.

[10]. د. احمد هلال محمد، محددات إنشاء وتصميم الحدائق في البيئة العمرانية للمناطق الصحراوية.2010.

[11]. نفس المرجع السابق

[12]. صفاء صبح صبابحة، التوزيع الجغرفي للحدائق في مدينة حائل ، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثلاثون ، ج 1، 2013، ص 410.

الموارد المعدنية لموريتانيا

(الواقع والآفاق)

لاله بنت سدي الأمين

المقدمة:

عرفت الحضارة الإنسانية عبر مراحل تطورها عصور ثلاثة اعتمدت في تقسيمها إلى مراحل، على المهارات التي أهتدى إليها الإنسان في تصنيع أدواره عبر تاريخه الطويل هي:

العصر الحجري، الذي نجهل بدايته، ويذهب البعض إلى أنه انتهى قبل 6000 سنة[1]، ثم العصر البرونزي الذي بدأ مع نهاية العصر الحجري وأنتهى قبل 4 آلاف سنة، والعصر الحديدي الذي مازال مستمرا. والحديد يمثل الفلز الأكثر إستخداما في الصناعة، في العصر الحديث، وبه قامت الثورة الصناعية مع ظهور طاقة "الفحم الحجري" .ونظرا لأهمية هذا المعدن في بناء الحضارة المعاصرة .فإن لله قد حبي بلادنا بمعادن مختلفة كان أهمها معدن الحديد الذي تأسس عليه الإقتصاد الموريتاني الحديث، وهو بمثابة العمودي الفقري للإقتصاد الوطني ما بعد قيام لدولة.

ومثلت صادراته أكثر من 40% من الدخل القومي، وهو أول مورد معدني تصدره موريتانيا إلى الخارج، ويمتاز الحديد المحلي بجودتة وإرتفاع نسبة الحديد في الخام، وبإكتشاف موريتانيا لمعادن أخرى هامة كالذهب والنحاس والكوارتز والفسفات والنفظ، أصبحت من أهم دول المنطقة ثروة معدنية .و يمكن أن تلعب هذه المعادن دورا إقتصاديا هاما ،إذا ما أستغلت إستغلالا معقلنا يعود بالفائدة على البلاد.

ونظرا لأهمية الموضوع، سأحاول من خلال هذا البحث تسليط الضوء على واقع هذه الثروة المعدنية ومقدرات البلاد منها وتطور إنتاجها ومدى مساهمتها في الناتج الداخلي الخام، وآفاقها المستقبلية والتحديات التي تواجهها، لأفتح بذلك الباب لتعميق البحث عن ثرواتنا الطبيعية ومساراتها.

واقع الثروة المعدنية

أولا/ البيئة الجيولوجية في موريتانيا

يمكن تقسيم موريتانيا جيولوجيا إلى مناطق تبعا للأقدمية وهي كالتالي[2]:

1. ظهر أرقيبات من 1900 إلى 1700 مليون سنة.
2. حوض تاودني من 650 إلى 500 مليون سنة
3. تيندوف من 470 إلى 300 مليون سنة
4. سلسلة الموريتانيد من 350 إلى 300 مليون سنة
5. الحوض الساحلي الموريتاني السينغالي منذ 225 سنة حتى الآن.

وتم تحديد ما يزيد على 900 مؤشر في هذه المناطق سالفة الذكر، مما يوحى بأن المجال الوطني غني بالمعادن التي ما زالت تحتاج إلى مزيد من التنقيب، لتأكيد إحتياطيات ما تم إكتشافه والبحث عن معادن أخرى، قد تكون مختبئة تحت هذه الأراضي الشاسعة، و من أهم المعادن المتوفرة والمستغلة الحديد، الذهب النحاس والجبس والفوسفات والنفط، والملح وغيره.

ويمكن أن نقسم هذه المعادن إلى نوعين:

معادن مستغلة، وأخرى معادن غير مستغلة وسنتطرق إلى أهم المعادن المستغلة في موريتانيا وأهمها معادن، الحديد، النحاس ،الذهب، الكوارتز والملح والجبس.وسنتناولها بشيء من التفصيل.

1. الحديد:

من المعادن الفلزية الرئيسية التي قامت عليها الحضارة الحديثة وهو الركيزة الأساسية للثورة الصناعية، التي عرفتها أوروبا في القرن 19، ولعله من أهم الموارد الطبيعية التي مهدت للإستعمار الأوربي بالدخول في حملات إستكشاف وتنقيب في مختلف أنحاء الأقاليم الجنوبية أو ما يعرف بعالم ما وراء البحار، للكشف عن المواد الأولية التي تحتاجها المصانع الغربية.

فكان عامل الاقتصاد من ضمن العوامل التي أدت إلى إستعمار موريتانيا وغيرها .وقد ذكرت إحدى المجلات الفرنسية الصادرة 1900 أنه عثر على قطع معدنية في منطقة الجل شمال موريتانيا، وكانت هذه الفترة هي البداية الفعلية لإستعمار البلاد. وبعد دخول المستعمر عهد إلى الجيولوجين الفرنسين بالمركز الجيولوجي لإفريقيا الغربية الفرنسية ،مهمة التنقيب عن المعادن في الفترة ما بين 1946 . 1948 .،وقامت شركة كندية بفحص صخور المنطقة سنة 1949 ومنذ هذا التاريخ ،ظهرت الإرهاصات الأولى لإمكانية إستغلال معدن الحديد. وقد أكتشف المعدن في المنطقة الشمالية ولاية (تيرس زمور) وبالتحديد في ظهر أرقيبات ومنطقة القلابة المحيطة بمدينة زويرات، ويقدر إحتياطيها بمليارات الأطنان، تتمركز في المراكز التالية:

- قلب الغين وأم أرواقن: 1 مليار طن ونسبة الحديد في الخام ضعيفة تتراوح من 37% . 42%.
- تزقاف البيضة: يصل إحتياطيها من الحديد إلى 830 مليون طن نسبة الحديد في الخام 33%.
- T.O . 14 يبلغ إحتياطيه 55 مليون طن من الحديد الغني.
- قلب لعقارب أسكاف: يقدر إحتياطها بـ394 مليون طن ونسبة تركيز الحديد 33%.

وتوجد إحتياطات أخرى من الحديد لم يتم تثبيتها بعد في مناطق أخرى مثل، أقلاب ترزقاف الخضراء، وآتوماي، قلب أم أقرين ،لبيطنية ،أمكب دن ،تيمرساي.

❖ إستغلال الحديد وإنتاجه:

تولت شركة ميفرما ذات رأس المال المشترك والمؤسسة سنة 1952، عمليات التعدين في سنة 1954، حيث نفذت عمليات التفجير الأولى في تزاديت و بدأ الإنتاج الفعلي للحديد وتصديره سنة 1963أنظر الجدول1

الجدول رقم (1): إنتاج المعادن في موريتانيا بآلاف الأطنان

المعدن	السنوات										
	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014
الحديد	10.675	10752	11155	11233	11297	10524	11534	11146	11169	12531	13306
النحاس بالطن	–	–	5000	28733	34070	36680	36970	35279	37668	37970	33100
الذهب بالكيلوغرام	–	–	294	2169	6282	7835	8328	8177	7647	9499	9620

المصدر: شركات التعدين تازيازت MCM، اسنيم2014

وأنتج 2516 مليون طن ليصل الإنتاج سنة 1970 إلى 9103 مليون طن، وتجاوز 11727 مليون طن، سنة 1974 بعد سنة من تأميم شركة اسنيم تراجع الإنتاج ليبلغ 8,7 مليون طن سنة 1975، ووصل سنة 1985 إلى 9203 مليون طن، وظل إنتاج معدن الحديد في تطور رغم حالات التراجع التي عرفها بعد التأميم.

ونلاحظ من خلال الجدول أن إنتاج الحديد ظل في ارتفاع مستمر في الفترة ما بين 2004 . 2014 ليصل إنتاجه إلى أكثر من 13 مليون طن، وكانت أسعار الحديد، حينها مرتفعه. فبلغ متوسط سعر الحديد 2008 مثلا 76 دولار ليرتفع سنة 2012 إلى أكثر من 100 دولار، ليتراجع إلي 40 دولار سنة 2016 .وتدير الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (أسنيم) هذا المعدن وتساهم الدولة فيها برأسمال يزيد على 78%. كما تستقطب الشركة أكثر من 5000 عامل، وتعد بذلك أكبر تجمع عمالي بعد الدولة .كما تتبع لها عدة شركات ، كشركة السياحة "سوماسرت" وشركة إنتاج الحديد والخرسان "سافا" وشركة كوميكا" وشركة "ساما".

ويلعب معدن الحديد دورا هاما في الاقتصاد الوطني، فهو العمود الفقري للاقتصاد الموريتاني الحديث. و من الممكن أن يلعب دورا مهما في تطوير البلاد إذا سير تسييرا معقلنا .

ويتم تصدير الحديد الموريتاني إلى مجموعة من الدول هي:

- الصين تتلقى 55% من صادرات الحديد[3].
- آلمانا 15%.
- سويسرا 7%.
- إيطاليا 7%.

وهنا معادن أخرى لا تقل أهمية عن الحديد خاصة أن بعضها يصنف معدنا ثمينا . كالذهب ومعدن النحاس الذي يعتبر معدنا هاما.

2. الذهب والنحاس

يعد الذهب من المعادن الثمينة، كما أن معدن النحاس من المعادن التي يتم استغلالها في أغراض مختلفة. وقد تعاقبت على المعدنين عدة شركات أجنبية. ومر استغلالهما بمراحل، فقد أستغل النحاس منذ الأربعينات من طرف شركة B.R.G.M

وفي سنة 1952 أنشئت شركة معدن نحاس موريتانيا (MICIMA) وشيدت مصنعا لاستغلال النحاس ،وفي سنة 1967 قامت شركة آنجلو آمريكن بدراسة للجدوائية الاقتصادية لإنتاج المعدن من خاماته. ولم ينتج إلا في سنة 1969،حيث بدأ الإنتاج الفعلي للنحاس من طرف شركة (TORCO) ،إلا أنه توقف سنة 1978 نتيجة لتدهور أسعار النحاس وارتفاع تكاليف الطاقة.ليبدأ من جديد مع شركات أخري وفي سنوات لاحقة هي:

1981 بدأ أعمال من طرف شركة سامي بأشغال الإنتاج.

1991 –1996 قامت شركة موراك بمعالجة 3 مليون طن من مخلفات الإنتاج 6طن من الذهب.

1997 تم إنشاء شركة GMAK ولكنها لم تتجاوز إلى مرحلة الإنتاج بسبب تدني أسعار النحاس.

2004 تم إنشاء شركة MCM موريتاني كوبير ماير MAURITANIE COOPER MINRS.

2005– 2006 تم بناء مصنع MCM

وفي أكتوبر 2006 بدأ انطلاق الإنتاج من جديد.

فبراير 2007 دخول مصنع الذهب MCM في الإنتاج.

2009 زيادة طاقة المصنع من أجل معالجة 3,8 مليون طن من الخامات سنويا وإنتاج 40. 45 ألف طن نحاس وحوالي 90 ألف أونصة من الذهب.

لقد تمت استعادة إنتاج النحاس من طرف MCM سنة 2006 وعرف إنتاجه زيادة كبيرة منذ هذا التاريخ حتى سنة 2010، انظر تطور إنتاج النحاس والذهب جدول1.

وبصورة عامة بلغ إنتاج النحاس 37970 طن 2013، ويصدر النحاس أساسا إلى الصين، وتسهم الشركة بتوظيف 1500 عامل وطني[4].

أما بالنسبة للذهب فبعد توقف أنشطة موراك 1996 التي كانت تنتجه بدأت كل من تازيازت m c m باستغلاله منذ 2006 .وقد تجاوز إنتاج الذهب من أم اقرين وتازيازت 6282 كليو غرام سنة 2006 إلى 9499 كغ سنة 2013، ونسبة81% من إنتاجه من نصيب تازيازت وتوظف الشركة أكثر من 450 عامل.

3. كوارتز:

أستغل سنة 2014 من طرف شركة لكوارتز الموريتانية

تملك الدولة الموريتانية 10% من رأسمالها.وينتج المعدن المستغل من منطقة تقع إلى الشرق من لبطنية في داخلت نواذيبو. ونوعية المعدن جيدة وأسعاره دوليا في ارتفاع ، بسبب استخداماته المتنوعة خاصة في مجال الالكترونيات، كما تنوي الشركة استخراج هذا المعدن في منطقة أم آقنينيه الموجود في نواذيبو.

4. الملح:

ينتج أساسا من سبخة الجل الواقعة شمالي أم أفديرك ويبلغ إنتاجه السنوي حوالي 6000 طن ويستغل بطرق تقليدية، ويستخرج على شكل صفائح يغذي السوق المحلية بمتطلباتها من الملح.

5. البترول والغاز:

أنطلق الإنتاج في فبراير 2006 في حقل شنقيط. ولكنه كان أقل من التوقعات، حيث قدر أن إنتاجه سيصل إلى 75 ألف برميل يوميا. لكنه لم يتجاوز 36 ألف برميل يوميا سنة 2006 وتراجع إلى 7000 برميل يوميا 2015.

ويعود ذلك إلى مجموعة من المعوقات التقنية التي تم التعرض لها خلال مرحلة الاستغلال، ويستخرج من حقل شنقيط الواقع على مسافة 70 كلم قبالة نواكشوط. وتقوم على إنتاجه شركة PETRONAS وشركاؤها، وتقدر عائدات تصديره بحوالي 62.945 مليار أوقية سنة 2013 وتشهد أسعاره تراجعا كبيرا ،حيث انتقلت من 120دولار إلى أقل من 40 دولار للبرميل، مما سيكون له انعكاس على عائداته.

ثانيا\ مساهمة المعادن في الناتج الداخلي الخام:

هناك تزايد في أهمية مساهمة المعادن في الناتج الداخلي الخام بعد أن كان يعتمد على الاقتصاد التقليدي الزراعة، التنمية الحيوانية والصيد . وتتراوح القيمة المضافة للقطاع المنجمي من 51.184 مليون أوقية سنة 2005 إلى 9.831 مليون أوقية[5] سنة 2014 أي بزيادة بلغت 7% بصورة عامة انتقل القطاع المنجمي في الناتج الداخلي الخام من 9,7% سنة 2005 إلى 15% سنة 2010، في حين لم تتجاوز النسبة 2,3% لقطاع الصيد و4,6% لقطاع الزراعة.

ثالثا\ الآفاق والتحديات

قامت الحكومة في السنوات الأخيرة بالعديد من الإصلاحات المهمة الهادفة إلى خلق ظروف ملائمة لتطوير وتنمية القطاع المعدني.

ويعتمد التوجه الإستراتيجي في هذا المجال على دعم:

- دعم التسيير والاستغلال الأمثل للموارد والقدرات من خلال تحسين الإطار التشريعي ودعم قدرات التدخل في القطاع.
- زيادة الهيئات الجيولوجية الأساسية.
- تطوير البحث ودعم التنقيب المعدني.
- الإسراع في تنفيذ مشاريع تطوير المعادن.

مكنت هذه السياسة التحفيزية من دخول العديد من المستثمرين المعدنيين في موريتانيا 150 رخصة بحث وتنقيب و13 رخصة إستغلال[6]، حسب الجهات الرسمية.

ولا تزال الآفاق واعدة بالنسبة للقطاع المعدني، إذا ما وضعت استراتيجية وطنية تعمل على تسييره بطريقة معقلنة تعود بالفائدة على السكان والمجال .خاصة إننا في بلد لم يشهد لحد الساعة نهضة تنموية أو أي

تطور يذكر رغم أننا نتوفر علي موارد طبيعية هائلة إذا ما قورنت بعدد السكان، وأكدت ذلك تقارير التنمية البشرية التي رتبت موريتانيا المرتبة 161 من أصل 187 دولة. وأن 40,7% من سكانها يعيشون في فقر مدقع و47,7% يحصلون على أقل من دولارين يوميا، ويضع مستوى توزيع الثروة موريتانيا، في أواخر المرتبة . 0,39 في التصنيف الدولي للعدالة الاجتماعية، وتؤكد هذه الأرقام أن الثروة المعدنية، ما زالت لم تلعب دورها الاقتصادي المنوط بها، نظرا لعامل سوء التسيير. كما أنها تواجه تحديات مختلفة نختزلها فيما يلي:

- التبعية للخارج.
- إمكانية نفاذها إذا يتواصل استغلالها بالوتيرة الحالية التي يتم بها الإنتاج مع العلم أنها ثروة غير متجددة.
- عدم تطويرها إلى صناعات تحويلية لتعود بالفائدة على البلاد.
- سوء إدارة القطاع المعدني وعدم استغلاليته عن التحولات السياسية المتعاقبة على البلد.

الخاتمة

تزخر الأراضي الموريتانية بموارد معدنية هامة ومتعددة الأنواع، كما لاحظنا من خلال واقع المعادن الذي تعرضنا له بشيء من التفاصيل مع ذكر الاحتياطي والإنتاج والشركات المشرفة على التسيير ومساهمته في الناتج الداخلي الخام ومدى استيعابه للعمالة خاصة شركة اسنيم. إلا أن ما يغيب عن الباحثين، هو حقيقة تسيير هذه الثروة وأين تصرف عائداتها . وإن كانت عائدات الحديد تساهم مساهمة هامة في الناتج الداخلي الخام وكانت شركة الصناعة والمناجم تعمل على تنشيط حركة الاقتصاد الوطني وتستوعب عمالة هامة.

فإن الشركات المنجمية الأخرى المستغلة لثروتي الذهب والنحاس، ما زالتا مثار جدل، نظرا لعدم مردوديتهما علي الاقتصاد الوطني، إذا ما قيس ذلك على ما يتم استغلاله من هذين المعدنين. ويتطلب هذا مراجعة للجدوائية الاقتصادية لاستغلال هذه المعادن بالطريقة الحالية، خاصة إذا علمنا أنها معادن غير متجددة وقابلة للنفاذ .

الهوامش:

[1]– أساسيات علم البيئة، د. عبد القادر عابد، د. غازي سفاريتي، قسم الجيوليوجيا جامعة الأردن، ص43 ,2002، دار وائل للطباعة والنشر ، عمان الأردن.

[2]– أطلس موريتانيا، Atlas de la Mauritanie; jeune Afrique. P 1977

[3]– المصدر: الشركة الوطنية للمعادن، الإدارة العامة. 2014

[4]– المصدر: إدارة شركة تازيازت سنة 2013.

[5]– التقرير الوطني حول التنمية البشرية، 2015 PNUD

[6]– المصدر: وزارة المعادن والطاقة. 2014

قائمة المراجع

- Repport national du développement HUMAIN 2015 PNUD
- Atlas de le Mauritanie edution jeune Afrique Paris 1977
- وزارة المعادن، والطاقة الإدارة العامة، نواكشوط 2015.
- نشرات ومقابلات من الشركة الوطنية للصناعة والمناجم اسنيم.
- شركة تازيازت TASIAST أو شركة MCM
- أساسيات علم البيئة، د. عبد القادر عابد، د. غازي سفاريني، قسم الجيولوجيا الجماعة الأردنية.

نشرات الأمم المتحدة السنوية حول التنمية البشرية على المواقع الالكترونية المعروفة.